استجابة وكسب كبير

كان من القدر لعدد خاص عن فقيد العروبة والفكر سامي الدروبي ، بدأنا الاعداد له منذ عدة شهور ، أن يصدر هذا الشهر ، لكن أسباباً عديدة دعت الى التريث في اصدار هذا العدد .

مثال ذلك اننا نحاول أن يكون هذا العدد في مستوى الرجل الذي نحيي ذكراه ، وفي مستوى الجهد الخلاق الذي بذله خلال حياته ، والذي تجلى في عشرات الكتب ، المؤلفة والمترجمة ، التي اضافت الى المكتبة العربية رصيداً ضخماً ارتفعت به قامتها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومثال ذلك أيضاً ان العديد ممن اتصلنا بهم ليسهموا في هذا العدد الخاص ، انما يقيمون في اقطار شتى ، الأمر الذي احتاج الى بعض الوقت ريثما نتأكد من أن ظروفهم تسمح لهم بذلك .

ومثال ذلك ، مرة أخرى ، أننا لم نقصر اتصالنا على كل هؤلاء الذين عرفوا سامي الدروبي عن قرب ، أو الذين قرأوا مؤلفاته ، المكتوبة والمترجمة ، قراءة فاحصة ومدققة ، أي قراءة نقدية ، وانما عمدنا في الوقت نفسه الى الاتصال ببعض المستشرقين الذين كانت لهم صلة بسامي الدروبي ، والذين يملكون أن يسهموا في تقييم المهمة التي اضطلع بها سامي الدروبي في ميدان الترجمة على وجه التخصيص .

وبطبيعة الحال ، فان هذا كله لابد وأن يستغرق زمناً طويلاً قبل أن تتجمع لدينا المادة الجديرة بأن نقدمها الى القارىء ، الأمر الذي دعانا الى التريث قليلا في انتظار ان نستكمل هذا العمل الذي بدأناه ، والذي نأمل في أن نتابعه حتى نصل به إلى صورته المثلى ، بقدر ما نملك ونستطيع .

وابتداء من هذا العدد ، تشرع « المعرفة » في نشر دراسة مطولة كتبها مفكر عربي آثر لاسباب عديدة ان يصمت ما ينوف على عقد من الزمن . ان عبد الكريم زهور الذي عرفه القارىء العربي مفكراً سياسياً لامعاً ، وكاتبا من طراز رفيع ، يكتب هذه المرة ، وبعد هذا الصمت الطويل ، دراسة تتصل بميدان رئيسي من ميادين اهتماماته ، وهو ميدان علم النفس . وعلى الرغم من أن عبد الكريم زهور حاضر في جامعة دمشق في علم النفس ، الا ان هذه ، في حدود ما أعلم ، هي المرة الاولى التي ينشر فيها شيئاً في هذا الموضوع . وما زلت أذكر محاضراته التي كان يلقيها علينا أيام كنا طلاباً في قسم الفلسفة بجامعة دمشق ، وما زلت اذكر ايضا الامليات التي كتبها لنا والتي كانت تبحث في المدرسة السلوكية . الا أن شيئاً من هذا الذي كتبه لم ينشر في مجلة او كتاب .

ومنذ مدة من الزمن ، ونحن في « المعرفة » نلح على استاذنا عبد الكريم زهور ان يخرج عن صمته ؛ لكنه كان يعتذر ويتعلل بأعذار شتى . وحين شرعنا في الاعداد للعدد الخاص عن سامي الدروبي عدنا مرة أخرى الى الحاحنا . وفي هذه المرة لم نخفق ، فالرجل لأسباب عديدة ، ربما كان بعضها يتصل بصداقته لسامي ، وربما كان بعضها الآخر يتصل بموضوع هو من صلب اهتماماته ، استجاب بسرعة . بل ان استجابته تجاوزت حدود توقعاتنا . فالدراسة التي أعدها تتناول اعمال سامي الدروبي في ميدان علم النفس ، وهي اعمال لم يسبق لأي كان أن ألقى نظرة نقدية عليها . والدراسة سوف تنشر على حلقات ، تعالج الحلقة الأولى أعمال سامي الدروبي في ميدان علم النفس التجريبي ، وهي الحلقة المنشورة في هذا العدد ، وتعالج الثانية أعماله في ميدان علم النفس الفرقي ، أما الثالثة فتعالج أعماله في ميدان علم النفس الفني .

ونحن في « المعرفة » نعتبر هذه الاستجابة كسباً كبيراً ، ليس لأنها صادرة عن استاذنا عبد الكريم زهور فحسب ، وانما لأنها صادرة ايضا بعد صمت لم يكن في حسباننا انه سوف يطول كثيراً .

رئيس التحرير

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قضايا قومية

الوحدة : من معها ومن عليها ؟

٤

جورج صدقني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« نحن على طريق الصحة والسلامة بقدر ما نعمل من اجل الوحدة ، ونحن أصحاء بقدر ما نحقق من الوحدة » .

حافظ الأسد

بعد ان استعرضنا في القسمين الاول والثاني من هذه المقالة اعداء الوحدة في الخارج ، بدانا في القسم الثالث منها (١) بعرض اعدائها في الداخل ، فتناولنا بالبحث عدوين من هؤلاء الأعداء الداخليين هماالطبقات المستغلة (بكسر الغين) ، والإقليمية ، على ان نتابع البحث في مقالة اليوم في سائر الاعداء الداخليين للوحدة العربية . وقد رأينا – على سبيل التلخيص والتذكير – في القسم الثالث المشار إليه :

---

(١) انظر مجلة (المعرفة) الدمشقية ، الاعداد ١٧٠ – ١٧١ – ١٧٢ ، نيسان – أيار – حزيران ١٩٧٦

١ ـ أن **الطبقات المستغلة** (بكسر الغين) وانظمة الحكم التي أفرزتها تعادي الوحدة وتتشبث بالتجزئة ، لإدراكها أن التجزئة هي الوضع المناسب لاستمرارها في استغلال الجماهير العربية الكادحة ، وان الوحدة هي خير مناخ يهيء لهذه الجماهير فرصة القضاء على الاستغلال وبناء الاشتراكية .

٢ ـ أن الاستعمار وجد في **الإقليمية** ، بما تمثله من نزعة تعصبية محلية ضيقة ، خير ما يخدم أغراضه في ترسيخ التجزئة وفي محاربة الوحدة العربية ، فغذى هذه النزعة وشجعها ودعمها وتحولت في ظله إلى نظريات لفلسفة التجزئة ومحاربة العروبة .

واليوم نتابع البحث ، بعد ان وصلنا إلى العدو الثالث من هؤلاء الاعداء الداخليين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ ـ بعض **الأمراض الاجتماعية** ، التي تعد من رواسب التخلف أو مظهراً من مظاهر هذا التخلف ، والتي تدخل في عداد العوائق التي تعرقل مسار التيار الوحدوي بما تمثله من قوى الفرقة والتمزق وما تشيعه من رصيد إلى واقع التجزئة . ولعل أبرز المظاهر التي تتجلى فيها هذه الامراض الاجتماعية هي الطائفية والعشائرية والعائلية .

أما **الطائفية** فهي نزعة سياسية تعصبية تستغل اختلاف الانتماءات الدينية للمواطنين ، وتحاول أن تقيم من هذا الاختلاف ـ على نحو يناقض روح الدين واوامره ونواهيه ـ حواجز بشرية تمنع التواصل والتراحم بين المواطنين ، وتحاول ايضاً أن تحول الانتماء الديني الطبيعي إلى ولاء سياسي للطائفة بدلا من الولاء السياسي للوطن والعروبة .

ولعله من المفيد ، في تسليطنا الاضواء على الطائفية بهدف كشفها وفضحها وتعريتها ، أن نركز على الحقائق التالية :

آ ـ لايمكن للطائفية أن تكون عاملا من عوامل التلاحم بين المواطنين،

بل هي قطعاً عامل من عوامل الفرقة والتمزق . ولما كان شعار « فرق تسد » شعاراً أساسياً من شعارات الاستعمار ، بل مبدأ من مبادئه ، باعتبار أن الاستعمار يراهن دائماً على كل ما من شأنه ان يزرع التناقض والانقسام بين صفوف الشعب الرازح تحت وطأته ، فقد وجد الاستعمار في الطائفية ضالته المنشودة ، فنفخ في نارها واججها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ولم يقتصر هذا الأمر على الوطن العربي وحده ، بل كان قاعدة عامة التزم الاستعمار بها التزاماً شاملا فطبقها حيث تمكن من تطبيقها. ولما كان من النادر ان تجد امة في العالم ينتمي ابناؤها إلى ديانة واحدة فقط ، فقد صار إشعال نار الطائفية وسيلة تقليدية منوسائل الاستعمار يلجأ إليها في معظم أنحاء العالم . لقد كان الاستعمار يتصور انه يصرف بذلك انظار الشعوب المستعمرة (بفتح الميم) عن هدفها في التحرر والاستقلال القومي وعن رص صفوفها ووحدة نضالها من أجل تحقيق هذا الهدف .

ARCHIVE

ب ــ لقد فطن الذين حملوا راية العروبة وناضلوا من اجل وحدة الأمة العربية وتحررها واستقلالها القومي ، منذ اللحظة الأولى ، لهذه اللعبة القذرة ، وادركوا مدى خطر الطائفية على تلاحم ابناء الأمة ووحدة نضالهم . فمنذ العام ١٩١٢ التأم شملهم في المؤتمر العربي المنعقد في باريس تحت شعار « الدين لله والوطن للجميع » . وقد استطاع هذا الشعار أن ينتصر على شعار « فرق تسد » الاستعماري ، وتجلى انتصاره ، على سبيل المثال ، في ان شهداء العرب ، الذين علقهم جمال باشا على اعواد المشانق في دمشق وبيروت في السادس من أيار ١٩١٦ لكبح تيار النضال العربي الجارف من اجل الحرية والاستقلال القومي ، لم يكونوا من طائفة واحدة . وتجلى ايضاً في أن ذلك الشعار ــ شعار « الدين لله والوطن للجميع » ــ قد أصبح بعد ذلك من الناحية العملية شعار معظم الثورات التي نشبت في الأقطار العربية ضد الاستعمار والصهيونية والاحتلال الأجنبي ، كثورة الشعب العربي في مصر في العام ١٩١٩ على الحماية البريطانية ، وثورات الشعب العربي في سوريا في

الساحل والداخل والجبل على الانتداب الفرنسي ، وثورات الشعب العربي الفلسطيني في العشرينات وفي العام ١٩٣٦ على الانتداب البريطاني والغزو الصهيوني .

جـ ــ لقد كرس هذا الوعي العميق في ممارسة النضال السياسي القومي العربي التمييز تمييزاً واضحاً ودقيقاً بين الدين من جهة والطائفية من جهة أخرى . فالدين شيء ، والمتاجرة السياسية بالعواطف الدينية شيء آخر مختلف اختلافاً تاماً . إن تجار السياسة من الطائفيين يحاولون إيهام الناس بأن انتماء المواطن دينياً إلى ديانة من الديانات يستتبع بالضرورة التعصب الطائفي ضد المواطنين الآخرين المنتمين إلى ديانات اخرى ، بل يحاولون فوق ذلك إيهام الناس بأن الطائفية والتعصب الطائفي مظهر من مظاهر الإيمان والتمسك بأهداب الدين . وهؤلاء التجار السياسيون الطائفيون هم ، في محاولاتهم هذه ، ابعد الناس عن تطبيق تعاليم الدين تطبيقاً صحيحاً . فالدين من هذا كله براء ، وهو أبعد ما يكون في روحه ونصوصه عن الطائفية والتعصب الطائفي ، بل هو ضدهما ويتناقض معهما على طول الخط .

وفي وطننا العربي يعرف الناس جميعاً ان من أبرز القيم الروحية والخلقية التي يقوم عليها الإسلام والمسيحية هي الإخاء الإنساني والمحبة والتسامح والمعاملة الحسنة . ولو أخذنا الإسلام على سبيل المثال ــ باعتبار ان الاكثرية الساحقة من المواطنين العرب تدين بالإسلام ــ لما افتقرنا إلى النصوص الصريحة التي تدين الطائفية والتعصب الطائفي إدانة واضحة لا لبس فيها ولا غموض . إن آيات القرآن الكريم خير شاهد على ما نقول :

ــ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ... الآية (سورة الحجرات)

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ــ « ... ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لايستكبرون » . (سورة المائدة)

ــ « اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » ... الآية (سورة المائدة)

ــ « لا إكراه في الدين » ... الآية (سورة البقرة)

ــ « ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » ... الآية (سورة هود)

ــ « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . (سورة يونس)

ARCHIVE

وفي الحديث الشريف : « من آذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة لهم مالنا وعليهم ما علينا » .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وما ينطبق على الإسلام في هذا المجال ينطبق على المسيحية تماماً .

د ــ وإذا كانت الأمور على هذا النحو ، أي إذا كان الدين شيئاً والطائفية شيئاً آخر مختلفاً اختلافاً تاماً ، فان محاربة الطائفية لايمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال محاربة للدين ، وإن من يحاولون تصوير محاربة الطائفية على هذا المنوال هم أنفسهم تجار السياسة الذين اتخذوا من اللعب بعواطف الناس الدينية مهنة وبضاعة رائجة .

هـ ــ الدين ينفي الطائفية إذن ، والطائفية غير الانتماء الديني . فالانتماء الديني ــ إلا في القليل النادر ــ موروث منذ الولادة ، فهو في عصرنا الحاضر حادثة طبيعية يكاد لايكون للإرادة الحرة بها أي شأن . اما الطائفية فهي ولاء سياسي للانقسام والفرقة والتعصب ، وبالتالي

ولاء لأعداء الأمة . وشتان بين الانتماء والولاء ، فالولاء فعل إرادي حر واختيار تقوم به الارادة الفردية بملء حريتها ؛ أما الانتماء فهو واقع محدد باعتبارات موضوعية مستقلة عن الارادة .

وفي سبيل مزيد من الايضاح نقول : العربي ينتمي إلى القومية العربية ، اي ان انتماءه القومي هو للعروبة ، وهذا الانتماء محدد بعوامل موضوعية مستقلة عن إرادة الفرد ، فالعربي عربي موضوعياً ولايستطيع الا يكون عربياً . ولكن هذا لاينفي احتمال وجود عربي بالولادة — أي انتماؤه القومي للامة العربية — يمنح ولاءه السياسي لغير العروبة ، أي يتخلى بإرادته عن قضايا شعبه ووطنه ، ويتخاذل عن القيام بواجبه القومي حيال هذه القضايا .

إن الانتماء القومي أو الانتماء للعروبة لا ينفي الانتماءات الاخرى ، كالانتماء الديني او الانتماء الانساني أو الانتماء الى أسرة معينة او فئة معينة من فئات المجتمع . ولكن الولاء للعروبة — باعتباره ولاء سياسياً — ينفي بالضرورة اي ولاء سياسي آخر يتعارض معه كالولاء الطائفي أو الولاء العشائري أو الولاء العائلي .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا عن الطائفية ، أما **العشائرية والعائلية** فهما عاملان من عوامل الفرقة والانقسام والتمزق التي تقف عائقاً أمام تلاحم ابناء الشعب الواحد في نضال موحد في سبيل تحقيق اهداف موحدة . وهما محاولة لتحويل نمطين من أنماط الانتماء في مجتمع متخلف غير متطور إلى ولاء سياسي يفسد وحدة الأمة من الداخل ويكون عاملامن عوامل التفسخ الذاتي .

إن الأسرة بحد ذاتها خلية اساسية في بناء المجتمع ، ولا يمكن تصور مجتمع ذي بنية سليمة متماسكة لايقوم على اساس الأسرة . ولكن العائلة (او الأسرة بالمفهوم القديم) هي غير الأسرة بالمفهوم الحديث ،اذ

انها اوسع من الاسرة الحديثة بكثير ، فهي تضم جميع الافراد المنحدرين من جد بعيد واحد . أما العائلية فهي الولاء للعائلة (بهذا المفهوم الواسع القديم) ، اي تقديم مصالحها على المصلحة العامة ، وهذا يعني أن العائلية تقيم من العائلة مجتمعاً في قلب المجتمع ، وتحول المجتمع الواحد إلى جزر منعزلة من المجتمعات الصغيرة تفصل بينها بحار من المصالح المتعارضة لاتصلح للملاحة . وبهذا تكون العائلية عاملا من عوامل التمزق والتجزئة ، وبالتالي عاملا من العوامل المنافية للوحدة . أما العشائرية فهي مماثلة للعائلية ، ولذلك فإن ما ينطبق على الواحدة منهما ينطبق على الاخـرى .

وكل مرض من هذه الأمراض الاجتماعية ، سواء منها الطائفية او العشائرية او العائلية ، يمثل مظهراً من مظاهر التخلف في حياتنا الاجتماعية والسياسية ، وكل مرض منها يمثل بحد ذاته قوة من القوى المعادية للوحدة العربية . وقد راهنت جميع القوى المعادية للوحدة العربية على هذه الأمراض لكي تزيد في تفتيت جسم الأمة الواحد ، ولكي تقلل من طاقاته الحيوية على النهوض والحركة السليمة . إن هذه الأمراض كلها تقف — شأنها في ذلك شأن الإقليمية — على طرفي نقيض مع الوحدة العربية . ولذلك ما أن يلوح « خطر » الوحدة حتى تستنفر هذه الامراض كل طاقاتها ، وتستثير كل مصالحها المهددة بالزوال والضياع ، لكي تشن حرباً لا هوادة فيها على الوحدة ، لأن الوحدة هي التي تكفل شفاء الأمة من هذه الأمراض كلها . وبهذا المعنى فإن الأمة العربية تكون سائرة على درب الصحة والسلامة اذا سارت على درب الوحدة العربية ، وتكون متمتعة بالصحة والعافية بقدر ماتحقق من خطوات عملية على طريق الوحدة ، وبهذاالمعنى تكون الأمةالعربية متمتعة بكامل صحتها وعافيتها وسلامتها عندما يتحقق لها نصرها الكبير بقيام الوحدة العربية الشاملة من اقصى المشرق الى اقصى المغرب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤ ـ ومن أعداء الوحدة العربية في الداخل ما يمكن أن نطلق عليه اسم **الشعوبية الجديدة** ، وهي نزعة حاقدة ، لأسباب ظاهرة وخفية ، على العروبة وعلى القومية العربية ، ولذلك لا تترك فرصة تسنح لها دون أن تنتهزها للنيل من كل ماهو عربي ، ومن كل مايمكن أن يكون ذا أثر إيجابي في دفع الأمة العربية خطوة الى الامام على طريق الوحدة العربية .

هذه الشعوبية الجديدة ـ وإن لم تكن متمثلة في فئة معينة واضحة الحدود بين المواطنين ـ تتمثل في ميل نفسي مريض حيناً وحاقداحياناً اخرى إلى الحط من شأن العرب والتقليل مـن طاقاتهـم وإمكاناتهـم وقدراتهم على الاسهام في الحضارة الانسانية . وإذا اخذنا واقع التخلف الذي تعيشه الأمة العربية في الوقت الحاضر على سبيل المثال ، وجدنـا ان نظرة هؤلاء الشعوبيين الجدد إلـى هذا التخلف تختلف اختلافـاً نوعياً عن التحليل العلمي الموضوعي لهذا التخلف . فهم لاينظرون الـى التخلف في أسبابه وعوامله الموضوعية ، ولايبحثون عن افضل الوسائل للقضاء على التخلف ، وإنما يرون أن حالة التخلف التي ينوء بها شعبنا حالة طبيعية لايمكن تجاوزها لان العرب دون غيرهم في طاقاتهم وفـي إمكاناتهم ، بل يكادون ان يجهروا بأن العرب يجب أن يبقوا متخلفين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هؤلاء الشعوبيون الجدد هم دعاة اللامبالاة واليأس . واعجب مـا في مواقفهم ان الواحد منهم يقول أو يتصرف علـى اساس ان مواهبـه وعبقريته مهدورة في « هذا المجتمع المتخلف » ، حتى إن التخلف لم يعد لدى هؤلاء واقعاً قابلا للدراسة والتحليل وقابلا للتغيير ؛ بل غدا لديهم مستودعاً لتسويغ كل ماهو فاسد وسلبي في الحياة العربية . التخلف ، لدى هؤلاء ، قضاء وقدر يفسر كل شيء ، ويزرع اليأس في النفوس .

وبعض هؤلاء يدعي العلم والثقافة ، فلا عجب إذا صادفت واحداً منهم يعرض امامك عضلاته الثقافية ، فيشرح لك كيف تتصرف الشعوب الراقية المتمدنة في هذا البلد أو ذاك ، ثم يردف : « لافائدة ! لايمكن أن

نصبح بشراً كفيرنا من البشر » ! وكأنه يأسف لأن حظه العاثر شاء لــه أن يولد عربياً بين العرب .

هؤلاء الشعوبيون الجدد يعدون من أعداء الوحدة العربية لأنهم ضد تطلعات العرب كلها يأساً وتخاذلا ، ولأنهم عامل من عوامل تثبيط الهمم والتقاعس عن النضال من أجل تحقيق هذه التطلعات المشروعة، وفي طليعتها الوحدة العربية . على أن مما يقلل من شأن هؤلاء وخطرهم أنهم لايمثلون القوى الحية الفاعلة في الأمة العربية ، بل هم الخلايا الميتة من جسد هذه الأمة . وإذا كان بعض من هؤلاء يدعي لنفسه العلم والثقافة ، فإن هذا لاينفعه في تغطية ماقدمته الأمة العربية في تاريخها العريق من منجزات الحضارة الانسانية ، فالأمة العربية تشهد لها حضارتها الماضية بقدراتها وطاقاتها على الابداع والخلق . وحتى لو كان هذا كله غير صحيح ، فإن شعبنا هو شعبنا ، وليس بوسعنا أن « نستورد » شعباً آخر كرمى لعيون الشعوبيين الجدد . ان أفضل هؤلاء الشعوبيين الجدد جاهل ينطبق عليه ما قاله أحد الكتاب العرب الظرفاء : «الجهل أنواع ، وأسوأ أنواع الجهل هو ذلك الجهل الذي يخفي نفسه وراء شهادة جامعية » .

* * *

بعد هذا كله ، قد يقول قائل : « ولكن هذا يعني أن أعداء الوحدة كثيرون : الاستعمار والامبريالية ، والصهيونية العالمية ، والطبقات المستغلة (بكسر الغين) وأنظمة الحكم التي أفرزتها للمحافظة على مصالحها الرجعية ، والإقليمية ، والطائفية ، والعشائرية ، والعائلية ، والشعوبية الجديدة . واذا كان هؤلاء كلهم جميعاً أعداء للوحدة ، فهذا يعني أن هذه الوحدة العربية صعبة المنال ، عسيرة التحقيق ، فمن يبقى للوحدة ينصرها ويؤازرها ؟ وماهي القوى التي ستناضل من أجل تحقيقها ؟ واين السبيل الى ذلك ؟ » .

وجواباً عن هذه التساؤلات نقول :

١ ــ نعم ، إن أعداء الوحدة كثيرون ، بل كثيرون جداً . ولكن هذا كله لايثبط الهمم ولايدعو إلى اليأس ، فهذه القوى المعادية كلها ليست من قوى الحرية والتقدم ، ليست قوى صنع التاريخ ، ليست من قوى المستقبل . إنها ــ كلها دون استثناء ــ قوى الرجعية والعبودية والتخلف، قوى الماضي الذي ولى وانقضى ، قوى صائرة إلى الانحدار والزوال بحكم قوانين التقدم التاريخي .

٢ ــ نعم ، إن الوحدة العربية صعبة المنال ، عسيرة التحقيق ، بل إنها تكاد تكون « ممنوعة » . فكلما لاحت في الافق بارقة امل لتحقيق خطوة على طريق الوحدة ، تألبت عليها كل قوى الشر والرجعية في الخارج والداخل لخنقها في المهد ، او لتحطيمها اذا تحققت . ولكن الوحدة العربية ليست مستحيلة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ ــ تبقى للوحدة العربية ــ رغم كثرة أعدائها ــ قوة أقوى من هؤلاء الاعداء مجتمعين ، تبقى لها الجماهير الشعبية ، الجماهير الشعبية الواسعة العريضة ، « فالجماهير الشعبية هي وحدها المبرأة من رواسب الاقليمية وظروفها والمصالح التي تولدها . فالعمال والفلاحون لن يفقدوا شيئاً بزوال الحدود ، في حين ان البورجوازية والبيروقراطية تفقد مواقعها الحقيقية عند زوال الحدود » (٢) . تبقى لها الجماهير العربية الكادحة ، جماهير العمال والفلاحين والحرفيين وصغار الكسبة والجنود والمثقفين الثوريين ، تبقى لها تلك الجماهير ، التي لوتركناها « في اي قطرين عربيين على سجيتها ، في اي وقت ، وطلبنا إليها انتختار بين الوحدة ــ بغض النظر عن كل أشكال الوحدة التي يمكن ان تطرح على

(٢) ــ انظر (بعض المنطلقات النظرية) لحزب البعث العربي الاشتراكي ، الطبعة الثالثة التي اصدرتها القيادة القومية بدمشق ١٩٧١ ، ص ٣٩ .

هذه الجماهير ــ وبين أي شيء آخر ، لن تتردد جماهيرنا في اختيار الوحدة وبشكل كاسح . لو قدمنا لها الوحدة من جهة ، والمن والسلوى من جهة أخرى ، لاختارت الوحدة على أن تختار المن والسلوى » ، كما يقول الرئيس حافظ الأسد (٢) .

٤ ــ وهذه الجماهير الشعبية ليست كتلة سديمية هلامية . انها الجماهير المسلحة بالوعي ، والمعبأة للنضال من أجل تحقيق مصالحها في بناء دولة العرب الاشتراكية الديمقراطية ، والمنظمة في منظمات قادرة على قيادتها في نضالها اليومي باتجاه تحقيق أهدافها ، والملتفة حول طليعة ثورية أو حزب ثوري يوحد نضال الجماهير الشعبية العربية من المحيط الى الخليج ، ويكون أداة الثورة العربية الشاملة ، التي ستكون كفيلة بدحر جميع القوى المعادية لتطلعات الامة العربية المشروعة في الوحدة والحرية والاشتراكية ،والتي سيتكلل نصرهابإقامة دولةموحدة، تضم جميع أبناء الامة العربية وتشمل كل بقاع الوطن العربي ، حرة مستقلة ، ديمقراطية اشتراكية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اما الطريق إلى تحقيق الوحدة العربية فيستحق مقالة مستقلة .

---

(٢) ــ انظر (التقرير السياسي) الذي أقره المؤتمر القومي الثاني عشر لحزب البعث العربي الاشتراكي ، دمشق ١٩٧٥ ، ص ٢٠٥ .

أعمال سامي الدروبي في ميدان علم النفس

عبد الكريم زهور عدي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من بين الميادين الكثيرة ، الفكرية والعملية ، التي شارك فيها سامي الدروبي ، ربما كان ميدان علم النفس هو الذي أعطى فيه خير أعماله ونتاجه ، وهذا من بركة الجامعة عليه . ففي سنة ١٩٤٨ بدأ التدريس في جامعة دمشق ، وظل يمارس التدريس فيها إلى سنة ١٩٦٣ مع انقطاعات تبلغ حوالي ست سنوات . وكان علم النفس هو العلم الذي صب معظم جهوده في تدريسه . وابتداء من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٧١ نشر العديد من البحوث والكتب المدرسية والمترجمة والمؤلفة في علم النفس . وهذه قائمة بأعماله في هذا الميدان ، مستثنى منها ما يتصل بالدراسات النفسية في كتب برغسون وغويو وكروتشه الفلسفية التي ترجمها :

١ – حدس الفنان بين نظرة العالم وتجربة المتصوف

محاضرة ألقاها سامي في حمص سنة ١٩٤٨ (على الأغلب) ونشرت في مجلة الأمل (الحمصية) السنة الثانية العدد السادس.

٢ – نماذج الشخصيات (ادوارد شبرانغر)

نص مترجم عن الترجمة الفرنسية التي أوردها دوهوفر في كتابه « أساطين التربية المعاصرة » لنص مقتطف من كتاب شبرانغر

« أشكال الحياة » مجلة « المعلم العربي » ، السنة الثانية ، العدد الخامس آذار ١٩٤٩ .

٣ ـ علم النفس في نيويورك (وليم مكدوغل)

نص مترجم عن الترجمة الفرنسية التي أوردها دوهوفر في كتابه « أساطين التربية المعاصرة » لنص من مقالة لمكدوغل نشرت في كتاب بعنوان « السلوكية » (لندن ١٩٣٠) يضم مجموعة مقالات لعدة مؤلفين . مجلة « المعلم العربي » ، السنة الثانية ، العدد السادس نيسان ١٩٤٩ .

٤ ـ السيكولوجيا السلوكية (جون واطسن)

نص الخطاب الذي ألقاه واطسن في لقائه مع مكدوغل في مناظرة عامة جرت في واشنطن سنة ١٩٢٤ ، وكان الفوز فيها لمكدوغل .

مجلة « المعلم العربي » ، السنة الثالثة ، العدد المزدوج (٢ ، ٣) ، كانون الأول ١٩٤٩ كانون الثاني ١٩٥٠ وهذه النصوص الثلاثة تدخل ضمن سلسلة من النصوص المترجمة نشرها في مجلة « المعلم العربي » (السنين الثانية والثالثة والرابعة) تحت عنوان « نصوص تربوية مختارة » أو « نصوص مختارة في التربية وعلم النفس » .

٥ ـ علم النفس ونتائجه التربوية (بالاشتراك مع حافظ الجمالي)

كتاب مدرسي لدار المعلمين الابتدائية ، نشر دار اليقظة العربية في دمشق ١٩٤٩ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

٦ — سيكولوجية المرأة (ج. هيمانس) — دار الفكر العربي في القاهرة ، بدون تاريخ ، ولكن سامي يذكر في هامش في كتاب « علم الطباع » أن تاريخ نشره ١٩٥٢

٧ — الموجز في علم النفس (بالاشتراك مع عبدالله عبد الدايم) — كتاب مدرسي نشرته وزارة المعارف السورية ١٩٥٥ .

٨ — الطبع وشكل الجسم — عرض لنظرية كرتشمر في نماذج الطباع « مجلة كلية التربية » ، السنة الأولى ، العدد الأول ، ١٩٥٥ .

٩ — نماذج الشخصية في نظرية الأخوين « ينش » — « مجلة كلية التربية » ، السنة الأولى العدد الثاني ، ١٩٥٥ .

١٠ — أنواع المزاج — عرض لنظرية شلدن . « مجلة كلية التربية » ، السنة الأولى ، العدد الثاني ، ١٩٥٥ .

١١ — المورفو سيكولوجيا (دراسات الدكتور كورمان) — « مجلة كلية التربية » ، السنة الأولى ، العدد الثالث ١٩٥٦ ، ذلك إلى تعريفات بعدد من الكتب السيكولوجية نشرها في هذه المجلة ، مثلا كتاب « السلوك الجنسي للإنسان الذكر » لكنزي (العدد الأول) ، وكتاب « نهج الحكايات الخرافية في التحليل النفسي للأطفال » للويزا دوس ، وكتاب « علاج الأطفال بالتحليل النفسي » لآنا فرويد ، وكتاب « جنوح الأحداث » لفريد لاندزر ، وكتاب « علم النفس التطبيقي في العالم الحديث » لباومغارتن (العدد الثاني).

١٢ – علم النفس التجريبي (روبرت س. ودورث) — الجزء الأول ، منشورات كلية التربية بالجامعة السورية ١٩٥٦ .

١٣ – علم الطباع (المدرسة الفرنسية) — الرسالة التي حصل بها على درجة الماجستير في علم النفس من جامعة القاهرة سنة ١٩٥٨ ، ونشرت في سلسلة « منشورات جماعة علم النفس التكاملي » ، دار المعارف في القاهرة ١٩٦١ .

١٤ – علم النفس والأدب — الرسالة التي حصل بها على درجة الدكتوراة من جامعة القاهرة سنة ١٩٦١ . ونشرت في سلسلة « منشورات علم النفس التكاملي » ، دار المعارف في القاهرة ١٩٧١

١٥ – دروس علم النفس (بالاشتراك مع سمير الدروبي) — منشورات كلية التربية بجامعة دمشق ١٩٦٢ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإذا نحن درسنا أعمال سامي هذه نستطيع أن نميز ثلاثة اتجاهات أو ثلاثة خطوط سار عليها في هذا الميدان : الأول علم النفس التجريبي والثاني علم النفس الفرقي والثالث علم النفس الفني .

(١)
علم النفس التجريبي

درس شباب العقد الرابع من هذا القرن علم النفس في السنة الأخيرة من الدراسة الثانوية وفي دار المعلمين على الأسلوب الفرنسي التقليدي في تدريس علم النفس في المدارس الثانوية وفي الصفوف التحضيرية للجامعة ، كما يتجلى مثلا وخاصة في كتاب ككتاب أ. كوفيلية (١) . يقول ب. فريس (٢) يصف هذا الأسلوب ، وقوله هذا بعد كل التطور الذي طرأ على علم النفس الفرنسي بعد الحرب العالمية الثانية : « ان علم النفس الجامعي – ولنقل بشكل أفضل علم النفس في البكالوريا – يشتمل على تفكير ومعطيات اختبارية غالباً ما يكون قد تخطاها الزمن . فهو يهدف أساساً إلى صقل الذهن . ويبقى هكذا على هامش الفلسفة والعلم مكتفياً بأن يخلد تقليداً يعود إلى بداية القرن التاسع عشر » .

ان في هذا الأسلوب بالتأكيد تدريباً ، وأحياناً شديداً ، على التفكير الفلسفي ، ولكنه لا يعطي صورة صحيحة عن الطور الذي بلغه علم النفس ، من حيث هو علم ، في تطوره . وهكذا كان موضوع علم النفس هو الشعور أو الحوادث النفسية التي تتميز بأنها باطنية تجري في الزمان ، ولا تقع في المكان فهي بالتالي لا تخضع للقياس . والمنهج الأساسي في دراستها هو المنهج الذاتي ، الاستبطان ، أما المناهج الأخرى فهي مناهج مساعدة . والحوادث النفسية مركبات يجب إرجاعها بالتحليل إلى عناصرها الأولية ثم إعادة تكوينها بالتركيب . وهي ترجع إلى أصناف ثلاثة : الحياة العقلية والحياة الانفعالية والحياة الفاعلة . على هذا النحو درس سامي الدروبي علم النفس في الثانوي ثم في دار المعلمين .

ولكن سامي في النصف الأولى من العقد الخامس كان يدرس الفلسفة في جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) . وكان أستاذ علم النفس فيها الدكتور يوسف مراد (١٩٠٢ — ١٩٦٦) القائل بالمنهج التكاملي في علم النفس . وكان في دروسه ، التي يمثل كتابه « مبادىء علم النفس العام » (١٩٤٨) الصورة المنظمة لها ، يوسع المجال لعلم النفس الفيزيولوجي وعلم النفس التجريبي . وموضوع علم النفس(٣) عنده الظواهر السيكولوجية ولكن هذه الظواهر ليست في نهاية الأمر سوى سلوك الإنسان من حيث هو وحدة لا تتجزأ » . والمنهج الذاتي ، وإن لم يكن مستبعداً ، إلا أن ما نحصله به « . . له صبغة فردية ، وهو بمثابة الموضوع الخام الذي يجب أن يصقل قبل أن يصبح موضوعاً علمياً » . أما المنهج الموضوعي فهو « . . ملاحظة سلوك الغير من ألفاظ وإيماءات وأوضاع وحركات بالنسبة إلى ما يحيط بهم من ظروف ، إما طبيعية وفي هذه الحالة يكون المنهج مقصوراً على الملاحظة الظاهرية ، أو صناعية ومضبوطة بآلات خاصة فيجمع المنهج بين الملاحظة والتجريب . . . » .

ولذلك نعجب ، وكانت علاقة سامي بيوسف مراد أكثر من علاقة طالب بأستاذ ثم أصبحت علاقة صداقة (ثم أصبح الدكتور مراد ، فيما بعد ، أستاذه المشرف على رسالتي الماجستير والدكتوراه) ، أن نجد كتاب « علم النفس ونتائجه التربوية » (١٩٤٩) لا يخرج عن تقاليد تدريس علم النفس في سورية إلا بالتبسيط الشديد (الذي كان في تلك الأيام « الهوس » المسيطر على عقول المشرفين على التعليم) . فموضوع علم النفس هو الحوادث النفسية بصفاتها المميزة الثلاث ، والمنهج الاستبطاني هو المنهج الأساسي ، لأن « علم النفس هو العلم الذي يدرس الحوادث النفسية ، والحوادث النفسية

ARCHIVE

تتميز عن غيرها بأنها باطنية ، فإذا لم ندركها عن طريق الملاحظة الباطنية ، وامتنعنا عن تصور حالة نفسية وراء المظاهر المادية التي نراها على غيرنا ، لم نكن بصدد علم النفس»(٤). والحوادث النفسية لا تخرج عن أن تكون إما عقلية أو انفعالية أو فاعلة . وهي بعامة مركبات يجب تحليلها إلى عناصرها ثم إعادة تركيبها . ولذلك خص كل من الاحساس والادراك بفصل خاص ، وكذلك كل من التجريد والتعميم والحكم والاستدلال ، وكل من اللذة والألم والهيجان والهوى الخ . . وأبعدت الذاكرة عن تداعي الأفكار وعن العادة ، وكذلك الانتباه عن الإرادة ، كما أبعد المنعكس الشرطي عن العادة وأدخل في فصل الميول والغرائز الخ . . - أقول : نعجب حين نجد هذا الكتاب قد أخذ هذا الاتجاه بتشدد ، لا يخفف منه أي تخفيف وجود مبحث عن الذكاء ونبذة عن الطباع ملحقة بمبحث الشخصية ولا فصل أخير سريع عائم عن تطبيقات علم النفس . أهو ثقل تقاليد تدريس هذا العلم ، أم هو ضغط البرنامج بعناوينه المحددة أم ..؟

وأياً ما كان السبب فقد تحرر سامي في السنة الدراسية (١٩٤٨ - ١٩٤٩) من هذا البرنامج ومن تلك التقاليد إذ بدأ تدريسه في الجامعة . وفي هذا التاريخ بدأ ينشر في مجلة « المعلم العربي » سلسلة من الترجمات لنصوص قصيرة ومفيدة لعدد من كبار علماء النفس والتربية كجيمس وكلاباريد وبينه . . تحت عنوان « نصوص تربوية مختارة » . بين هذه النصوص نجد نصين ذوي أهمية خاصة : أحدهما بعنوان « علم النفس الذي يدرس في نيويورك » (٥) وهو مقال لوليم مكدوغل (١٨٧١ - ١٩٣٨) يسفه فيه علم النفس السائد في أمريكا (في الربع الأول من هذا القرن) ممثلا خاصة بثورندايك وواطسن ، مع إشارة إلى ودورث وديوي ، والذي هو مزكب ثلاث نظريات : نظرية الأقواس الانعكاسية في فعالية العقل ، ونظرية المنعكس الشرطي باعتباره نموذج عملية التمثل ، والنظرية القائلة بأن نفس الطفل صفحة بيضاء يطبع عليها المربي ما يشاء . والنص الثاني بعنوان « السيكولوجيا السلوكية » (٦) ، وهو خطاب لجون واطسن ، مؤسس المدرسة السلوكية ، ألقاه في مناظرة عامة مع مكدوغل جرت في واشنطن ١٩٢٤ وانتصر فيها مكدوغل ، وحاول فيه واطسن أن يعرض الخطوط الأساسية للسلوكية : حين وجد السلوكيون أن علم النفس الذاتي ، لتشبثه بما لا يقع تحت الحواس ، بالشعور ، لم يحقق أي اكتشاف حقيقي ، في حين تتقدم العلوم الأخرى بخطوات جبارة ، رموا بالشعور ومضموناته في البحر ، وأحلوا محله ما يمكن ملاحظته بالحواس وهو السلوك ، ما يفعله الجسم أو ما يقوله ، ووقفوا عند وصف جزء السلوك الملاحظ وهو الحدث « مثير - جواب » ؛

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلى ذلك فالسلوكية تقوم على أساس المنعكسات اللاشرطية ، والمنعكسات الشرطية التي يمكن تكوينها بنوع من الإحلال والربط والمزج بين المنبهات ،وكل ما نسميه عادات أو تقاليد أو أخلاقاً إنما يتم على هذا النحو ، حتى التفكير لا يخرج عن هذا التخطيط ، فهو تنظيم حركي ، إنه يجري بالجسم كله ولكن لنظام الكلام يلعب فيه الدور الأكبر ، فالتفكير في معظمه كلام غير ملفوظ. وأهمية هذين النصين أنهما يشيران بوضوح الى ابتداء سامي الاتجاه الى علم النفس التجريبي .

ولكن الاتجاه التجريبي لم يتضح عند سامي إلا بعد عودته من فرنسا بعد بعثة دراسية دامت ثلاث سنوات (١٩٥٠ - ١٩٥٣) زار خلالها ألمانيا ، واتصل فيها بالأوساط العلمية ، واطلع على الاتجاهات الجديدة في علم النفس ، وعلى مخابره والاعمال الجارية فيها . وتبين هذا الاتجاه ، إلى جانب دروسه ، في أعمال ثلاثة : المخبر السيكولوجي ، وكتاب « الموجز في علم النفس » وترجمة كتاب « علم النفس التجريبي » :

المخبر السيكولوجي (١٩٥٤)

أسس سامي المخبر السيكولوجي سنة ١٩٥٤ ، وكان به جد فخوز . أما ما هي الصعوبات التي ذللها حتى حصل على إقرار إنشائه ؟ وما هي الاعتمادات المالية التي رصدت له وما هي الأجهزة والأدوات التي زوده بها ، وما هي الأدوار التي مر بها في نموه ؟ وما هي التجارب التي أجريت فيه ، وكيف أجريت ، وأي الموضوعات تناولت ، وعلى « من » و « ما » طبقت ، وما هي النتائج التي حصلت ؟ الخ . وما هو المصير الذي انتهى إليه ؟ أما هذه الأسئلة وسواها فلست مؤهلا للإجابة عليها . وربما كان هذا المخبر يستحق دراسة خاصة ولو مختصرة ، المؤهلون لها هم السادة الذين رافقوا سامي في إنشائه والطلاب الذين تدربوا فيه .

الموجز في علم النفس — سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم (١٩٥٥)

هذا كتاب في علم النفس العام ، مدرسي لتلامذة الشهادة الثانوية ، مؤلف من اثني عشر فصلا وخاتمة (في الحقيقة مقدمة مرجأة) ، هذه الفصول تتناول بالتتالي الموضوعات الآتية : موضوع علم النفس ومناهج البحث فيه ، مدارس علم النفس ، الدوافع (الغرائز

والميول) ، الانفعال (العوطف والهيجانات) ، الإدراكات والإحساسات ، الذاكرة ، التداعي ، الانتباه ، التعلم ، التفكير ، الذكاء ، الشخصية .

يقول مؤلفاه في تعريفه (٧) : « وقد جربنا أن تكون الحقائق الواردة في الكتاب أحدث الحقائق التي وصلت إليها الأبحاث النفسية . ولهذا كان محتواه مبايناً في كثير من جوانبه لما اعتدنا أن نجده في الكتب التقليدية الشائعة » . وهذا الحكم في مجمله صادق .

ويقولان أيضاً : « ولسنا في حاجة إلى أن نذكر أن روح هذا الكتاب الذي نقدمه هي روح البحث التجريبي الحديث في علم النفس ، غير قاصرين هذا البحث التجريبي على مذهب دون مذهب : فالتجريب قائم في نظرنا في تجارب السلوكيين كما هو قائم في تجارب أصحاب مدرسة التحليل النفسي أو أصحاب مدرسة « الغشتالت » أو غيرهم ممن قدموا نتائج مبنية على أصول البحث العلمي التجريبي . ولهذا نستطيع أن نقول إن الحقائق الواردة في هذا الكتاب هي حقائق هذه المدارس جميعها ، بعد أن عزلناها عن الأفكار المذهبية والفلسفية الثاوية وراءها ..» وكان يمكن أن يضيف المؤلفان إلى هذا النص ما يأتي : « وحقائق كل الدراسات التي لاتنتمي إلى هذه المدارس في كل ميادين علم النفس : علم النفس التجريبي ، علم النفس الفيزيولوجي ، علم نفس الطفل ، علم نفس الحيوان ، علم النفس الفرقي ، علم النفس المرضي..»

وهذا المنحى في التأليف طبيعي وصحيح في كتاب مدرسي في علم النفس العام .

وأول ما تتبين جدة هذا الكتاب بالنسبة إلى « الكتب التقليدية الشائعة » في تعريف علم النفس بأنه (٨) « دراسة سلوك الفرد » . ولكن تتمة التعريف أو تفسيره تثير بعض الالتباس . « أصبح موضوع علم النفس اليوم دراسة سلوك الفرد ، كيف يفكر وكيف يتم إحساسه بالأشياء وماهي العواطف التي تدور في نفسه وكيف تنطلق ذكرياته وما هي العوامل التي تؤثر في أحكامه ومعتقداته الخ ..؟ » . ولكن « كيف يفكر .. » هي الحوادث النفسية التي كانت موضوع علم النفس في الكتب التقليدية . والسلوك ، كما يعرف عادة ، هو ما يصدر عن الإنسان من تعبير حركي أو لفظي ، أي ما تمكن ملاحظته بالحواس أو بالأجهزة . ربما كان فيما ورد في الكتاب شرحاً لهذا التعريف ما يزيل بعض الالتباس . « لقد بدأ علماء النفس المحدثون من هذه الحقيقة المشاهدة ، وهي أن ثمة عنصراً نفسياً إنسانياً يتدخل في كثير من أعمال الإنسان ومن الواجب التعرض لدراسته ... واتخذوا موضوعاً لعلمهم ، كما ذكرنا ، دراسة السلوك الإنساني دراسة علمية تكشف عن دوافعه وتفسره وترسم قوانينه » .

كما قد يكون ما ورد في الكتاب تمييزاً لعلم النفس من الفيزيولوجيا وعلم الاجتماع ما يزيد في توضيح الغامض :

« فنشاط الكائن الإنساني لا ينحل إلى نشاط أعضائه ووظائفه العضوية . والفيزيولوجيا لاتقدم لنا إلا دراسة لجانب من جوانب نشاط الكائن الإنساني . ويظل ثمة جانب هام من هذا النشاط هو الذي يتوفر علم النفس على دراسته ، هذا الجانب هو نشاط الفرد جملة وككل .. » .

« كذلك ليس الإنسان مجرد كائن يحيا في مؤسسةاجتماعية .. بل هو أيضاً كائن فردي يمتاز سلوكه كفرد عن سلوكه وهو في جماعة . فسلوك الزمرة الاجتماعية يمكن أن يؤخذ كتلة واحدة ، دون النظر إلى أجزاء هذه الزمرة .. وهذا السلوك الجمعي هو الذي يهتم به علم الاجتماع . ويبقى ثمة فارق واضح بين دراسة هذه الكتلة الاجتماعية وبين دراسة سلوك الفرد » .

قد يكون اتضح الآن أن المقصود هو : أن الفرد الإنساني من حيث هو وحدة نفسية جسدية يرد على المنبهات والمواقف الواردة عليه من البيئة وبخاصة البيئة الاجتماعية بأجوبة موحدة الوجهين النفسي والجسدي ، هذه الإجوبة هي التي يدرسها علم النفس .

وتتبين جدة الكتاب أيضاً في إلحاح المؤلفين المستمر على أن علماء النفس يرون « من واجبهم أن يقلبوا علم النفس إلى علم تجريبي » .

فيبدءان حين يعالجان « مناهج البحث في علم النفس » (٩) « بالمنهج التجريبي » ؛ مكتفيين بمرحلة التجربة ، المرحلة الثالثة من مراحل المنهج التجريبي . والتجربة هي استجواب الطبيعة . وهذا الاستجواب يكون بتنظيم الشروط التي تحدث فيها الحادثة المدروسة تنظيماً جديداً ثم ملاحظة ما ينجم عن هذا التنظيم الجديد . ويستخدم العالم المجرب في عمله ، حسب الضرورة ، الأجهزة والأدوات إن في إحداث الشروط أو في ملاحظة ما يحدث . وأسلوب التجريب في العادة يكون بتثبيت كل الشروط ما عدا شرطاً واحداً نغير فيه ، نحذفه أو نعدل فيه أو نستبدل به ، ثم ننظر إلى ما يطرأ على الحادثة المدروسة من تغير . وهكذا إلى أن تنكشف لنا العلاقة بين هذا الشرط والحادثة المدروسة . إن التجريب في علم النفس يفوق في صعوبته ولاشك التجريب في العلوم الأخرى ، لما في الحوادث المتصلة

بالإنسان من تعقيد و كثرة في الشروط ، ولكن علماء النفس يسعون لتذليل صعوبات المنهج التجريبي بالمنهج التجريبي ، أي بتحسينه وزيادة العناية به .

ثم ينتقلان إلى « منهج النمو أو المنهج التوليدي » . وهو دراسة الحوادث النفسية في نشأتها وتطورها لنرى كيف تكون وهي وليدة وكيف تترعرع بعد ذلك وتكتمل وكيف تضعف وتتداعى . مثل هذه الدراسة تقوم بخاصة على دراسة نفسية الأطفال . ويصعب فيها ، وغالباً ما يتعذر ، التجريب . فيقتصر فيها لذلك على ملاحظة تطور الحياة النفسية عند الطفل وتسجيل هذه الملاحظة تسجيلا منظماً . ويأخذ هذا المنهج أشكالا : فقد يكون تسجيلا يومياً أو شهرياً أو سنوياً لنمو الطفل جسدياً أو نفسياً، ويعرف هذا الشكل باسم «الطريقة الطولانية» وقد يكون دراسة زمرة من الأطفال في مرحلة معينة من العمر ومقارنة خصائصهم السلوكية ويدعى هذا الشكل « الطريقة التصالبية » . وقد يكون دراسة التوائم ، بتثبيت كل الشروط التي يخضع لها التوأم إلا شرطاً واحداً وهو تدريب أحدهما على عمل وعدم تدريب الآخر عليه ليعرف أثر التدريب ، وهذه الطريقة هي « طريقة التدريب » .

ثم يتحدثان عن « منهج تاريخ الحالات » . ويستخدم هذا المنهج حين يواجه عالم النفس حالة مكتملة ، حالة رجل مجرم مثلا أو فتى جانح .. وقوامه السعي لمعرفة تاريخ حياة الفرد وما مر به من تقلبات واضطرابات وصدمات .. بالرجوع إلى أسرته وأصدقائه وحياته المدرسية والمهنية وظروفه المعاشية ومطامحه وتجاربه العاطفية .. وسائر التفصيلات التي يمكن أن تفيد في تفسير حالته الراهنة . ويستخدم هذا المنهج خاصة في علاج الأطفال الشواذ فيما يسمى « بعيادات التوجيه » . وقد يستخدم في دراسة الأشخاص النابهين والعاديين ولكن أكثر استخدامه في مجال المرض والشذوذ .

وينتهيان أخيراً إلى « المنهج الموضوعي والمنهج الاستبطاني في علم النفس »، أي ينتهيان إلى مشكلة : أمنهج موضوعي فقط أم منهج موضوعي ومنهج استبطاني معاً ؟
يفهم بداية من إفراد هذه المسألة بعد ذكر المناهج الثلاثة أن كلا المنهجين الاستبطاني والموضوعي يمكن أن يستخدما في هذه المناهج الثلاثة ، بمعنى أن المنهج الاستبطاني يمكن مثلا وخاصة أن يكون تجريبياً . وهذا مالم يتعرضا له في هذا الموضع ولكن في فصل « مدارس علم النفس » حين بحثا « المدرسة الاستبطانية » (١٠) (وهي على كل حال ليست مدرسة كما يعترفان) :

والمنهج الاستبطاني يكون بأن يلاحظ الشخص حالاته النفسية الباطنية ويعرفنا عليها ، أما المنهج الموضوعي فيكون بأن نلاحظ نحن سلوكه كما يتبدى لنا .

ويمكن أن يتناول الاستبطان حالات نفسية بسيطة ، كالإحساسات ، كما يمكن أن يتناول عمليات عقلية معقدة ، كالذاكرة والتفكير . وكان تفصيل القول في هذا التمييز أيضاً في مبحث « المدرسة الاستبطانية » . والاستبطان في درجته الأولى ، وهو لايتجاوز مثلا أن يقول الشخص المفحوص إنه يرى لوناً أخضر ، يستخدمه علماء الطبيعة والفيزيولوجيا تماماً كما يستخدمه علماء النفس ، ولا يختلفون إلا في المقاصد (كما يقول ودوورث في « مدارس علم النفس المعاصرة ») (١١) . فبينما عالم الطبيعة يريد أن يدرس الظاهرة الفيزيائية ، وعالم الفيزيولوجيا يريد أن يدرس عضو الحس ، إذا بعالم النفس يريد أن يدرس استجابة المفحوص وإحساسه . أما الاستبطان في درجته الثانية ، كما استخدمه مثلا ابنهاوس وموللر في دراسة الذاكرة وبينه وتيتشنر وودورث ومدرسة فورتسبورغ ، التي دعته « الاستبطان المستثار أو المنهجي » ، في معالجة المشكلة المشهورة « التفكير بصور أو بلا صور » ، أما هذا الاستبطان ، فإلى جانب مايدل عليه من علاقة وثيقة بين التجريب والاستبطان ومن وحدة عميقة بين المنهج الموضوعي والاستبطان ، فلا يمكن الاستغناء عنه ، إذ لا سبيل في مثل هذه التجارب إلى التعرف على سير العمل الفكري في ذهن المفحوص إلا عن طريق سؤاله أن يتأمل ما يجري في باطنه . وقد حصل علماء النفس من مثل هذا الاستبطان ، ولا سيما بعد تكراره على عدد كاف من المفحوصين ، على نتائج هامة فيما يتصل بحقائق الحياة النفسية .

وهكذا نرى في نهاية الأمر أن الاستبطان منهج لاغنى عنه في علم النفس ، « وهو لايناقض المناهج الموضوعية جملة ومنهج الملاحظة الخارجية خاصة ، بل يكملها في كثير من الأحيان . ولا يرى فيه شيئاً مناقضاً للبحث الموضوعي إلا أصحاب المدرسة السلوكية الذين يصرون على أن الملاحظة الخارجية وحدها هي الطريقة العلمية في البحث » . لاشك أن هذا النوع من الاستبطان صعب ، ولكن تدريب المفحوص عليه تدريباً كافياً ، يجعله أهلا للركون إليه .

«غير أن بياننا لأهمية الاستبطان في علم النفس ينبغي أن لا يوهم أننا نأخذ بما يقول به بعض الباحثين حين يؤكدون أن علم النفس علم استبطاني محض» (جاء في الموجز مرة) «ان اتباع الاستبطان لم يتنكروا

لدراسة السلوك والملاحظة الخارجية عامة ، بل اصطنعوها في مباحثهم » ، وجاء فيه مرة «أكدتهذه المدرسة (الوجودية) أن علم النفس هو علم خبرة الفرد وتجربته الحية.. وبهذا نظرت .. إلى الفرد لاعلى أنه ذو سلوك وذو عمل معين ينجزه ، ولكن على أنه صاحب خبرة ومجرب ، وهذه الخبرات لابد أن يعرفنا عليها صاحبها أي أن نعرفها عن طريق الاستبطان » ، فهناك المنهج الموضوعي الضروري في علم النفس ضرورة المنهج الاستبطاني. اذ هنالك : (١) ميادين لاينالها الاستبطان ، من مثل ملاحظة سلوك الحيوانات أو الأطفال (بخاصة في سنيهم الأولى) أو الشعوب البدائية (في كثير من الحالات) أو مرضى النفوس (في الحالات المتفاقمة) ، (٢) وحتى بالنسبة للإنسان الراشد لابد أحياناً من اللجوء إلى الملاحظة الموضوعية ؛ فللا معظم الروائز النفسية روائز موضوعية ، (٣) ومن الأمور الهامة التي ينبغي أن يقام لها وزن في دراسة الحوادث النفسية التغيرات العضوية التي تصحبها ، وهذه الدراسة تقوم على الملاحظة الموضوعية المسلحة في كثير من الأحيان بالأجهزة .

فعلم النفس إذن يفيد من الملاحظة الباطنية والملاحظة الخارجية ، وكل منهما يكمل الآخر ، وليس ثمة تناقض بينهما . وماكان يمكن أن يكون الأمر إلا كذلك مادام موضوع علم النفس « دراسة سلوك الفرد ، كيف يفكر وكيف يتم إحساسه بالأشياء الخ ..؟ » .

لئن كنت قد اطلت الوقوف شيئاً على الفصل الأول من « الموجز » ، فلأن موقف الباحث في العلوم الإنسانية وفي علم النفس خاصة يحدده فهمه لموضوع علمه ومناهج البحث فيه . وقد اتضح الآن ان سامي (١٩٥٤) قد خلف وراءه بعيداً علم النفس (شعور - استبطان) ، وسلك الطريق الوسطى ، البعيدة ما بين الجانبين ، التي وصفها ودورث في « مدارس علم النفس المعاصرة » . فهو لايقف في دراسته عند الحوادث الباطنية وحدها ولا عند السلوك وحده بل يحاول أن يحيط بكلا الوجهين ، وهو لاينبذ المنهج الاستبطاني مع النابذين ولا يقلل من شأن المنهج الموضوعي ويلح على التجريب في كلا المنهجين .

ولكن ، هل فيما سلف كفاية ؟ ألا يمكن أن يتخذ الباحث موقفاً نظرياً من علمه ثم حين يمارس العمل تندس فيه أفهامه وعاداته القديمة ، أو يمكن على العكس أن يتشبث الباحث بموقفه النظري القديم ولكنه حين العمل ينساق مع المجددين ؟ ذلك ليس دائماً ممكناً فقط ، بل هو مشاهد كثيراً . واذن علينا أن ننظر عن قرب إلى موضوعات « الموجز » نظرة سريعة على الأقل لنستبين الخط أو الخطوط التي اتبعت في معالجتها . وحين نظرت إلى الموضوعات العشرة ، وقعت على مايحقق الاحتمال الأول إذ وجدت موضوعات قد استقل

بعضها عن بعض بفصول وعناوين ، وما كنت أتوقع لها الاستقلال في علم نفس « حديث ». فإذا كان في الامكان مثلا قبول فصل الدوافع عن الانفعالات ، فهل يمكن فصل التعلم عن الذاكرة ، في دراسة موجزة لا دراسة تفصيلية يصح فيها أن تستقل مسألة صغيرة من موضوع بعنوان أو حتى بفصل أو كتاب . هل يصح هذا الفصل بعد إنذار المؤلفين في « الخاتمة » أن (١٢) « لن يجد الأساتذة في هذا الكتاب جميع العناوين التي اعتادوا أن يجدوها ، وان كنا قد حاولنا — ضمن الحدود التي يسمح بها علم النفس الحديث — أن نتحدث عن أكثر تلك العناوين . على أن مضمون تلك العناوين التي لايجدونها نصاً قائمة في صلب الكتاب .. وبحث التفكير يحتوي على جميع الحقائق المتعلقة بالحكم والمحاكة والتجريد والتعميم (والصورة والابداع) .. وفي مثل هذا الجمع بين عناوين كانت منفصلة مجاراة للاتجاه الحديث والتصنيفات الحديثة .. » ؟

وحين مضيت في قراءة فصول « الموجز » جذب نظري تفاوت حظوظ مختلف العمليات النفسية ، في صيغة معالجتها ، من المنهج الموضوعي . فبعضها ، « التفكير » مثلا ، كادت معالجتها أن تكون تقليدية وأثار الدراسات التجريبية الحديثة فيها ضعيفة ؛ وبعضها الآخر ، « التعلم » مثلا ، أوشكت معالجتها أن تكون مستمدة جميعها من الدراسات التجريبية . قد يكون ذلك راجعاً إلى أن بعض العمليات النفسية ، والتعلم منها ، لقيت إقبالا خاصاً وقديماً من العلماء التجريبيين فتراكمت من حولها الدراسات ؛ وبعضها ، والتفكير منها ، تجنبها أمثال هؤلاء العلماء فشحت بالنسبة اليها البحوث . ولكن علماء النفس ، حين اهتدوا إلى أبعاد هذه العمليات النفسية العلياتحددت بالتالي مشكلاتها ،استطاعوا أن يدخلوها في نطاق الدراسة التجريبية ، وبدأت مثل هذه الدراسات وان لم تكن بعد وافرة . كما قد يكون راجعاً إلى أن المؤلفين كانا مقيدين بالبرامج وبمستوى التلاميذ ومستوى التعليم عامة ؛ هذا إلى جانب ما يفترض في كتاب مدرسي من عرض مترابط الأجزاء مبسوط أمام الأفهام ، وكثير من الدراسات التجريبية في بداياتها لاتكون نتائجها قد استقرت ، كما أنها في كثير من الأحيان يصعب التنسيق بينها وادخالها ضمن مخطط واضح .

وعلى كل حال ، كان هذا « الموجز » محاولة جدية لتصحيح التاريخ في تدريس علم النفس ، لوضعه في أوانه وكان من قبل متأخراً عن أوانه ربع قرن على الأقل . ولكن هذه المحاولة كانت عقيماً ، كانت الأولى والأخيرة ، بسبب ما اعتور البرامج التعليمية من تغيير ، وما أصاب العلوم الإنسانية بعامة من إهمال أو على الأقل من قلة اهتمام ،

دروس علم النفس ، سامي الدروبي وسمير الدروبي (١٩٦٢)

كان من حق هذا الكتاب أن يتأخر البحث فيه لأنه آخر ما كتبه سامي في علم النفس ، ولكن القرابة القريبة التي تربطه « بالموجز » فرضت تقديمه . بدأ سامي في تأليف هذا الكتاب حين عاد إلى التدريس في الجامعة سنة (١٩٦١) ثم ألهته الوزارة – للأسف الشديد– عن إتمامه . وما صدر منه يتألف من كلمة قصيرة تقديماً وستة فصول هي : هدف علم النفس ومناهجه ، الفروق الفردية في القابلية، ترابط القابليات ، الشخصية ، عامل الوراثة وعامل البيئة في الفروق الفردية ، تصنيفات الشخصية . ومن عناوين الفصول هذه يتبين أنها ، فيما عدا الأول الذي هو مقدمة عامة ، تدخل في نطاق « علم النفس الفرقي » . ان سامي يرى أن موضوعات علم النفس يمكن أن تعرض على صورة أو أخرى ، لأن هذه الموضوعات متداخلة بحيث أن معرفة كل منها بحاجة إلى معرفة الأخرى ، فسيان إذن البدء بهذا الموضوع أو ذاك . وصحيح ما قاله سامي ، ولكن يبدو أيضاً أنه أراد أن يضع تحت تصرف الطلاب الجامعيين في مستواهم كتاباً جامعاً في علم النفس ، وكان قد اجتمعت لديه مواد كثيرة في علم النفس الفرقي من عمله في تحضير كتاب « علم الطباع » ، كما أنه قدر أن الجزء الأول من « علم النفس التجريبي » بما فيه من موضوعات يمكن ارجاع الطلاب إليها يسمح له بارجاء الكتابة فيها ، فبدأ بالفروق الفردية .

إن سامي حين يقدم كتابه بهذا القول (١٣) : « لايعدو هذا الكتاب أن يكون فصولا اقتبست مادتها من متون لمؤلفين أجانب ، نخص بالذكر منهم روبرت س ودورث .. وهنري بيرون .. فليس لنا في هذا الكتاب من جهد إلا ما يقتضيه كمال التنسيق بين حقائق مستمدة من هنا وهناك ، وما يتطلبه حسن العرض من حرص على الوضوح والدقة .. » ، لايعرفنا كتابه فقط ، بل يكشف لنا أيضاً عن وجه من وجوه شخصيته ، وجه التواضع والأمانة العلمية .

ويكشف لنا أيضاً كتابه هذا و « قرابته القريبة » من « الموجز » أن الموقع الذي اتخذه في ميدان علم النفس سنة (١٩٥٤) كان ثابتاً ، لم يطرأ عليه تعديل وإنما هي التغذية الدائمة بالمعلومات الجديدة . ففي « الدروس » ، مثلا ، عرف سامي علم النفس تعريفه إياه في « الموجز » ، لولا أنه لاحظ على ما يبدو ما يمكن أن تولده كلمة«سلوك» من التباس ، فاستبدل بها كلمة « فعالية » . فأصبح علم النفس (١٤) « علم فعاليات الفرد »،

وهذه الفعاليات ليست الفعاليات الحركية فقط ، بل هي أيضاً الفعاليات العقلية والفعاليات الانفعالية ، فالإنسان يفعل حتى وهو يظن أنه في موقف سلبي . « إن الإنسان لا يكون غير فعال البتة إلا في الموت » .

وفي « الدروس » يعالج المناهج (١٥) كما عالجها في « الموجز » ، غير أنه كان أكثر دقة ووضوحاً . فقد تحدث ، في المنهج التجريبي ، عن « المتغير المستقل » و « المتغير التابع » . كما بين مصادر الصعوبات في التجربة النفسية : فالشروط فيها نوعان : شروط تتصل بالبيئة ، وتشترك فيها مع التجربة في العلوم الأخرى ، ويسهل التحكم بها بالاستعانة بالتجهيزات ، وشروط تتصل بالشخص المفحوص ، وتختص بها دون العلوم الأخرى ، وليس التحكم بها سهلا . فهناك الفروق الفردية والدوافع والتعود والتعب والملل والتحيز الخ. كما لم يكتف حين تحدث عن عمل العلماء لتذليل الصعوبات من النوع الثاني ، بتلك الجملة العامة الغامضة « ولكن علماء النفس يسعون لتذليل صعوبات المنهج التجريبي بالمنهج التجريبي أي بتحسينه وزيادة العناية به » ، بل تحدث حديثاً محكماً عن طريقة « تعديل العوامل » والصوره الشتى التي تأخذها : (١) فقد يعمد الفاحص إلى تدريب المفحوص تدريباً طويلا قبل إجراء التجربة ، ليحدد من آثار التعود ، (٢) وقد يعمد إلى عكس تسلسل التجربة ، فاذا كان يريد مثلا أن يعرف أثار الصمت (أ) والضجة (ب) على مردود العمل ، أجرى التجربة مرة بالتسلسل (أ،ب) وأخرى بالتسلسل (ب،أ) ، (٣) وقد يستعمل زمرتين من المفحوصين ، يجري التجربة على الزمرة الأولى بالتسلسل (أ،ب) وعلى الزمرة الثانية بالتسلسل (ب،أ) . وعلى كل حال مادام التحكم في شروط التجربة يصعب أن يكون كاملا ، « فإن عالم النفس يضع التجربة خطة واسعة ، ويكررها مرات كثيرة على طوائف كبيرة من الأفراد ، ويستعمل وسطي النتائج أساساً لما يريد استخراجه من حقائق » .

ARCHIVE

علم النفس التجريبي ، روبرت س ودورث (١٨٦٩ — ١٩٦٢)

الجزء الاول (١٩٥٦)

كنا حتى الآن في ميدان علم النفس العام ، نحاول أن نستكشف مدى مساهمة المنهج التجريبي في دراسة العمليات النفسية كما هي في « الموجز » و « الدروس » . وقد تبين لنا أن نصيب التجريب كان يتناقص كلما ارتقينا في سلم العمليات النفسية ؛ كما تبين أيضاً أن نسبة الدراسات التي يتجاوز تاريخها العقد الرابع من هذا القرن لاتكاد تذكر . والآن ندخل

مباشرة في ميدان علم النفس التجريبي . فما هي حدود هذا الميدان(١٦) ؟ نستطيع أن نحدد علم النفس التجريبي ببساطة بأنه علم النفس الذي نشأ بفضل المنهج التجريبي . والمنهج التجريبي بمراحله الثلاث ، التي حددها كلود برنار (١٨٦٠) ، الملاحظة والفرضية والتجربة ، إنما يمتاز ، رغم أن مرحلة الفرضية هي المرحلة الخلاقة ، بمرحلة التجربة ، أي القدرة على توليد حدث أو إعادة توليده . وعلى ذلك قد يتبادر إلى الذهن أن علم النفس التجريبي هو علم النفس المخبري ؛ ولكن المخبر وإن كان في الغالب ضرورياً إلا أنه مجرد وسيلة لا أكثر . فقد لاحظ كلود برنار ، منطلقاً من الطب ، أننا قد لا نكون دائماً بحاجة إلى التجريب ، إذ بوسعنا أن نفيد أحياناً من الحظوظ السعيدة أو التعيسة التي تصيب الإنسان ، كالعاهات والإصابات ، لتغني غناء التجريب . وكذلك قد تغني الغناء نفسه الفروق الطبيعية في العمر والجنس والقابليات وتنوع البيئات الاجتماعية — الاقتصادية والثقافات والأعراق ، أي إن منهج المقارنة ، وما يستدعيه من اعتماد على الإحصاء والرياضيات ، يمكن أن يغني المنهج التجريبي ويكمله .

فما هو المكان الذي تشغله الحوادث النفسية في وجهيها الباطن والمنهج الاستبطاني من علم النفس التجريبي هذا ؟ إن قول فونت « بدأ علم النفس بالاستبطان ولكن هناك منهجين مساعدين هما التجربة والتاريخ الطبيعي للبشر » يمثل بدقة موقف علماء النفس التجريبيين الأوائل . وهنا لا بد من ملاحظتين :

١ — إن علماء النفس التجريبيين هؤلاء كانوا يستمسكون نظرياً بهذا الموقف ، أما في الممارسة ، حين كانوا يدخلون مخابرهم ويجرون تجاربهم فلم يكونوا يسألون المفحوصين عن خبراتهم بل كانوا يقيسون زمن الرجع وفرق الإحساس وعدد المرات اللازمة لحفظ مجموعة من المقاطع غير ذات المعنى ، أي إنهم كانوا يدرسون الأجوبة اللفظية أو الحركية .

٢ — وحين حاولت مدرسة فورتسبورغ ، بمنهجها الاستبطاني التجريبي المنظم ، أن تدرس التفكير ، وجدت أنه ليس سلسلة من الصور ، وأن ما يميز تحليلامنطقياً أو حكماً أو حلا لمسألة يفلت من الملاحظة الباطنية . وهكذا إذن توصل الاستبطانيون أنفسهم إلى حدود الاستبطان وهم يمارسونه بمنهجية وتنظيم . فالاستبطان وحده حين لا يستند إلى البيئة أو الجسم لايمكن أن تقوم عليه دراسة علمية .

على هذه الازدواجية ، بين النظرية والممارسة ، ثارت السلوكية . وقدم واطسن (١٩١٣) حله الفج : أن يتخذ علم النفس هدفاً لدراسته « ما يفعله الإنسان من المهد إلى

اللحد » . وتعني دراسة السلوك هذه البحث عن العلاقة بين المثيرات التي تؤثر على الجسم وأجوبة هذا الجسم ، موصوفة هذه وتلك بتعابير فيزيائية وفيزيولوجية . وهكذا أصبح الثنائي (مثير — جواب) أو (م—ج) (أو كما يقول مكدوغل ساخراً « ساربون » المؤلف من Stimulus مثير و Reponse جواب و Bondرابطة) هو موضوع علم النفس . وأخذ علماء النفس ، وبخاصة منهم الاميريكيون ، يدرسون السلوك ، وهم ، لشعورهم بتطرف واطسن ، ينكرون أنهم سلوكيون . وبالفعل ، إن الإنسان لا يعيش في عالم من الاشعاعات والتموجات والضغوط ولكنه يعيش في عالم من الأشياء والأشخاص ، وأجوبته ليست مجرد تقلصات عضلية أو حنجرية ولكنها أعمال وأقوال . فكيف يمكن إذن أن ندرس العلاقات بين المثيرات والأجوبة دون الاعتراف بوجود وسيط ، هذا الإنسان ، بين طرفي هذه السلسلة ؟ وفكر ودورث (١٩٢٥) أن الجسم ، أي مجموعة البنى البيولوجية للفرد الإنساني ، هو الوسيط ، وانه يجب أن يحسب حساب هذا المتغير في معادلة السلوك . وكذلك فعل تولمان (١٩٣٢) حين أدخل في تفسير السلوك متغيرات وسيطة كالدافع أو الهدف ، أي كل ما جهز به الفرد من استعدادات وراثية ومكتسبة . وفي الحقيقة ، إن السلوك ليس إلا مظهراً لشخصية معينة في موقف معين فلا بد إذن في دراسة السلوك من مراعاة كلا المتغيرين : الموقف والشخصية . وعلى ذلك تصبح السلسلة السلوكية الديناميكية م (موقف) ← ش (شخصية) ← س (سلوك)، أو بمعادلة دقيقة: س = ت (م ، ش)، أو بمعادلة أدق : س = ت (م ⇄ ش)، والسهم المزدوج يدل على أن هناك تفاعلا بين (م) و (ش) ؛ وبالفعل إن الموقف يختص بالشخص ، ومن الضروري في تفسير سلوك معين معرفة الطريقة التي يواجه بها الشخص موقفاً معيناً بواسطة شخصيته. ولا يعني هذا الفهم للسلوك إعادة الحياة إلى معطيات الشعور ما دامت هذه المعطيات لا تنكشف إلا بما يفعله الشخص ، ولكنه يعني أن عالم النفس يرفض أن يفصل ما هو باطن عما هو ظاهر ، الفكر عن العمل . فإذا لم يكن السلوك انعكاساً لمعطيات الشعور ، فإن « يقظة الشعور » بالعلاقات بين عناصر مختلفة في الموقف تؤثر تأثيراً ديناميكياً على السلوك . وهذه الإمكانية لربط عناصر متباعدة فيما بينها في الزمان والمكان بعلاقة هي التي تميز الإنسان من الحيوان ، وتبرر الاهتمام بالمتغير (ش) الذي يشتمل على « يقظة الشعور » هذه .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

نشأ علم النفس التجريبي في ألمانيا على أيدي ثلاثة من العلماء العظام : ج. ت. فخنر (١٨٠١ – ١٨٨٧)، ه. هلمولتز (١٨٢١ – ١٨٩٤) ، ف. فونت (١٨٣٢ – ١٩٢٠) . واذا كان فخنر بكتابه « عناصر السيكوفيزياء » (١٨٦٠) وبالقانون الأول في علم النفس التجريبي « الإحساس يتزايد مثل لوغاريتم المثير » قد يعد المؤسس لعلم النفس التجريبي ، فإن فونت هو الذي أعطى هذا العلم اسمه وبنيته حين أسس في ليبزيغ (١٨٧٩) أول مخبر نفسي .

بدأ فونت (١٧) طبيباً ثم تحول إلى فيزيولوجي . وقضى سبع عشرة سنة في هيدلبرغ ، ثلاث عشرة منها مساعداً في معهد هلمولتز للفيزيولوجيا . وخلال هذه الفترة تحول من فيزيولوجي إلى عالم نفس ، وألف كتابه « بحوث في نظرية المعرفة الحسية » (١٨٥٨ – ١٨٦٢) ، وفيه تحدث لأول مرة عن علم النفس التجريبي . ثم ظهر له الكتاب الذي غالباً ما يعد أهم كتاب في تاريخ علم النفس كله « أساسيات علم النفس الفيزيولوجي » (١٨٧٣ – ١٩٧٤) . وانتقل إلى ليبزيغ (١٨٧٥) ليشغل كرسي الفلسفة في جامعتها ، وبقي فيها إلى نهاية حياته بعد خمسة وأربعين عاماً ، وأنشأ فيها مخبر علم النفس. وكان أهم حدثين بعد تأسيس المخبر أصدار مجلة « الدراسات الفلسفية » لنشر ما يجري في المخبر من دراسات وهي أول مجلة سيكولوجية خالصة ، وظهور كتاب « علم نفس الشعوب » (١٩٠٠) .

ومن مخبر فونت تخرج كبار علماء النفس التجريبي في أوربا وخاصة في أمريكا . ويكفينا أن نورد هنا هذه القائمة من العلماء الأمريكيين التي ذكرها بورنغ في كتابه « تاريخ علم النفس التجريبي » : ستانلي هول ، كاتل ، ولف ، بيس ، سكريبتشر ، أنجل ، ويتمر ، وارن ، باتريك ، ستراتون ، جود ، تونى ؛ ذلك عدا الأوروبين الذين اجتذبتهم أمريكا من أمثال : تيتشنر الإنكليزي الذي رحل من ليبزيغ مباشرة إلى أمريكا (١٨٩٢) واستقر في جامعة استانفورد ، ومونستربرغ الألماني الذي دعاه وليم جمس إلى هارفارد (١٨٩٢) ، ثم أخيراً سيرمان الذي تأخر رحيله إلى (١٩٣١).

ولا بد هنا من ذكر اثنين من كبار العلماء الألمان (١٨) الذين كان لهم تأثير كبير ومستمر على علم النفس التجريبي . أما الأول فهو ه. ابنغهاوس (١٨٥٠ – ١٩٠٩) (الأستاذ في جامعة برسلاو) ، الذي اشتهر خاصة بكتابه « عن الذاكرة » (١٨٨٥) ، وبتأسيسه « مجلة علم النفس وفيزيولوجيا أعضاء الحس » (١٨٩٠) ، التي ، كما يقول

بورنغ : « تمثل بشكل ما تحالفاً بين المستقلين من خارج مدرسة فونت » . وأما الثاني فهو ج. أ. مولر (١٨٥٠ – ١٩٣٤) (الأستاذ في جامعة غوتنغن) ، الذي اشتهر في ثلاثة مجالات : السيكوفيزياء ، الإحساس البصري ، الذاكرة ، وبكتابه الكلاسيكي الضخم « تحليل القدرة على التذكر والتحليل » (١٩٢١) . وقد كان « شيئاً أشبه بمعهد » ، وكان مخبره مركزاً لنشاط جذب كثيراً من الطلاب الممتازين ، ومارس نفوذاً يشبه نفوذ فونت ولو على نطاق أضيق .

نقل تلاميذ فونت من الأمريكيين والأوروبيين (١٩) الذين اجتذبتهم أمريكا علم النفس التجريبي إلى أمريكا . وهناك وجد قبولا وإمكانيات واسعة : ففي سنة (١٨٩٢) كان في أمريكا خمسة عشر مخبراً وأصبحت ستة وعشرين سنة (١٩٠٠) ، وكلا الرقمين كانا أكبر مما كان في أوروبا كلها ، ويدلان على مدى انتشار هذا العلم الجديد وازدهاره في وطنه الجديد ، حتى لقد قيل : « إن علم النفس التجريبي في القرن التاسع عشر يكاد يكون علماً ألمانيا وأمريكيا » . وهو في ذلك كله مدين خاصة لعالمين كبيرين من تلاميذ فونت هما : غ. ستانلي هول (١٨٤٤ – ١٩٢٤) و ج. م. كاتل (١٨٦٠ – ١٩٤٤) . والأخير هو الذي يهمنا فيما نحن فيه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد عد كاتل (٢٠) لمدة طويلة عالم النفس الأول في أمريكا ، وانتخب سنة (١٩٢٩) رئيساً لأول مؤتمر لعلم النفس عقد في أمريكا . وربما كان مديناً بشهرته ونفوذه لشخصيته المقتحمة ونشاطه وقدرته الفذة في الإدارة والتنظيم . التحق بمخبر فونت سنة (١٨٨٣) ، ففرض نفسه مساعداً له . وقال عنه فونت : إنه أمريكي عنيد ، وتركه يمضي في طريقه التي اختار ، وكانت الاهتمام بالفروق الفردية ، وعاد إلى أمريكا بعد ثلاث سنوات ، فأسس في جامعة بنسلفانيا مخبراً نفسياً (١٨٨٨) ، ولكنه تركه بعد ثلاث سنوات تحت إشراف ويتمر (تلميذ آخر لفونت) وأسس مخبراً جديداً في جامعة كولومبيا ، واستقر هناك إلى سنة ١٩١٧ حين فصل لآرائه الداعية للسلام . فأنشأ « الهيئة السيكولوجية » للأغراض العامة والصناعية . لقد تخرج في مخبره في كولومبيا عدد من كبار علماء النفس في أمريكا ، نذكرهم فيما يلي على ترتيب حصولهم على درجة الدكتوراة : ثورندايك (١٨٩٨) ودوروث وفرانتس (١٨٩٩) ، فيسلر (١٩٠٢) ديربورن (١٩٠٥) ولز (١٩٠٦) براون (١٩٠٨) هولنغورث (١٩٠٩)

استونغ (١٩١١) بفتبوجر (١٩١٢) . وكانت لكاتل طريقته الخاصة في الإشراف على طلابه . يقول عنه ودورث : « انه لا يوجد رئيس أدق من كاتل ، أو مثله في شخصه أو في شئون الإدارة والعمل والدقة العلمية » . كان من عادته أن يترك للطالب أن يختار هو المشكلة التي يريد ان يعالجها بالتجربة ، وبعد رسم الخطة العملية ، يدعه يعتمد على جهوداته الخاصة ؛ ويطالبه بين الحين والآخر بعرض ما أنجز ، فيناقشه زملاؤه وكذلك أساتذته ، وكان نقد كاتل نفسه حاسماً ورفيقاً في آن . يقول ودورث : إنه يذكر طالباً ظهر من مناقشته أنه فارغ ، وأن دراسته تافهة ، فاختفى من بينهم منذ ذلك اليوم .

وكان تأثير كاتل على ودورث حاسماً (٢١) . فهو الذي وضعه أخيراً وبعد طول تردد بين اختصاصات مختلفة ونهائياً في ميدان علم النفس . فقد ولد ودورث (١٨٦٩) لأب واعظ كنسي مشغول بدراساته الدينية ، ولأم تدرس الرياضيات والفلسفة ، فكان لها في توجيهه إلى هذين العلمين أثر . وأبدى في فتوته ، بعد طفولة غير مثالية ، ميلا إلى دراسة الموسيقى ، ولكنه حين وجه إلى الدراسة في الكلية اتجه . وكان معظم اهتمامه في دراسته منصباً على الرياضيات والآداب القديمة . ولكنه في كلية أمهرست تتلمذ على ش.إ. جرمان الذي وجهه إلى الفلسفة ، وخرج من دروسه بمفهوم فلسفي عن علم النفس . وحين تخرج من الكلية (١٨٩١) ، درس الرياضيات سنتين في مدرسة ثانوية وسنتين أخريين في كلية واشبرن ، فأتيحت له الفرصة للتعمق في هذا العلم . ثم التحق بجامعة هارفرد ، فوقع تحت تأثير ج. رويس (١٨٣٥ – ١٩١٦) في الفلسفة ، ووليم جمس (١٨٤٢ – ١٩١٠) في علم النفس . فقدم إلى رويس بحثاً في التفكير بلا صورة انتهى فيه مستقلا إلى النتائج التي انتهت إليها مدرسة فورتسبورغ ، وقدم إلى جمس بحثاً عن الأحلام اتفق في جانب فيه مع تفسير فرويد واختلف في جانب ، فالأحلام في رأيه إشباع لرغبة عرضت في النهار ولم تبلغ شبعها بسبب بعض المعوقات ، ولكن هذه الرغبة ليس من الضروري أن تكون جنسية . ونصحه جمس أن يعمل سنة في مخبر الفيزيولوجيا إذا كان يريد أن يتخصص في علم النفس . فاتجه إلى الفيزيولوجيا يدرسها ويعمل في مخابرها ، بصحبة عدد من كبار علماء الفيزيولوجيا ، خمس سنوات ابتداء من سنة (١٨٩٧) في هارفرد وانتهاء في سنة (١٩٠٢ – ١٩٠٣) في ليفربول مساعداً للفيزيولوجي المشهور ش. شيرنغتون (١٨٥٧ – ١٩٥٢) .

وفي أثناء هذه الفترة من دراسته للفيزيولوجيا ، وفي سنة (١٨٩٨ – ١٨٩٩) عمل مع كاتل في كولومبيا للحصول على درجة الدكتوراه . وفي سنة (١٩٠٣) استدعاه كاتل إلى جامعة كولومبيا للعمل في علم النفس التجريبي والفيزيولوجي ، فاستجاب له . واستقر في كولومبيا لا يبرحها إلا في أسفار قصيرة ، ما عدا سنة واحدة (١٩١٢) قضاها بصحبة أو. كولبه (١٨٦٢ – ١٩١٥) ، رأس مدرسة فورتسبورغ ، في مخبره في بون ، وكان معجباً به وقد عده أباً له في علم النفس . وحين فصل كاتل (١٩١٧) أصبح خليفته في كرسيه وفي مخبره .

هذه الدراسة المتعمقة لكثير من العلوم ، وبخاصة الفيزيولوجيا والرياضيات ، وهذا الاتصال الواسع بكثير من العلماء والفلاسفة ، وبخاصة كاتل وكولبه ، ثم اشتراكه أو رياسته أو مساعدته لكثير من الهيئات العلمية في الولايات المتحدة ، وبخاصة « هيئة علماء النفس الأمريكيين » التي تولى رياستها (١٩١٤) والتي لم يتخلف عن اجتماعاتها السنوية منذ (١٨٩٨) إلا نادراً ، مما أتاح له أن يكون على صلة مستمرة بأئمة العلم في أمريكا – هذا جميعاً جعل لودورث من جهة أن يشارك في كثير من ميادين علم النفس ، وحال من جهة أخرى بينه وبين الالتزام بأية مدرسة من مدارسه .

فقد تناولت محاضراته ميادين كثيرة في علم النفس : علم النفس الفيزيولوجي ، علم النفس المرضي ، علم النفس الاجتماعي ؛ وعرجت بين الوقت والآخر على روائز الذكاء والاحصاء ومناهج علم النفس ومشكلاته وتاريخه وتطبيقاته الخ . . كما كان يتدارس مع طلابه في الحلقات الخاصة : الحركة والبصر والذاكرة والتفكير والدوافع الخ .

وله في كل هذه الميادين مؤلفات وإنجازات واكتشافات ؛ من مثل : كتاب « مبادىء علم النفس الفيزيولوجي » (١٩١١) الذي اشترك في مراجعته مع ج. ت. لاد (١٨٤٢ – ١٩٢٩) واختص فيه بتشريح الأعصاب وفيزيولوجيتها والتجريب عليها . وكتاب« علم النفس الديناميكي » (١٩١٨) وكان له في حينه أثر كبير على علم النفس الأمريكي . وكتاب « علم النفس ، دراسة لحياة الذهنية » (١٩٢١) وقد عد لمدة طويلة نصاً معتمداً للدراسات الجامعية في السنوات الأولى .

ذلك إلى جانب كتب أخرى وبحاث كثيرة ونماذج إحصائية وروائز واستخبارات من أشهرها : بحثه في الحرب العالمية الأولى بتكليف من هيئة « علماء النفس الأمريكيين » عن مقياس « الثبات الانفعالي » ، حيث نظم ، بالرجوع إلى كل ما سبق من دراسات حول عصاب الحرب والوقوف على مئات من أعراضه ، استخباراً يطبق على عدد كبير

من الأشخاص في وقت واحد ويجاب عليه بنعم أو لا ، وما زال يطبقه ويعدله ويجربه بعد اختصاره على ألف حالة في أحد المعسكرات ويحاضر الأطباء العسكريين في كيفية استعماله حتى انتهت الحرب . وقد استخدمه في صيغته أو في صيغ أخرى معدلة كثير من علماء النفس .

وربما كانت أعظم مكتشفاته نظريته التي طرحها (١٩٢٥) لخروج من المأزق الذي زجت فيه السلوكية علماء النفس التجريبيين حين حددت السلوك بالثنائي (مثير – جواب) ، وهي أن الجسم بكل ما ينطوي عليه من بنى يكون الوسيط بين طرفي هذه العلاقة ، فتصبح صيغة السلوك على النحو التالي : (مثير – جسم – جواب) . ونظريته الأخرى (٢٢) التي اقترحها (١٩٣٥) في دراسته للاستدلال القياسي ثم أجرى بالتعاون مع س. ب. ملز ، التجارب للتحقق منها ، ويمكن التعبير عنها بالصيغة التالية : « إن الجو العام لقضية غير محللة قد يميل بالإنسان إلى قبول القضية التي يصاحبها جو مشابه » ، فمثلا القضية الكلية الموجبة القائلة بأن « كل أ هي ب » قد تخلق جواً من « الإيجابية الكلية » تعد الإنسان إلى قبول العكس وهو « كل ب هي أ » التي لها أيضاً جو « الإيجابية الكلية » .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويبقى أخيراً الكتابان اللذان أصبحا كلاسيكيين في علم النفس واللذان قد يكونان خير نتاج ودورث ، الكتاب اللطيف الدقيق والواضح « مدارس علم النفس المعاصرة » (١٩٣١) ، والكتاب الضخم الجامع حصيلة عمر ودورث الحافل « علم النفس التجريبي » (١٩٣٨) .

في آخر كتاب « مدارس علم النفس المعاصرة » فصل بعنوان (٢٣) « الطريق الوسطى » ، يذكر فيه ودورث أن الكتلة العظمى من علماء النفس لا تنتسب إلى هذه المدارس بل تقف في طريق وسطى ، وأنه هو من علماء الطريق الوسطى . وينبه إلى أن الطريق الوسطى ليسوا دون زملائهم من علماء المدارس ، ففيهم علماء كبار وقادة عظام كما يوجد بين علماء المدارس ، ولكنهم يفضلون أن يكونوا في الموقع الذي يتيح لهم أن يقبلوا الصحيح في كل مدرسة وينبذوا الخاطىء والظني . وليس معنى ذلك أنهم مجرد ملفقين يلتقطون الحقائق ولا أنهم مجرد نقدة يميزون الصحيح من الفاسد ، بل هم بحاثة مجدون حصلوا كثيراً من الحقائق الجديدة وقدموا كثيراً من البحوث الجديدة والجيدة المحكمة .

هذا الوصف ينطبق على ودورث انطباقاً تاماً في كتابه « علم النفس التجريبي » ، وهو يوضح ذلك في مقدمة الكتاب حين يقول (٢٤) : « وإني أعالج الموضوع معالجة انتقائية ، بمعنى أنني أبحث لنفسي أن أدخل فيه مناهج ونتائج أي باحث دون النظر إلى غاياته النظرية . . وينبغي أن نميز بين النظريات التي لها طابع المذاهب المتصلة بمختلف المدارس ، وبين نظريات أخص في التعلم أو في الجواب الشرطي أو في الإدراك البصري للمكان ؛ إن المجرب لعلى اتصال مباشر بهذا النوع الثاني من النظريات ، وان فحص هذه النظريات ليدخل مباشرة في برنامج هذا الكتاب . . » .

وهذا الكتاب هو حاصل جهد امتد على مدى سبعة وعشرين عاماً ، فقد ابتدأ فيه ودورث ، كما يقول في المقدمة (٢٥) ، في سنة (١٩١٠) حين جمع كل ما يمكن جمعه عن التعلم والذاكرة ، وما زال يضيف إليه عاماً بعد عام فصولا عن الصور والتداعي وزمن الاستجابة وإدراك المكان والحكم والتفكير ، إلى أن وصل إلى سنة (١٩٣٠) فشرع في العمل بجد ، ولكنه لم يرفع يده عنه إلا في أواخر سنة (١٩٣٧) ، ليظهر أخيراً مطبوعاً سنة (١٩٣٨) .

ويبدو أن ودورث كان يوده لو يحقق في كتابه هذا مطمح علماء النفس التجريبي في (٢٦) « أن نجعل ميدان علم النفس التجريبي واسعاً سعة ميدان علم النفس ذاته . . » ولكن حجم الكتاب الكبير أكرهه على قبول بعض الحدود . وقد عرض في المقدمة ما ليس في الكتاب (٢٧) « . . إننا ندع جانباً مسألة الفروق الفردية والتلازمات التي يعنى بها الدارسون عناية كبيرة . . ولم نحاول أن يشمل هذا الكتاب تجارب علم النفس الاجتماعي . . ولا التجارب المتعلقة بنمو الطفل . . ولم أستطع أن أصرف النظر تماماً عن التجارب المتعلقة بالتعلم وبحل المسائل لدى الحيوانات ولكنني لم أحاول أن أستنفد كل موضوع علم النفس الحيواني . وإني لا أعالج كذلك مسائل علم النفس التربوي وعلم النفس التطبيقي وعلم النفس المرضي . ثم إنني أبتعد عن الفيزيولوجيا ما أمكن الابتعاد . . وكنت أود لو أضيف فصلا عن العمل والدوافع . . ورغم أن هذا الكتاب مرتبط بالمخبر ارتباطاً وثيقاً فإنه لا يمد القارىء بتوجيهات مخبرية ولا يذكر كثيراً من التفاصيل عن الأجهزة واستعمالاتها . . » .

ورغم هذا التحديد فقد عالج فيه تسعة موضوعات كبرى تدخل تحتها موضوعات صغرى موزعة على ثلاثين فصلا ، تقع (في الترجمة الفرنسية) في مجلدين يحتويان على

ما يقارب ألفاً ومائتي صفحة . أما الموضوعات الكبرى فهي : الذاكرات (أي أنواع الذاكرة) ، العادات ، الاستجابات ، الانفعالات ، علم الجهال (أي التجريبي) ، السيكوفيزياء ، الإحساسات والإدراك ، الانتباه ، التفكير . وأما الفصول فعناوينها ما يأتي : مدخل ، الذاكرة ، الاحتفاظ ، ذاكرة الأشكال ، الأجوبة الشرطية ، تعلم المتاهة ، التمرين والمهارة ، انتقال التدريب ، الاقتصاد والعرقلة في التعلم والذكرى ، العواطف ، تعبيرات الانفعالات (الهيجانات) ، التغيرات الجسدية في الانفعال ، « المنعكس السيكوغلفاني » أو « الجواب الغلفاني الجلدي » ، زمن الاستجابة (الرجيع) ، التداعي ، علم الجهال التجريبي ، المناهج السيكوفيزيائية ، النتائج في السيكوفيزياء ، الحساسية الجلدية ، الشم والذوق ، السمع ، حس البصر ، الحركات العينية ، إدراك اللون ، إدراك الأشكال ، المكان البصري ، الانتباه ، القراءة ، السلوك في حل المشكلات ، التفكير . وبالنظر إلى هذه العناوين يتأكد ما ذكره ودورث في المقدمة : إن (٢٨) « برنامج هذا الكتاب هو على قدر كاف من الاتساع ، إذا اقتصرنا ، كما فعلت ، على ما تشتمل عليه عادة دروس في علم النفس التجريبي الفاحصون والمفحوصون فيها راشدون شباب » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا التعريف الجزئي الناقص بودورث وكتابه ، الذي يقول عنه يوسف مراد بحق (٢٩) إنه « صورة صادقة لكل ما أمكن أن يصل إليه علم النفس حتى اليوم من الوجهة التجريبية » ، يكشف عن بعض الأسباب التي جعلت من كتاب « علم النفس التجريبي لودورث » كتاباً كلاسيكياً معتمداً في علم النفس الحديث ؛ والتي دفعت علماء النفس الفرنسيين حين وجدوا ، بعد الحرب ، أن عليهم ، ليلحق علم النفس الفرنسي بعلم النفس في أمريكا وألمانيا ، أن يبادروا إلى ترجمة أمهات الكتب السيكولوجية ، فكان كتابنا هذا في رأس القائمة ، وظهر في اللغة الفرنسية سنة ١٩٤٩ .

ويكشف أيضاً لا عن حسن اختيار سامي الدروبي فحسب ، ولكن بخاصة عن مدى شعوره بالمسؤولية تجاه طلابه الجامعيين . أراد سامي من هذا الكتاب ومن المخبر السيكولوجي الذي أنشأه ، أن يضع طلابه في مواجهة مشكلات علم النفس الحديث ، عسى أن ينشأ جيل من البحاثة في هذا الميدان العلمي .

ترجم سامي ما يقارب ثلث الكتاب ، ويشمل موضوعي الذاكرات والعادات (أي ما يتصل بالتعلم) الموزعين على تسعة فصول ، ونشره سنة (١٩٥٦) – ترجمة

سليمة واضحة لا تعثر فيها ، فإن وجد أحياناً فهو راجع إلى المادة ذاتها لا إلى العبارة . وتابع الترجمة (وقد علمت أنه ترجم ثمانين صفحة ، وهذا يعني أنه ترجم ما يتصل بالانفعالات بفصولها الثلاثة : العواطف ، التعبيرات عن الانفعالات ، التغيرات الجسدية في الانفعال) ، ولكن شواغل أخرى صرفته عن هذا العمل القيم ، وكذلك ، إلى أمد ، عن التدريس في الجامعة . وهنا لا بد للإنسان إلا أن يأسف على أن لم يبلغ سامي بهذا العمل العظيم التمام .

المراجع :

(١) ارجع إلى كتاب الدكتور جميل صليبا في علم النفس ، وهو خير كتاب مدرسي ظهر في سورية في العقدين الرابع والخامس .

(٢) بول فريس ، علم النفس التجريبي ، ترجمة موريس شربك وميشال أبي فاضل ، بيروت ١٩٧٤ — ص ١١ .

(٣) ارجع إلى : يوسف مراد ، مبادىء علم النفس العام ، دار المعارف بمصر ١٩٤٨ ، وخاصة إلى الفصل « تمهيد في موضوع علم النفس ومناهجه وفروعه » ص ١٠ — ٢٤ .

(٤) علم النفس ونتائجه التربوية ، ص ٢٠ .

(٥) المعلم العربي ، السنة الثانية ، العدد السادس ، نيسان ١٩٤٩ ، ص ص ٧٨٨ — ٧٩٦ .

(٦) المعلم العربي السنة الثالثة ، العدد المزدوج (٢ ، ٣) ، كانون الأول ١٩٤٩ وكانون الثاني ١٩٥٠ ، ص ص ٢٤٣ — ٢٤٨ .

(٧) الموجز في علم النفس ، ص ٤٢٨ .

(٨) الموجز ، ص ص ٤ — ٨ .

(٩) الموجز ، ص ص ٩ — ٢١ .

(١٠) الموجز ، ص ص ٥٣ — ٥٧ .

(١١) فاخر عاقل ، مدارس علم النفس ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧١ ، ص ص ٣٥ — ٣٧ .

(١٢) الموجز ، ص ص ٤٢٧ — ٤٢٨ .

(١٣) دروس علم النفس ، ص ٣ .

(١٤) الدروس ، ص ص ٥ — ٨ .

(١٥) الدروس ، ص ص ٨ — ٢٣ .

(١٦) ارجع إلى ودورث ، مدارس علم النفس المعاصرة ، ترجمة كمال دسوقي ، القاهرة ١٩٤٨ — وإلى ج. ل. فلوجل ، علم النفس في مائة عام ، ترجمة لطفي فطيم ، بيروت ١٩٧٣ — وإلى ب . فريس ، علم النفس التجريبي .

(١٧) علم النفس في مائة عام ، ص ص ١٢٢ — ١٣٠ .

(١٧) علم النفس في مائة عام ، ص ص ١٢٢ — ١٣٠ .

(١٨) علم النفس في مائة عام ، ص ص ١٣٦ — ١٤١ .

(١٩) علم النفس في مائة عام ، ص ص ١٤٢ — ١٤٧ .

(٢٠) علم النفس في مائة عام ، ص ص ١٤٣ — ١٤٥ ، مدارس علم النفس المعاصرة ، ص ص ٣٠ — ٣٢ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٢١) مدارس علم النفس المعاصرة ، ص ص ٢٦ — ٤٣ .

(٢٢) ت. ج. أندروز ، مناهج البحث في علم النفس ، الجزء الأول ، الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ص ١٦٦ — ١٧٠ .

(٢٣) فاخر عاقل ، مدارس علم النفس ، ص ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(٢٤) علم النفس التجريبي ، الترجمة ، ص ٦ .

(٢٥) علم النفس التجريبي ، ص ٣ .

(٢٦) علم النفس التجريبي ، ص ١٠ .

(٢٧) علم النفس التجريبي ، ص ٤ .

(٢٨) علم النفس التجريبي ، ص ٥ .

(٢٩) مبادىء علم النفس العام ، ص ٦ .

غسّان كنفاني روائيـــًا

يوسف اليوسف

القسم الثاني

في « ما تبقى لكم » ليس الدنس والطهر متعارضين فحسب (حامد نقيض زكريا ، بل ونقيض مريم أيضاً ؛ الأم نقيض مريم ؛ سالم نقيض زكريا ؛ الأرض نقيض مريم وأمها) ، بل ان هنالك علاقة تضمن جوهرية تدغم الطهر بالدنس . ولهذا فان الدنس نفسه يستحيل إلى القوة التي تنفيه ، وذلك حين تقوم مريم بطعن زكريا . إن مريم هي حوار الدنس والطهر في تضمن أحدهما للآخر ، وهي كذلك حوار مع زكريا في علاقتهما الضرورية . وبالمقابل فـان حـامد (البحث عن الطهر) هـو حـوار (غير شفوي) مع الجندي الصهيوني الذي لايمكن أن يوجد بدون حامد ، مثلما لايمكن لحامد أن يوجد بدونه . إن علة وجود أي من هذه الكائنات الأربعة هي علاقته بمقابله ، أو تلاحمه مع مقابله . وبسبب من هذا التقابل المتلاحم كان كل شيء في الرواية ينبض ويدق ، حتى الأرض والصمت ينبضان . إن هذا النبض المواكب لحركة القصة هو صوت الحيوية والنمو الرابض في الكائنات وهو رمز قصدي أو شعوري ، ، للتعبير عن درجة التحول الحاضنة للحركة . كل شيء ينبض ، وهذا يعني أن كل شيء يتحرك ، ويعني أن ثمة ولادة قادمة . وزكريا يدرك هذا جيداً ، ولذا فانه يعرض على مريم إمالة ساعة الحائط ، التي هي رمز للزمن بوصفه مقياس الحركة وحاملها ، كي يوقف هذا النبض الذي يدفعه نحو مصيره . ومن هنا كان النبض هو الشكل المحسوس للصراع .

إن زكريا هو الوحيد المرشح للسقوط ، وهو يشعر بذلك . ومريم لا تملك أن تتخطى

ذاتها ، أن ينتصر مضمونها على مضمونها ، الا بقتل زكريا واسقاط الجنين . وقتل زكريا ليس مجرد انتصار للارادة على الوهن التاريخي ، أو للطهر على الدنس ، وكفى ، وليس تحريراً للارادة من سمة العطالة فقط ، بل هو قبل كل شيء الضرورة التاريخية الناجمة عن حركة حامد وانتصاره على الجندي الصهيوني . « حدث شيء لحامد هذه اللحظة . لقد أحسست ذلك في أعماقي » . (ص ٢١٦) فأثناء قراءة الرواية لا نتوقع اطلاقاً أن تقوم مريم بطعن زكريا ، بل ما نتوقعه هو أن يقوم حامد بطعن الجندي . ولكننا نفاجأ بعكس ما توقعناه ، إذ يقطع الكاتب مشهد تلاحم حامد مع الجندي ليعود بخيط الحدث إلى زكريا ومريم . وليس من باب الصدفة أن يترك مصير حامد والجندي معلقاً ، بل هو أمر تعمده غسان قطعاً . لقد ترك النقيضين في حالة تلاحم وتقابل ، وترك الحل مفتوحاً ، تركه لذمة التاريخ . فاذا كان فحوى « ماتبقى لكم » ، من حيث مستواها الظاهري ، هو تحرير الارادة المعتقلة تاريخياً ، لا تحقيقها ، لا انتصارها الكامل على نقيضها ، الأمر الذي يعكس تماماً مرحلة من مراحل التاريخ الفلسطيني فاننا ندرك لماذا أسدل غسان الستار على علاقة حامد بالجندي الصهيوني . ها قد تحررت المشيئة الوطنية ، وها قد بدأ الصراع من جديد ، أما حسم هذا الصراع فهو متروك للتاريخ ، وان يكن غسان قد أفصح عن كيفية اتجاه هذا الحسم ، وذلك بتفوق حامد على الجندي . إن هذا الصراع المفتوح ، والذي لا يستطيع أحد اغلاقه أو حسمه في المرحلة الراهنة ، هو المعنى الذي يكمن وراء التوقف عن ملاحقة ما يجري بين حامد والجندي . لقد برهن غسان على عظمة روائية ، وعلى تعمق في فهم الواقع وأمانة في تصويره ، حين خطا هذه الخطوة ، إذ لو ترك حامد يقدم على قتل الجندي لكان قد دلل على طفولة فنية يخسر العمل كثيراً من قيمته بسببها . إن شروط قتل الجندي الصهيوني لم تكن قد اكتملت بعد ، فحامد محاط بالصحراء ، وآليات العدو يسمع هديرها عن قرب ، واحتمال الاصطدام بدورية معادية شيء في البال ، وحامد لايجيد استعمال السلاح الذي طوح به بعيداً إثر استخلاصه من العدو ، والشمس حارة قاتلة ، وقد لايستطيع حامد أن ينجو من جحيمها . ان شرطاً واحداً فقط هو الذي حضر : الارادة . ولكن الشيء (النصر) لا يحضر الا بحضور كامل شروطه . كل ما طرحه غسان في هذا الموقف هو ان الارادة قد انعتقت من محجرها ، وأن الحركة قد بدأت تتسارع بسبب من احتضان الاطروحة لنقيضها ، أي بسبب من تطويق حامد للجندي بيديه الحديدتين المحررتين من ربقة الزمن الماضي الذي هو عار الفلسطيني . إن هذا التطويق عينه – كحركة مسرحية – هو تحقيق تركيبة الضدين المتناقضة في داخلها . لقد اشتبك ، أو التحم ، كل منهما بالآخر ،

ولا فكاك لأحدهما عن الآخر الا باعدامه . ولكن المؤشرات تشير إلى أن اعدام حامد هو الأقل احتمالا . في « رجال في الشمس » كانت الاطروحة مفكوكة عن فرقها أو نفيها (الفلسطيني بعيد عن الصهيوني) ، كانت علائم الهوية الايجابية غائبة تماماً ، إذ الأبطال محكومون بجملة شروطهم وعاجزون عن الفعل فيها ، أما في « ما تبقى لكم » فالأمر على النقيض تماماً ، إذ القدرة على المبادرة هي الأطغى على أحداث الرواية .

وقتل مريم لزكريا ، وكذلك اسقاطها للجنين ، يعني تحرر ارادتها هي الأخرى ، ونظافتها من الدنس الذي سببه سقوطها الشخصي . ولكن سقوطها الشخصي نفسه هو نتيجة سقوط الشعب . لو لم تسقط يافا لتزوجت مريم من فتحي ولما تدنست . أما الآن فقد « ضاعت يافا أيها التعيس ، ضاعت ، ضاعت ، وضاع فتحي ، وضاع كل شيء » . إن سقوط مريم هو كناية عن سقوط الشعب ، مثلما هو نتيجة له . وانتصارها على زكريا هو تحرير هذا الشعب من دنس السقوط وامتلاكه لارادته . فهنا نجد مريم تكمل حامد الذي سبقها إلى تحرير ارادته . فالرواية ذات محتوى واقعي تماماً ، وهي أمينة جداً تجاه الواقع . كل مافي الأمر أننا تخلصنا من دنس السقوط ، وذلك من خلال السلاح والدم ، هذين العنصرين الغائبين تماماً عن مناخ « رجال في الشمس » حيث يموت الأبطال إختناقاً دون أن ينزفوا سوى عرقهم .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم يكن زكريا مجرد بذرة للحركة في خط تطور حامد ، بل هو كذلك بذرة للحركة في خط تطور مريم . ويسعنا ان نرى فيه فرقاً بين مريمين : مريم الدنس ومريم الطهر ، ودون الغاء هذا الفرق فان مريم ستظل رابضة في العطالة . ويأتي انتقال مريم من الدنس إلى الطهر على شكل توسط ، أي كخطوة تتجاوز ما قبلها لتمهد للارتقاء إلى ما فوقها . فهي ، إذن ، الحقيقة التجسيدية التي هي وحدة الأنا وما يعارضها . ولهذا فانها أكثر واقعية من حامد الذي لا يمثل الا البحث عن النقاء ، وأكثر واقعية من زكريا الذي لا يمثل الا السلب ، عامل الدنس النابض في قلب الحقيقة . وهكذا يتدرج الخط من زكريا إلى مريم ، ومن مريم إلى حامد ، ومن حامد إلى أمه التي هي رمز الطهر المشكوك بوجوده في الواقع . أما الجندي الصهيوني فهو عين جوهر زكريا ، ولكن على شكل ظاهرة أخرى . إنه دنس الأرض . وتلاحم حامد معه يمثل حقيقة تجسيدية تعادل حقيقة تلاحم مريم وزكريا . فلما كان حامد هو البحث عن النظافة ، والجندي هو الفرق بين الدنس والنظافة ، فان تحاورهما يعني انحلال الهوية ومايعارضها فيموقف واحد . وهنا لا تظل الهوية مجرد برهة تجريد ، بل تنحل في تشخيص عياني ، أي أن حامد لا يبقى تبوءماً ونزقاً يرفض واقعاً دنساً ، يرفض اختاً تفتقر إلى

النظافة ، ويبحث عن أم ليست موجودة الا في مكان شبه مجهول (كأنما هي في عالم المثل) ، بل هو يصطدم بجدار عياني سميك ، بجندي مدجج بأسلحة فتاكة . وبهذا الاصطدام وحده يتحول حامد من برهة مجردة (من رفض مفرغ من جوهره) إلى عيان ملتحم بنقيضه أو بمن يقابله . ان حامد لا يملك أن يبلغ أمه الا بالغاء الفاصل الذي يفصله عنها . عند ذاك تفلت هويته من فرقها ، من سوادها ، وتستحيل إلى بياض محض . ولما كانت الأم هي الصبوة المرموقة ، وبالتالي تمثيل هذا البياض الخالص المفقود (على الرغم من شكوك حامد بنقائها) ، فانها تطرح من حيث هي كينونة خالصة من التركيب أو من النقيض . إن نقيضها الوحيد هو الارتياب بنقائها ، لا بوجودها . زكريا ومريم في كينونة واحدة مركبة ؛ حامد والجندي في كينونة واحدة مركبة أيضاً ، الأم وحيدة ، وغير شاخصة ، وموجودة في مكان شبه مجهول . فاذا كان الفن العظيم هو فن التنميط ، فن صنع النماذج ، فان هذه الرواية عظيمة ، لأنها قدمت النماذج العاكسة للواقع بأمانة .

ولما كانت مريم هي حس الدنس الخالع ، والذي هو جزء من محتوى الضمير الفلسطيني ، فان انتصارها على نقيضها مشروط بانتصار حامد على الجندي . ولهذا نلاحظ أن الصراع بينها وبين زكريا كان يتصاعد بتصاعد الصراع بين أخيها وعدوه . وبذلك نرى الصراع يسير على محورين منفصلين ولكنهما متشارطان ومتحاوران . « ماتبقى لكم » رواية صراع حاد ، صراع يستهدف استيلاد الشروط التي لا يحضر الخلاص بدونها . والصراع هنا خارجي وداخلي . فحامد الذي يتحسس دنس الأرض والأخت والأم يشعر بأنه لم يتبق له شيء على الاطلاق . ولهذا فهو مرغم على الاتجاه نحو التصارع مع الخارج . إن العنوان يضيء الرواية تماماً ، وهذه مسألة لم ينتبه اليها أي من نقاد غسان . ترى ماذا يعني الحاح الرواية على طرح هذا السؤال : « ما تبقى لكم » ؟ » ؟ إنه يعني شعوراً بالاختناق يعيشه حامد ، ويعني صراعات داخلية هائلة تترك صدوعاً عميقة في نفسية البطل . والجواب على سؤال حامد هذا هو : لم يبق الا الصراع .

والصراع متسارع يحتضن متضادات بعيدة كل البعد عن العطالة . ولعل الفارق الأساسي بين « رجال في الشمس » وبين « ما تبقى لكم » هو العطالة التي يبديها أبطال الرواية الأولى ، والنقض الذي يمارسه بزخم وفاعلية أبطال الثانية . فاذا كانت العطالة في الأولى هي التي ولدت المأساة ، فان الصراع (وخاصة الصراع الداخلي) في الثانية هو الذي حقق الانتقال من حالة إلى أخرى . ولقد أصاب كل من رأى في « ما تبقى لكم » تكميلا لرواية « رجال في الشمس » ، ولكن شريطة أن نفهم هذا التكميل من حيث هو انتقاض ، أي من حيث أن « ما تبقى لكم »

ترفع لحظة الادانة عن المدانين . فاذا كانت « رجال في الشمس » من نتاج عقدة الذنب ، فان الرواية الأخرى تقع على نقطة تتوسط بين هذه العقدة وبين انحلالها .

غسان الذي يستوعب الحدود المتنقلة للشيء ، يعلم أن الارادة الغائبة التي عكستها « رجال في الشمس » لن تظل غائبة طوال التاريخ . انها مجرد برهة سرعان ما تنطفىء لتتجلى الارادة بكامل حضورها في « ما تبقى لكم » ، أي أن التاريخ المعتقل أخذ يهشم محجره الصخري . إذ ليس صدفة أن تظهر هذه الرواية عام ١٩٦٦ ، أو إثر بدء حركة التحرر الوطني . لقد جاءت كل من الروايتين عاكسة تماماً لمرحلة من مراحل تطور شعب . فالرواية الأولى تدين وتطالب بالتخطي ، أما الثانية فتدين وتتخطى في آن معاً . انها تسقط ما يعجز عن التخطي وما يعرقله ، فضلا عن أن حامد يمثل نقمة غسان على سلبيات الحاضر .

ولما كانت هذه الرواية انعكاساً للمضمون الروحي لشعب معين في مرحلة معينة . فقد جاء الأبطال لحظات تركيبية في وعي ذلك الشعب . زكريا هو الوعي الفلسطيني في خبله الذي أدانه غسان في « رجال في الشمس » . انه الضمير ، لا في عدم قابليته للافاقة فحسب ، بل وفي عدم احساسه حتى بسقوطه الفردي . وإذن فانه لا يمكن وضع حد لسباته الا بتدميره . فهو يقضي الليلة التي تستغرقها الرواية نائماً لولا أن مريم كانت توقظه بين الفينة والأخرى . والزمن بالنسبة اليه عدم ، إذ الساعة المعلقة على الجدار عكاز بطيء الوقع . أما مريم فهي الضمير في قابليته للافاقة من السقوط ، بل هي قبل كل شيء القلق الناجم عن السقوط ، والقلق الذي يحدثه رحيل حامد ، هذا الرحيل الذي يحرك فيها الشعور بالاثم ، والذي يبعث فيها اليقظة الدائمة ، فهي لاتنام أبداً . ولكنها لاتشعر بالسقوط الجماعي الا بعد ما تسقط فردياً . انها الضمير في تحسسه لحالته ، وفي امكانية استيعابه للسقوط الجماعي ، شريطة ان يهزه سقوط فردي خاص . وباختصار انها الوعي الفلسطيني في معاناته لعقدة الذنب .

أما حامد فهو الضمير في توثبه وفي يقظته الدائمة والفاعلة دونما حاجة إلى سقوط فردي خاص . لهذا كان حامد نقيضاً مباشراً لزكريا أكثر مما هو نقيض لمريم . ورحلته الهادفة إلى اللقاء هي رمز لدرس كبير يقدمه غسان : كل محاولة لبلوغ الطهر الفلسطيني لا محيد لها عن العبور بفلسطين المحتلة . إن زكريا نتن لأنه لا يستطيع أن يدرك هذا ، ولأنه يقف في وجه من يحاولون تنفيذ هذا العبور (قضية سالم) . انه ، إذن ، لحظة الخطة والتقاعس في السقوط الفلسطيني ، والحالة التي لا يمكن للفلسطينيين أن ينهضوا دون تدميرها في ذواتهم . وهو ، على أية حال ، الداء الفلسطيني الذي أفرزه السقوط الجماعي . ويأتي حامد كنقيض له بسبب من

كونه يمثل الريادة التاريخية ، فهو يجتاز المسافة التي لم يحاول أحد اجتيازها طوال ست عشرة سنة . لهذا فهو الضمير لا في يقظته فحسب ، بل و في تقحمه لقطاع الفعل التاريخي وفي تحفزه للانقضاض . فهو ، إذن ، الروح في حالته المثلى . أما مريم الملوثة (ولكن القابلة للتنظيف) فانها تملك أن تتخلص من رجسها شريطة أن يقوم الرواد بفتح العراك مع العدو . وهذا ماحدث بالفعل . لقد اسقطت الجنين وطعنت زكريا (الجانب الاسترخائي في الضمير الفلسطيني) بعدما استطاع حامد أن يتفوق على الجندي الصهيوني . ومن هنا نفهم كيف يتعاضد الشكل والمضمون على بسط معنى الرواية . لم يكن صدفة أن لجأ غسان إلى تقنية اللحظات المتحاورة في بناء روايته هذه . إن ما يجري مع حامد (الفدائي الناهض) في النقب يؤثر على الحدث الجاري في غزة (على الشعب في المخيم) ، وحالة غزة هي التي دفعت حامد باتجاه النقب . وبمجرد رحيل حامد يتحرك حس العون في مريم . إذن ، الأشياء متحاورة ، ولهذا فانها تحتاج إلى طريقة حوارية في التعبير . إن تعالق الأبطال هو التوأم المضموني لهذا النهج المتعالق ، الأمر الذي يعني أن الشكل في حالة وحدة مع المحتوى ومع التقنية . فالشكل والمضمون متشارطان .

لست أريد أن أنكر التأثر الواضح لهذه الرواية برواية « الصخب والعنف » لوليم فوكنر . فهي مثلها تعالج الدمار الذي يحل بأسرة معينة . ومثلما أن بناء رواية فوكنر يتجه من اللاعقلاني إلى الموضوعي ، فان رواية غسان تأخذ المعنى نفسه ، إذ تتجه هي الأخرى من عالم غير متوافق مع العقل نحو عالم عقلاني تبلغه بالصراع . ومثلما نجد في « الصخب والعنف » اهتماماً بالزمن ، وتضارباً بين زمنين ، بين ساعة كونتين المكسورة وبين ساعة دلسي المرعبة ، كذلك نجد ساعة حامد المكسورة وساعة مريم المخيفة . وتشترك الروايتان حتى في نزعة حب الأقارب ، والفارق بينهما في هذا المضمار هو أن هذا الحب سافر في رواية فوكنر ومخبوء في ألياف رواية غسان . وتشترك الروايتان كذلك في أنهما تقدمان عالماً ملغياً تتمازج فيه عدة قضايا وموضوعات . مع ذلك كله فان غسان يمتلك خصوصية تحقق له التفرد ، وهي أنه استطاع أن يطبق هذه النهاجية على وضع بعينه ، أو على موضوع ذي طابع تاريخي . إن رواية فوكنر ذات بعد كلي ، أو كوني كما يمكن أن يقال ، أبطالها أفكار وحالات نفسية ، في حين أن موضوع غسان وأبطاله هم جوانب لضمير شعب بعينه ، لا للضمير الإنساني بمفهومه الكوني . وهذا يعني أن فوكنر قد تعامل مع الكوني وكفى ، في حين ان غسان قد تعامل مع المحلي ورفعه إلى أفق الكونية من خلال تقديم بطله المقهور كرمز لكل أشكال القهر التاريخي .

* « ام سعد » والتفكك البنائي

من الواضح أن عدداً لا يستهان به من القصص الفلسطينية لا يأخذ بالحسبان مسألة هامة فحواها أن الصراع – أكان بين البطل ونفسه أم بينه وبين الخارج – هو الخامة الأساسية في نسيج الشئون القائمة على الحدث ، ولا سيما الرواية والمسرحية . وهذه مسألة ذات شأن خطير . إن دفع الصراع إلى المدى المطلوب يؤثر على الرواية من جهتين : من جهة حبكتها ، ومن جهة شخصياتها . وهذا يعني أن بنيان الحبكة لا يحقق من الصلابة الا بمقدار ما يحقق من الصراع ، وأن انشاء الشخصية يتناسب طرداً مع حدة وعمق الصراع الذي تعيشه هذه الشخصية . وإذا ما تأملنا « أم سعد » وجدنا أن عدم دفع الصراع إلى أقصى مدى ممكن قد انعكس على الحبكة والشخصيات معاً ، فجاءت الأولى مفككة واهية ، بل وغائبة إلى حد ما ، وجاءت الثانية محرومة من اغتنائها بالابعاد الواسعة والحضور الثقيل .

ما الذي تبحثه « أم سعد » ؟ أعني ما هو موضوعها ؟ إنها تبرز الانقلاب الكبير الذي طرأ على الحياة الفلسطينية إثر نشوب المقاومة . ولكن ، كيف تبسط هذا الموضوع ؟ إنها تقدمه عمودياً وليس رأسياً ، بمعنى أنها تبسط حالة ولا تنسج حبكة ، وهذا يتضمن بالدرجة الأولى أنها تنتهي حيث تبدأ . فلا من ضرورة تحكم تطور القصة سوى ضرورة واحدة هي تبرعم الدالية . والدالية (المكافيء الخارجي للمعنى في الرواية) هي شيء هامشي ، على الرغم من دورها في إنارة المعنى . وإذا ما تفحصنا الدالية وجدناها مبرعمة منذ البداية (ص ٢٤٩) :

— « قضيب ناشف » .
— « أنه يبدو كذلك ، ولكنه دالية » .

وهكذا ، عبر سلسلة من المحاورات المتقطعة وذات المضمون غير المتلاحم ، تصف الرواية جملة التحولات الجذرية التي تطرأ على المخيمات وعلى الشعب الفلسطيني إثر نشوء حركة التحرر الوطني . إن « أم سعد » ، إذن ، ليست رواية لأنها لا تعدو كونها تعاقباً للوحات متفاصلة تتعامل مع التبدلات الواسعة والعميقة الطارئة على الواقع . وفضلا عن ذلك فانها تعرض للتبدلات بنهاجية مسطحة خالية من الثراء النفساني ومن كل أشكال نفاذ البصيرة .

ولما كان النسيج مفككاً كان بوسعنا أن نحذف من جسد الرواية ما نشاء وأن نضيف اليها ما نشاء (مما هو في موضوعها) دون أن نشعر بأي فرق جذري ، الأمر الذي يعني أنها

واهية البنية وغير متلاحمة العناصر . وفضلا عن ذلك ، فان وصف التغيرات الطارئة على الشخصية الفلسطينية لا يأخذ بالحسبان البعد النفسي لهذه الشخصية . وأهم ما نراه من هذه الزاوية هو ارادة الاستمرار والصمود التي أخذ الجيل الجديد من الشباب الفلسطينيين يتحلى بها. فبينما يحاول مختار المخيم (وهو يمثل الجيل الأول من الفلسطينيين ، ذلك الجيل المهزوم الذي ترسخت فيه هوية الهزيمة ، والذي أدانه غسان في « رجال في الشمس ») أن يقنع سعد ورفاقه بالتخلي عن محاولاتهم النضالية ، فاننا نجد سعداً مصمماً على المضي حتى لو كلفه ذلك حياته . ومن اللقطات النفسية البارزة ، التي تحاول أن تولج في الرواية نبضاً صميماً يمتن نسيجها ، تواجه تلك التي البرهة يرى سعد خلالها أمه أنى يتجه . هذه الأم رمز للأرض ، تماماً كما كانت الأرض رمزاً للأم في « ما تبقى لكم » . ولعل ما يريده غسان – فنياً – من خلال هذه اللقطة الروائية هو أن العلاقة بين المقاتل والأرض علاقة حميمة أشبه بتلك التي تقوم بين الطفل وأمه . إنها تمنحه العون دوماً .

ولكن هذين الموقفين الصغيرين لا يستطيعان نشر الحيوية والدفق الايقاعي على مجمل الرواية ، مما يعني أن « أم سعد » تظل مجرومة من استخراج وقشر الحياة الباطنية التي هي النبض الصميمي الذي يرافق كل عمل فني ليصنع منه فناً . وليس هذا وحده ما يحرمها من كونها رواية. إذ على الرغم من أنها تتعامل مع الواقع في شموليته – وهذا هو موضوع العمل الروائي والفرق بينه وبين الأقصوصة التي تتعامل مع قطعة صغيرة مجتزأة من الواقع – فانها لا يمكن أن تعد رواية على الاطلاق ، لأنها لا ينظمها قانون الضرورة الذي لا تقوم الرواية بدونه . كل رواية تبدأ من نقطة وتتطور تطوراً ضرورياً وحتمياً لتبلغ نهاية تختلف كلياً عن نقطة البداية، أي أنها تسير سيراً أفقياً . والرواية الأصيلة تجيب دوماً عن سؤال كبير : لماذا حدث ذلك . « رجال في الشمس » تجيب عن علة حدوث الكارثة ، فتقول إنها العطالة ، و « ما تبقى لكم » تجيب عن أسباب اتجاه حامد نحو المصادمة ، فتقول انه حس الدنس الخانق . أما « أم سعد » فلا تخبرنا شيئاً عن علل التحولات العميقة الآخذة بالترسخ في المجتمعات الفلسطينية ، بل هي تكتفي بتقديم جملة من التقارير المتفاصلة عن هذه التحولات ، وهي تقارير سردية وصفية تتصف بالسطحية . ومثل هذه الحال تنكر ما فحواه أن كل رواية هي قبل كل شيء سلسلة أحداث عضوية الترابط تتطور الشخصيات فيها وبها في آن معاً . ان تطور أبي سعد لا ينتشر فوق الرواية كلها ، بل هو يأتي في نهاية المطاف ، فكأنما هو موجود ليؤكد أن الثورة قد ربطت جميع الناس بعجلتها . لقد كان بوسع غسان أن يتخذ من أبي سعد بطلا أساسياً للرواية يبدأ به لا متنمياً وينتهي به مناضلا ، مبيناً خلال ذلك التراكمات النفسية للتحول الطارىء على

شخصيته . ولو انه فعل ذلك لقدم رواية تخضع لانضباط الضرورة فتحقق التلاحم البنيائي مثلما تحقق سعة الشخصيات وعمقها .

وبايجاز ، ثمة ثلاثة عوامل حرمت – بنيابها – رواية « أم سعد » من أن تكون رواية ، على الرغم من تعاملها الشمولي مع الواقع . وهذه العوامل الثلاثة هي ضحالة الحياة الباطنية التي تجعل للشخصية ثقلا مادياً كثيفاً ، وعدم خضوع الحبكة (هذا اذا قبلنا أن لها حبكة) لقانون التطور الضروري المتراص المساو ، وأخيراً تراخي الصراع الذي من شأنه أن يحيل الأحداث والشخصيات إلى تجسيدات هلامية مهوشة وغير مكتملة الحضور .

ولكننا ، مع ذلك كله ، نلاحظ أن شخصية أم سعد نفسها صورة فنية رائعة للانسان الفلسطيني المتفائل في أواخر الستينات . وربما كانت هذه الشخصية هي الايجابية الأساسية للرواية .

※ « عائد الى حيفا »

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

تظل فكرة الادانة مسيطرة على عقل غسان ، وهي فكرة ذات علاقة وثيقة بعقدة الذنب . وبوسعي القول ان هذه العقدة هي ما يؤسس العلاقة التحتانية لرواية « عائد إلى حيفا » ، وأنه لا يمكن أن توجد هذه العقدة الا وهي في حالة تضايف مع فكرة الادانة ومع الشعور بالتقصير . ولكي تدلل على أن عقدة الذنب هي القلق المركزي للرواية ، يكفي أن نقتبس منها هذا المقطع الطويل . يقول دوف في حواره مع سعيد (ص ٤٠٦) :

« كان عليكم الا تخرجوا من حيفا . وإذا لم يكن ذلك ممكناً فقد كان عليكم بأي ثمن الا تتركوا طفلا رضيعاً في السرير . وإذا كان هذا أيضاً مستحيلا فقد كان عليكم الا تكفوا عن محاولة العودة ... اتقولون إن ذلك أيضاً كان مستحيلا ؟ لقد مضت عشرون سنة ، ياسيدي ، عشرون سنة ! ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك ؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من أجل هذا . أيوجد سبب أكثر قوة ؟ عاجزون ! عاجزون ! مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلف والشلل ! لا تقل لي انكم أمضيتم عشرين سنة تبكون ! الدموع لا تسترد المفقودين ولا الضائعين ، ولا تجترح المعجزات ! كل دموع الأرض لا تستطيع أن تحمل زورقاً صغيراً يتسع لأبوين يبحثان عن طفلهما المفقود .. ولقد أمضيت عشرين سنة تبكي ...أهذا ما تقوله لي الآن ؟ أهذا هو سلاحك التافه المفلول ؟ » الحقيقة أن هذا هو صوت ضمير غسان

نفسه ، تبكيته الذي يعيشه بعمق . إن غسان يخاطب نفسه ويدينها ، ويخاطب الفلسطيني ويدينه . ولهذا لم يكن صدفة أن يصاب سعيد (رمز الفلسطيني في الرواية) « بدوار مفاجىء يعصف به » فور سماعه لحكم الادانة يلفظه التاريخ في وجهه ، أو يلفظه هو في وجه نفسه . في ميسورنا الذهاب إلى أن المحرك الحقيقي ، والمؤسس الفعلي (البنية المترمنة) لروايات غسان كنفاني هو عقدة الذنب ، أي شعور الفلسطيني بقصوره إزاء واقعه التاريخي .

إن ماضي الإنسان الفلسطيني هو عقدته . « وفجأة جاء الماضي ، حاداً مثل سكين » (ص ٣٤٦) . ولكي يتجاوز الماضي ، لكي يتخطى السقطة ، لم يعد أمامه سوى أن يلتحق ابنه خالد بالفدائيين . فاذا كان دوف رمزاً للماضي الفلسطيني المهزوم وسبباً للعقدة الثقيلة ، فان خالد هو رمز المستقبل وخطة تجاوز العقدة . يقول سعيد « ان دوف هو عارنا ، ولكن خالد هو شرفنا الباقي » (ص ٤١٢) . وربما كان غسان واعياً لاختيار اسمي الولدين ، وربما فعل ذلك عفوياً . ان خلدون (أو دوف) هو التشويه العامي لاسم خالد ، أما خالد فهو « الباقي » أو المستمر ،والمستمرهو المستقبل لاالماضي المشوه .فحو المستقبل الماضيهوجوهرهذاالعمل الفني الذي يحمل عنوان « عائد إلى حيفا » . أما الفكرة التي يبسطها حوار سعيد مع دوف ، والرامية إلى أن الإنسان هو القضية ، وهي التي تمحورت حولها كل النقود التي وجهت إلى هذه القصة ، فليست أكثر من فكرة ثانوية لاتقع في نواة هذا العمل . والحقيقة أن عقدة الذنب وفكرة الادانة لاتقتصر على لحظة واحدة في الرواية ، فنحن إذا ما تتبعناها منذ بدايتها وحتى ختامها بحثاً عن هذه العقدة لوجدناها في كل صفحة تقريباً . فليس صدفة أن يأتي آخر سطر في الرواية على هذا النحو : « أرجو أن يكون خالد قد ذهب أثناء غيابنا ! » إن سعيد مضطر إلى أن يقبل بالتحاق ابنه بالفدائيين ، لأن ذلك الالتحاق وحده هو الكفيل بتخليصه من عقدة الذنب . وعلى ضوء هذا السطر الأخير تنار القصة كلها ويتضح أن الاندفاع نحو مستقبل نظيف هو غاية العمل برمته . والحقيقة أن قبول سعيد بالمشروع الذي أزمع ابنه خالد أن ينفذه هو الضرورة الوحيدة التي تحكم الرواية . فسعيد يبدأ رافضاً للاجراء التاريخي الذي سينفذه الابن . والتناقض الكبير الذي يقفز أمامنا هنا هو أن سعيد متأكد منذ الانطلاق من ادانته ومتحسس لذنبه ، فلماذا يقبل التحاق ابنه بالفدائيين ؟ ان حوارهمع دوف لم يأته بجديد،فما سرهذا التطور الذي طرأ على شخصيته فجعله يقبل باقدام خالد على تنفيذ مشروعه ؟ لعل هذه هي احدى النقاط التي تلغي ضرورة التطور ، وبذلك تلحق شرخاً عميقاً في معمار القصة .

والأهم من ذلك كله أن « عائد إلى حيفا » تعتمد على الحوار أكثر مما تعتمد على الحدث .

وهو حوار يستهدف بسط أفكار بالدرجة الأولى ، ويستهدف أن يعرض حالة داخلية تفتقر إلى العمق . وفضلا عن ذلك ، فان هذا العمل يتناول الواقع مجزءاً ، أي أنه تنقصه الشمولية التي هي شرط أساسي لكل عمل روائي . ولما كان البحث في جزئية من جزئيات الواقع هو ميدان القصة القصيرة فان « عائد إلى حيفا » ليست رواية وانما هي أقصوصة مطولة بعض الشيء .

※ المجزوآت :

خلف غسان ثلاثة مجزوآت هي بمثابة بدايات لروايات ربما كان سيتاح لها أن تصبح أعمالا فنية جبارة . ولا بأس في القاء نظرة عليها الواحدة إثر الأخرى .

العاشق :

تقول لجنة التخليد في مقدمتها للمجزوآت الثلاثة (ص ٤١٥) : « قد تكون هذه القصة هي الملحمة التي كانت دوماً في ضمير غسان لتأريخ الثورة الفلسطينية ، منذ مطالع القرن وعبر السنين اللاحقة ، والتي استمع من أجلها إلى عشرات القصص من أفواه أبطالها » . والحقيقة أنه في امكان كل من يرجع هذا الرأي أن يرى البذور الملحمية في شخصية بطل هذا المجزوء . فقاسم ، أو العاشق « نوع من الرجال ينبت فجأة أمامك ، فاذا بك غير قادر على نسيانه ، وبدل أن يتجه مثل كل الناس إلى الأشياء تتجه اليه الأشياء من تلقائها » . (ص٤٣٠) إنه ، إذن ، ينبثق انبثاقاً أشبه بظهور أحد أبناء الآلهة . وهو رجل يتمتع بصفات استثنائية جعلت الشيخ سلمان يشبهه بحصان فتي . وما هو بعاشق الا بسبب من العلاقة الحميمة التي تقوم بينه وبين الفرس « سمرا » . انه مغرم بالخيل ، يفهمها وتفهمه ، ويرتبط بها ارتباط الفارس بجواده . والحقيقة أن حب الخيل غالباً ما يسمع وهو يدق فوق صفحات هذا المجزوء .

ومع ذلك كله ، فان هذا البطل — شأنه شأن معظم أبطال غسان — مصاب بعقدة الذنب ، مع أن ذنبه ناجم عن جريمة قتل لا عن شعور بالتقصير ، كما هو حال حامد وسعيد . ففي السجن ، بعدما ألقت شرطة الاحتلال القبض عليه ، تسمعه يحدث نفسه قائلا : « كانت الجريمة في ذاتها عقاباً ، كان الاختباء عقاباً ، كان الانتقال من عبد الكريم إلى قاسم عقاباً ، كانت صهوات الخيل في تلك الليالي الجليدية التي لا تنتهي ولا تبدأ عقاباً ، كان الرعب عقاباً ، كان الصمت عقاباً ، كان المسير على النار عقاباً ، وهذا هو نهاية المطاف » ، (ص ٤٣٦) وهو يعتقد أن الهارب من العقاب ينال عقابه أثناء هروبه بطريقة من الطرق ، أي بالهروب نفسه .

انه الفلسطيني الذي عاقبته الحياة بالتشرد، عاقبته على انسحابه من ساحة المعركة . ولنلاحظ كيف تسيطر مقولة العقاب على هذا المقبوس الصغير ، بل على المجزوء كله . إن غسان تنهشه عقدة الذنب نهشاً . فكأنما « العاشق » لاتريد أن تقول سوى شيء واحد : ما من جريمة بلاعقاب .

إلا أن بطل غسان هذا كان ، على ما يبدو ، سينمو ويتطور باتجاه بطل ملحمي وطني ، منتقلا من مجرم قاتل إلى مناضل أصيل ، لأن قاسم أصبح الانجليز (وخاصة الكابتن بلاك) أعداءه الشخصيين . وفي ظننا أن تحوله إلى مناضل حقيقي يرتكز على أساس نفساني فحواه أن غسان يتجه من عقدة الذنب إلى تجاوز العقدة . وهذه الحركة هي ، في رأينا ، البنية التي تتواتر في كل من روايتيه ، « ماتبقى لكم » و « عائد إلى حيفا » . إن حامد يتجاوز عقدة الذنب بالتوجه نحو الأرض ، بالاقدام على عبور الأرض التي لم يعبرها أحد منذ ستة عشر عاماً ، وسعيد يتخطى عقدة الذنب بالسماح لابنه خالد بالالتحاق بالفدائيين . وهذا يعني أن خالد (المستقبل) هو الذي سيمسح دوف (الماضي) ، أي هو الذي سيحل عقدة الذنب . وربما كان العاشق سيحل عقدة ذنبه بيده ، وذلك من خلال انتقاله من مجرم إلى بطل وطني .

بوسعي التوكيد على ما فحواه أن المحتوى النفساني الأعمق لمعظم الأدب الفلسطيني الموضوع ، بما في ذلك الشعر ، هو عقدة الذنب . وعلة هذه الظاهرة أن تلك العقدة هي ما يملأ البنيان النفساني للانسان العربي الفلسطيني . ولسوف يظل النقد الأدبي المتعامل مع نصوص فلسطينية الموضوع مقصراً عن أغراضه ، وعاجزاً عن فهم هذه النصوص ، وبالتالي عن تقييمها تقييماً جمالياً مصيباً ، ما لم يستطع هذا النقد أن يكشف عن أبعاد هذه العقدة في الأدب ، وعن الكيفية التي قامت هذه العقدة وفقاً لها بصياغة المبدعات الفنية .

وفي ظني أن من الممكن إتمام هذا المجزوء العظيم والوصول إلى ملحمة عربية تراجيدية . ويمكن لمن ينوي البلوغ إلى هذه الملحمة أن يطور البطل في السجن بحيث يجعله يفهم تماماً أن المسؤول عن تحوله إلى مجرم يعيش عقدة الذنب بكل مشاعره هو الاستعمار الانجليزي . ولكي يكفر عن آثامه تجاه الشعب ، أو الأشخاص الذين قتلهم ، يأخذ على نفسه عهداً أن يكرس حياته ثائراً على الانجليز . فيحدث ثغرة في جدار السجن ويخرج لينضم إلى الثورة المتأججة خلال النصف الثاني من الثلاثينات . وحين تنتهي الثورة يهرب قاسم إلى بلد عربي ما ليظل مختفياً حتى عام النكبة حيث يظهر من جديد ليقاتل ويستشهد . ويأتي استشهاده واستشهاد قسم كبير من رفاقه والهزيمة العسكرية التي تمنى بها الجماعة التي يقودها ، كل هذا يأتي كنهاية تراجيدية فاجعة تمثل نضال وكارثة فلسطين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والحقيقة أن هذه الرواية لو أتيح لها أن تكتمل لكانت مفخرة الرواية العربية والمأثرة الأساسية لغسان كنفاني ، وذلك بسبب من احتدام الصراعين الداخلي والخارجي فيها ، وبسبب من قدرة الكاتب الفائقة على رسم الأبعاد النفسية للبطل ، وعلى تقديمه من حيث هو كائن حي نابض بدفق الحضور . ففي ظني أن العاشق ، أو قاسم – لو أتيح لروايته الاكتمال – سيكون واحداً من الأسماء الكبيرة في عالم الرواية ، وقد يذكر بأسماء من أمثال راسكولنكوف ، بطل « الجريمة والعقاب » الذي يحمل العاشق بعض حالاته النفسية ، أعني عقدة الذنب ، وتوم جود بطل « عناقيد الغضب » ، أو ربما سيذكر بأبطال « الحرب والسلام » و « لمن يقرع الجرس ؟ » . والحق أن هذه الشخصية لم يخلقها غسان من محض خياله ، بل هي قائمة في لا شعوره ، تأسست هناك من خلال معايشته للوقائع وأصافه الذكي لأخبارها . ودليلنا على ذلك أننا حين نقرأ الرواية المجزوءة نشعر أن هذه الشخصية تتكشف لنا – وبالتالي لغسان – تكشفاً تدريجياً ، مما يعني أن الكاتب كان لا يدركها إلا أثناء صوغه لها .

⁂ الاعمى والاطرش :

أحسبني لا أجافي الحقيقة إذا ما ذهبت إلى أن هذا المجزوء أشبه بكابوس لا يمكن لكاتب أن يستمر في كتابته دون تغيير جذري يطرأ على الأسلوب والنهاجية والشكل معاً . والحقيقة أن غسان نفسه قد اضطر إلى إجراء هذا التغيير في الفصول الأخيرة منه . فمنذ الفصلين الأول والثاني نشعر أن البطلين ليسا مجرد كائنين بشريين ، بل هما أشبه بتجسيد الرغبة في مطاردة مالا يمكن الوصول اليه . هذا فضلا عن أنهما يعكسان حس التمزق بكامل ضغوطه وأثقاله ، وأخصهما الأطرش الذي تتواتر على لسانه دوماً عبارة « عيشة النكد » التي لا يدري كيف تسلقت إلى شفتيه . وهو محق في ذلك ، بكل تأكيد . انه يعيش كابوساً طويلا يتجسد في أنه « أمام صف لا نهاية له من البشر » ، صف لا ينتهي أبداً . « لقد فقدت القدرة على التأكد من أن ما أراه ليس إلا تكراراً شهرياً لمشهد واحد عمره عشرون سنة . » (ص ٤٨١) .

الأهم من كل هذا أن غسان يملك في هذه الرواية لغة لم يسبق له على الإطلاق أن قدم مثلها ، بل ويندر أن نقع على قرينة لها في الرواية العربية . إنها أقرب إلى لغة الشعر التصويرية ، أو لغة الاستبار الباطني القادرة على إخراج الحياة الداخلية وتجسيمها في صور فنية . ونستطيع أن نأخذ فكرة عن صياغات الجمل وتكوين الفقرات في هذه الرواية إذا ما تأملنا المقبوسات التالية المقتطفة عشوائياً من بين ثناياها . هكذا يفتتح الفصل الثالث :

« إنني أمد لك يدي ، أيها الشيخ التقي الميت ، من قاع هذا الصمت (وقاع تلك العتمة) التي لا يسبر غورها ، يا حبيب الله ، المعاد إلى الأرض ثمرة متفجرة على الخشب . أخاطبك من وراء ظهر الحواس التي يخاطب بها الإنسان قدره المكتوب له . » (ص ٤٨٥) .

هذه لغة متضرمة تحاول أن تبسط شعوراً مبهماً حتى على البطل المتكلم ، وربما على غسان نفسه . فما هو « قاع هذا الصمت » و « قاع تلك العتمة » ؟ وكيف أعيد حبيب الله « إلى الأرض ثمرة متفجرة على الخشب » ؟ وكيف تكون المخاطبة « من وراء ظهر الحواس » ؟ أن هذا أشبه بالشعر الرمزي منه بلغة الرواية . أتحاول هذه اللغة أن تسبر حس التمزق والقلق ، هذا الحس العميق السحيق ، وأن تنشره على سطح الشعور ؟ وهل كان صدفة أن اختار غسان بطلا أصماً ليعبر عن الشعور بالصمت ؟ وهل المسألة مأساة صمت فيزيولوجي ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما معنى أن يلعب غسان لعبة لفظية في الصفحة نفسها ليقدم لفظة « الصمت » بحيث تتلوها لفظة تدل على الظلام موضوعة بين قوسين ؟ لا شك في أنه يدمج الأصم بالأعمى في هذه العملية . لقد أدرك غسان ، في مرحلة نضجه هذه ، أن الميدان الذي يعمل فيه الروائي هو الحياة الداخلية للأبطال . وهكذا ، ان الصمت والظلمة ليسا مؤشرين الى العمى والصمم اللذين يلحقان بالحواس ، بل هما صمم وعمى (أو لنقل : عماء) نفسانيين ، أعني أنهما تمزق وقلق ، وشعور بالتقصير يخلق التمزق والقلق . فنحن ، إذن ، ازاء لغة ملقحة بما يأتي ويتوافد من خلد ليس ثمة ما هو أقصى منه . وباختصار ، انها لغة « النفس الشعاع »(أي : المفتتة) ، كما قال شعراؤنا القدامى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهكذا يفتتح الفصل الخامس (ص ٥٠٣) :

« الحياة ، وايقاعها الرتيب الذي له صوت التقوض ، خطوات العبث تضرب في تيه مجنون الى أبدي وأبدك وآباد الآخرين . الصمت الذي له مذاق البئر المهجورة ، العقم الذي له صوت النواح . هذه الجسور التي لم توجد قط ، لم تبن قط ، بيني وبين العالم . إنني أنمو على الحائط الخارجي لهذا الكون ، أنمو مثل طحلب مقرف يشمئز من نفسه ويبحث دائماً عن الزاوية والظل . الصمت والعتم ، الصخب والضوء ، أي بديل لأي شيء ؟ الخسارة عدوي ، وكذلك الفجيعة ، وحين أفتقد الضوء يضحي الصوت عبثاً . حين أغطس في الصمت الأبدي تصبح العينان هماً ، ونحن إنما نتمدد تحت مطرقة العالم ، بإيقاعها الذي له صوت التقوض . ألا يمكن أن يكون التاريخ كله حلم طفل أحمق يعبث بألعاب أكثر تعدداً من أن تستطيع طاقته استيعابها ؟ » .

هذه ، بكل توكيد ، صور شعرية منثورة ، إذ هي مصوغة بلغة مجازية وجدانية البعد

أكثر مما هي مصوغة باللغة الوصفية أو التقريرية للرواية . وهي تعتمد في احداث تأثيراتها اعتماداً كبيراً على الاستعارة والترابط الإيمائي . ولذا لا يمكن الاستمرار فيها طويلا دون أن تفقد الرواية صفتها الروائية . فبينما تصلح هذه اللغة الإيحائية لرسم الذات والانفعالات الداخلية والتصورات اللاحسية ، فانها لا تصلح أبداً للسرد والحوار .

في مطلع الفصل التاسع يصف الأطرش حلماً « تتحرك فيه الجموع وتحطم باب المخزن ، وفجأة تمتلىء أذناي بأصوات ضجيج لا قبل لي باحتمالها » . (ص ٥٢٥) انه الكابوس الذي لا يطاق . والحقيقة أن غسان في هذا المجزوء الكثيف المادة يصدق عليه هو نفسه قول الأطرش : « إنني رجل آخذ منذ أيام أفقد صلتي بالواقع الذي عشته حتى الامتلاء كل عمري ، واني أغوص في عالم الأحلام والأوهام والرؤى العجيبة . » (ص ٥٤٢) فمثل هذه اللغة النابشة للداخل تكاد تشير إلى أن غسان نفسه يريد أن ينقطع عن الخارج ليبني عالم الداخل . انه حقاً يغوص وراء ظواهر الأشياء ليكتنه أغوارها ، ولكن مثل هذا الغوص ، مثل هذه الحالة الباطنية النابشة للمخبوآت ، لا يمكن أن يعيشها إلا إنسان مسكون بعوالم مهجورة آخذة بالاستيقاظ ، وبعوالم كابوسية آخذة بالتشكل . فالفصول العشرة الأولى من « الأعمى والأطرش » إن هي إلا قصيدة وليست رواية ، أو قل هي لوحات زيتية لبنيانات باطنية . فأسلوبها يشعرنا أنها تراوح في مكانها ولا تتقدم إلى الأمام . والشرود الذهني هو واحد من سمات لغتها وأخيلتها ، تماماً كأبطالها الذين يعيشون « وسط تلك الغابة الكثيفة من علامات الاستفهام » ، ويرزحون تحت حلم « يكاد يكون كابوساً يصاب به حارس ليلي جديد لمتحف قديم . » (ص ٥٤٣) .

وللتدليل على المراوحة في المكان والتثبت حول حالة بعينها ، حالة الكابوس ، يكفي أن نمعن النظر في مطلع الفصل الثاني عشر لنرى أن الكاتب – على الرغم من مرور بضع عشرات من الصفحات – ما زال يركز ذهنه حول مسألة العمى والحلك والظلام والصمت الذي سبق له أن طرحها ألف مرة في الصفحات السابقة . ولم يكن ليغيب عن بال غسان أن الرواية تراوح في مكانها وأن اللغة التي استخدمها إنما كان يتعمدها عن سابق إصرار . فالأبطال يبينون لكعجزهم عن إتيان أي فعل ، ومثل هذا العجز لا بد وأن يرافقه ركود في حركة القصة ، ولا بد أن يحتاج إلى أسلوب ركودي ، أو عمودي ، يعبر عنه . ومنذ الفصل الثالث عشر ، حين يدخل والد الغلام حمدان إلى قطاع الرواية كبطل نراه عياناً بعد ما كنا نسمع عنه في الفصول السابقة ولا نراه (وهو الفدائي الغائب الذي حضر بعد ما كان محجباً) ،

منذ ذلك الفصل تندفع الرواية إلى الأمام تماماً كما لو كانت مطوقة برقية انفكت عنها الآن . ان الشروط الواقعية قد جاءت بولي واقعي بدلا من الولي عبد العاطي الميت الذي لا يمكن أن يكون ذا نفع ، ولا يمكن أن يمثل في الرواية إلا مكافئاً خارجياً لحالة العطالة التي يتصف بها الأبطال .

وهنا تملك تفسير ألفاظ « الصمت والظلام » التي كثر تواترها في الفصول السابقة ، إنها الشعور الفلسطيني بالتقصير تجاه الوطن ، هذا الشعور الذي يركب في وجدان أبطال غسان مجموعة من العقد ، أهمها عقدة الذنب وعقدة الدونية الواضحتان في البطل الأعمى وزميله الأطرش . فالسؤال الذي يوجهه مصطفى الفدائي إلى الأطرش : « ماذا فعلت من أجل وطنك ؟ » (ص ٥٥٩) هو السؤال الذي يطرحه أبطال غسان ، على الدوام ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وهو لب عقدة الذنب التي يعيشونها . وهو سؤال يذكر بالدعوة التي وجهها سالم إلى حامد في « ما تبقى لكم » ، كما يذكر بسؤال أبي الخيزران الذي ينهي به « رجال في الشمس » .

غير أن كل ما في الجزء الذي بين أيدينا يشير إلى أن القصور المحيق بأرواح الأبطال مبعثه شروطهم الخارجية ، أي أن العيب يقع في خارجهم وليس في داخلهم . إن والد حمدان الذي تعلم كثيراً من تجربة السجن ، أصبح قادراً على التمييز بين نوعين من اطلاق الرصاص ، نوع يسميه « الطق طق » وهو ما لا يمكن أن يكون ذا جدوى ، ونوع يدعوه « السياسة » وهنا ، إذ تأخذ الرواية بالخبب كجواد جموح ، نراها تتقطع وتتوقف . إلى أين كان غسان سيصل فيما لو أتيح له إكمالها ، هذا ما لا أستطيع توقعه ، ولكنني متأكد من أنه كان سيعرض حالات من النضال الشاق والمرير كتغطية للشعور بالعجز والتقصير .

وهكذا نلاحظ أن خط سير هذه الرواية – كمعظم روايات غسان – ينتقل من العقدة إلى حلها . والشكل في كل مرحلة يوائم المعنى تماماً . فبينما كان يريد أن يصور الشلل والشعور بالقصور كان يمركز الرواية حول شكل عاكس لها تماماً ، وهو التمحور حول الأعمى والأطرش المقعدين والكتابة بلغة تصويرية مشحونة بالوجداني العميق . وحين انتقل إلى الفعل التاريخي وحل عقدة الذنب ، فقد تمحور الشكل حول الفدائي الذي يلعب وجوده دور التخفيف عن الشعور المضغوط .

بقيت مسألة العنوان . ففي ظني أن لجنة التخليد قد أطلقت على الرواية العنوان الذي لا يناسبها . وفي ظني أن الأفضل هو أن تعنون بالظلام والنور ، أو بانكسار الصمت ،

أو بالعتمة المحطمة ، لأن مثل هذه العناوين تناسب حركة الانتقال التاريخي للشعب الفلسطيني ، كما تناسب حركة انتقال الرواية من العقدة النفسية إلى حلها .

* برقوق نيسان :

الحقيقة أن هذا العمل الذي يعتقد أنه آخر ما كتبه غسان يمكن النظر إليه من حيث هو قطعة مكتملة ، أعني من حيث هو قصة قصيرة . وربما كان أهم ما يلاحظ فيه هو تلك الشروح الهامشية التي يقدمها الكاتب لتلعب دورين أساسيين في القصة : الأول أنها تضفي عليها شيئاً من الواقعية ، وتوهم بأنها حدثت فعلا ، وذلك بسبب ما تحتويه تلك التعليقات من تفاصيل لها طبيعة الحقيقة . والثاني أنها تضيء الحدث وتوضحه ، أي تكمل ما هو ناقص في متن الرواية . ولست أظن أن هذه القصة صالحة للاندماج في أي من المجزوئين السابقين ابتغاء التكامل بهما . ولكنها ، على أية حال ، تؤكد حقيقة أساسية فحواها أن غسان كان يتطور باتجاه رواية أبطالها يناضلون ولا يعيشون عقدة الذنب الناجمة عن الشعور بالتقصير . ان أبطال « برقوق نيسان » كلهم في مأزق ، ولكنهم مع ذلك يتحلون بروح شجاعة إلى أبعد الحدود . والأهم من ذلك كله أنهم بغير عقد اطلاقاً ، وبذلك يختلفون عن بقية أبطاله . والفرق الأساسي بينهم وبين أبطال روايته الأولى ، « رجال في الشمس » ، هو قدرتهم على الفعل التاريخي ، فهم يتقذون زياد من الوقوع في الكمين المنصوب على الرغم من أنهم داخل الكمين . البطل الكنفاني الآن لم يعد نعجة في مسلخ . فالشرك الذي وقع فيه الأبطال يذكر بالخزان الذي ولجه الرجال الثلاثة ليلقوا مصرعهم ، ولكنه يختلف عن ذلك الخزان في نقطة جوهرية مفادها أن البطل أصبح قادراً على أن يقرع الجدران ؛ أي أن يناضل ضمن اطار أقسى الشروط التاريخية . ولولا هذه القدرة على التحرك الفعال والإيجابي لانتهت « برقوق نيسان » بكارثة أشبه بتلك التي واجهها الرجال الثلاثة في الخزان .

* خاتمة

نملك الآن أن نؤكد حقيقة مفادها أن بنية واحدة تنظم معظم روايات غسان ، ومحتوى هذه البنية أن الرواية تسير من عقدة الذنب والشعور بالقصور نحو حل العقدة بالتضحية والمواجهة ، تماماً كما لو كان يمارس طقساً دينياً يقوم على افتداء الإنسان بالأضحية ،

وهو طقس ينطوي على التطهر بالدم الحيواني . بل ويمكننا أن نلاحظ ما فحواه أن خط سير غسان كله كان ينطلق من رواية تحمل مضمونها هو الإدانة والتقصير وعقدة الذنب (إذ روايته الأولى لا تحتوي إلا على ذلك بالدرجة الأولى) نحو رواية تحمل مضمونها هو التضحية كتطهر وتنظيف للنفس مما يضايقها . وفي هذا الاتجاه نلاحظ أن غسان لا يتعامل مع الجزئيات اليومية الدقيقة والصغيرة ، أي هو لا يصف تفاصيل الشروط المعيشية والواقعية ليبين مدى مسؤولية هذه الشروط عن بؤس أبطاله ، بل نراه يتعامل مع الوضع القائم مرفوعاً إلى آفاق التجريد ومأخوذاً كجمل . ويصدق هذا القول بشكل خاص على رواية « ما تبقى لكم » ، حيث نرى أن الكارثة في المنفى لا تتوقف عند كونها حادثة غيرت تاريخ شعب ، بل تتحول إلى سقطة فردية أيضاً ، أو تتحول إلى كارثة تصيب كل الأفراد بأعيانهم ، وتتجلى على هيئة وعي مصدوع ومهشم . إن سقوط مريم الشخصي هو من نتاج سقوط شعب ، أو من نتاج سقوط ياعلى حد تعبير الرواية . وبهذا تغدو الشخصية خاصة وعامة في آنمعاً ، أي هي نفسها تجسيد لتاريخ شعب ، أو نتاج لتاريخ شعب . ان أبطال غسان دوماً يعكسون الروح أثناء تطوره في التاريخ ، ويعبرون تعبيراً أميناً عن كل مرحلة من مراحل تاريخ الشعب . وفي خدمة هذا الترابط القائم بين العام والخاص ، والقائم كذلك فيما بين الشخصيات ، فقد جاءت التقنية في « ما تبقى لكم » محققة لتراكز أنسجة الحدث ، أي اعتماد معنى اللحظة الواحدة على معاني سواها من اللحظات بقدر ما يعتمد معنى سواها عليها . ويتوافق هذا التراكز مع بنَّاية الاسترجاع الخلفي (فلاش باك) الذي تتداعى المعاني بواسطته وتتآلف . وبهاتين الوسيلتين ، التراكز والاسترجاع ، يتحقق الانسياب المتدفق لتيار الشعور .

وتؤكد المجزوآت الثلاثة الأخيرة أن غسان كان يتطور باتجاه تعميق الرواية الفلسطينية الموضوع ، وذلك من خلال استحداث أشكال جديدة ، وكذلك من خلال تأسيس لغة روائية تتصف بقدرتها على حمل المعاني العميقة ، وبتماسها بقطاع اللغة الشعرية . يؤكد بعض كبار النقاد أن من بين العوامل التي اسهمت في تعظيم الروايات الكلاسيكية هو أن كل واحدة من تلك الروايات تعتمد في بسطها لمضامينها على أسلوبين في آن معاً . أحدهما وصفي أو تقريري ، وثانيهما شاعري أو خيالي . والحقيقة أن روايات غسان كانت ستتجه نحو هذا الوضع لو انه لم تتخطفه يد المنون .

وربما كان المجزوء الذي يحمل عنوان « العاشق » هو العمل الذي كان سيقدر له أن يغدو أعظم رواية عربية على الاطلاق . وما ذلك لأنه كان سيتطور باتجاه ملحمة تراجيدية فحسب ،

بل لأن غسان قد امتلك فيه القدرة على الصوغ العميق للشخصيات . فهو يوفر للبطل من الفرص ما يجعل منه اسماً عظيماً . وأهم ما نلاحظه هو أن الكاتب يقوم ببسط المضمون الذاتي للشخصية عبر الحدث أكثر مما يقوم ببسطه عبر الحوار أو عبر تدخلات المؤلف . وهذه خطوة جبارة قام بها غسان ، لأنها تأخذ بالحسبان أن الفعل هو اخراج الوعي على هيئة موضوع . أضف إلى ذلك أن ما يطغى على الشخصية هو الصراع مع الواقع . وعلى الرغم من وجود صراع مع الذات، وهو ضرورة ماسة لكل رواية عظيمة ، فان النوع الأول من الصراع أكثر هيمنة . وفي ظني أن هذا مبدأ أساسي في الروايات القادرة على اجتذاب القارىء . وقد استطاعت رواية «العاشق» أن تؤسس المبررات الموضوعية لكل حالة من حالات الذات ، ولكل صراع مع الذات . بل ويبدو أن هذه الحالات والصراعات الداخلية ستلعب دوراً هاماً في تطوير الشخصية .

وفي قلب موضوعة كل رواية من روايات غسان يكمن العنصر الاجتماعي أو التاريخي . وهذا يعني أن الكاتب يعمد دوماً ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إلى تبيان السبب الذي من أجله تقدم الشخصيات على الفعل أو تحجم عنه . والحقيقة أن تفاعلنا مع شخصياته يتوقف على القدر الذي تعكس به انسان البيئة ، وعلى القدر الذي تتفاعل به مع هذه البيئة . وبذلك تواظب رواياته على سبر الواقع وارتياد مجاهله واكتشاف ما استتر منه ، أو تعميق استيعاب ما هو مكتشف بحيث يغدو أشد نصوعاً من ذي قبل . فنحن نلاحظ أن « الأعمى والأطرش » ، التي لاتكشف عن جديد في الواقع الفلسطيني ، تستطيع أن ترسخ فينا وعي القهر والشعور بالتمزق وأن تعمق وتوسع مثل هذه الحال الداخلية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالرواية الكنفانية تبرز الظاهرة المراد دراستها بحيث يأتي حضورها امتلاء كاملا يضغط على حواس القارىء ضغطاً يشعره بوجود الظاهرة الحقيقية أو الواقعية الكامنة وراء الحدث الروائي . فالتعامل مع العلاقات والحالات الأكثر سواداً في الواقع الفلسطيني هو الذي يمكن روايات غسان من حيازة الضواغط التي تشد على خناق القارىء بحيث لا يمكنه الا أن يحس بالموضوع المدروس . وكيما يتيح لنا غسان الفرصة النظر في نفسية الشخصية وجس أمراضها، فقد هيأ لنا الفرصة عبر مرايا حوارية وحدثية ووصفية تطلع علينا الشخصيات من خلالها وهي تحمل بعض القسمات الواضحة والكثير من القسمات الالماعية المتروكة لتحليل القارىء . ولقد عرضت هذه المرايا على هيئة مواقف ضمن سياق النص بحيث لم تخل باتساقه المتناغم وتساوقه شطر الغاية المصممة .

إن بطلا معيناً يعد متكامل الأبعاد وعميق الشخصية بمقدار ما يعكس الخصائص العامة لواقع معين . كما أن رواية ما تعد ناجحة بمقدار ما تعكس تصورات الأفراد لمجمل معاشهم . والحقيقة أن قدرة أبطال غسان على حمل السمات النفسية للواقع الفلسطيني ، أو للإنسان العربي الفلسطيني المهزوم ، ومن ثم الناهض ، وكذلك قدرة رواياته على استيعاب جملة الخصائص الموضوعية لهذا الواقع نفسه ، ان هاتين القدرتين هما العاملان الحاسمان في جعل رواياته أعمالا فنية جبارة .

وفي ظني أن غسان العظيم كان سيغدو اسماً عالمياً لامعاً ، اسماً يتخطى جدار الوطن العربي ليغدو جزءاً من ثقافة الإنسانية ، لو لم تتلقفه أيدي الاغتيال وهو في المرحلة الأولى من مراحل نضجه .

نيسان ١٩٧٦

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صدر حديثاً

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

مشاركة المرأة في الحياة العامة

في سورية

منذ الاستقلال ١٩٤٥ وحتى ١٩٧٥

نبيلة الرزاز

بعض الملاحظات حول قصة من ألف ليلة وليلة

عجيب وغريب *

أندريه ميكيل
ترجمة بكري علاء الدين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تشغل قصة عجيب وغريب الصفحات (١٣٦ إلى ٢١٢) من الجزء الثالث لطبعة شرقية كلاسيكية (بولاق ، ١٢٧٩ هـ – ١٨٦٢ م) ، وبشكل أدق ، من النسخة المصرية في الأساس ، والتي يعزو إليها ماكدونالد (١) نوعاً من قيمة النسخة الشرعية لألف ليلة ليلة . ولقد قادنا تفكيرنا ، وهو جزء من تساؤل عن العجيب الذي تثيره الأسماء المؤلفة للقصة ، إلى وضع بحث (٢) نود هنا رسم بعض خطوطه الأساسية .

الحكاية المروية ، في قديم الزمان ، عن فتح ابن ملك عربي لبلاد فارس والهند ، كان قد آمن في صباه على يد أحد الزهاد ودخل في « ملة ابراهيم » . ولد غريب في الغربة أثناء الهروب الذي فرضه عليه حقد أخيه غير الشقيق الملك عجيب ، وسوف يغزوه غريب ليحل

* أندريه ميكيل ، مجلة الدراسات العربية والاسلامية ، جامعة السوربون الجديدة – باريس ٣ . العدد الأول . جانفي (كانون ٢) ١٩٧٦ .

محله في الملك ، يؤازره في ذلك أعوان من الانس والجن . وانتهى به الأمر أن أصبح في الكوفة « ملك العرب » ولسوف يلحق بملكه هذا تاج سابور « ملك الفرس والترك والديلم » .

انطلقت الخطوة الثانية والتي لاتبيح الدخول في لعبة الافتراضات المسبقة من المعطيات العيانية المباشرة لنوعية تحركات الشخصيات . ولقد انكرنا الخارطة الأولى التي تزعم تسجيل هذه التحركات على الأرض المعروفة في أيامنا هذه ، وذلك لكونها غير متطابقة مع الواقع في الحالة التي تأخذ فيها دور الخارطة الوحيدة المقبولة والتي نجهلها نحن لأنها موجودة في ذهن الراوي . ولهذا فقد اقتصرنا على دراسة الأنماط الكمية والكيفية لتحركات الشخصيات . وخولتنا هذه الدراسة التوصل إلى ثلاثة استنتاجات عامة .

بدا لنا اثر اختيارنا لتحركات الشخصيات حسب ظهورها على المسرح بأنها تستجيب لعدد معين من الأنماط ، مؤلف من سبعة أنواع ، وان بعض الشخصات يلعب دور أحد هذه الأنماط كاملا ، وعلى العكس فإن البعض الآخر يؤلف فيما بينها حسب تنويعات مختلفة . بيد أن الأمر الجلي هو أن غريباً يمثل الشخصية الوحيدة التي كانت تضطلع بكافة الأنماط ، لذا فهو يتمتع داخل القصة بمقام خاص : لما كان غريب من أكثر الشخصيات أسفاراً في البلاد الحقيقية أو الاسطورية وفي العناصر الأربعة بين الأرض والسماء وحتى العرش الآفي وفي الممالك الأربع ، فإن قراءة تحركاته تطلعنا على أنه المشار اليه بوصفه إنساناً مخصوصاً بالفضل وأنه قطب هذه القصة وبالتالي بطلها . وفي مرتبة أدنى منه مباشرة ، ومن خلال الأسفار دائماً ، تعزو القصة رتبة قائد عام للأخ غير الشقيق الثاني لغريب واسمه سهيم بوصفه ممثلا لعالم الإنس ، كما تعزو إلى الجنيين الكيلجان والقورجان دور ممثلي عالم الكائنات الاسطورية .

ولقد أملت علينا الألقاب للتمييز بين العربي وغير العربي سلسلة أخرى من النتائج ويوزع المؤلف هذة الالقاب بحسب البلدان الواردة في القصة باعتبار نهر دجلة خط القوة الفاصل : الشط الشمالي للبلاد الأجنبية وعلى رأسها المدائن ، والشط الجنوبي للعرب من الكوفة وحتى الجزيرة العربية. وبالانطلاق من هذا المعطى فقد فكرنا في إنشاء انموذجية للشخصيات: دون الخضوع لأي افتراض مسبق أياً كان شأنه ، بل بحسب تأثير الأمكنة على الشخصيات التي تمر بها أو تقيم فيها من عربي وغير عربي . وعاودنا دراسة الأمكنة حسب علاقة مزدوجة : ليست هذه الأمكنة في الواقع نقاطاً معزولة ، بل هي نقاط داخل شبكة ، أنها « مصابة » بتأثير سمات البلاد المجاورة التي تجعلها على صلة بتحركات الشخصيات ؛ كما أن هذه الأمكنة قد اشبعت بروح الشخصيات ، عرب أو غير عرب ، بعد أن كانت قد طبعتها بطابعها (٣) .

ولقد غدت هذه الدراسة الثلاثية الموجهة كيفاً على أساس توزيع « النقاط » لترقيم سفر أو اقامة الشخصيات صعبة في التحليل الأخير بسبب التدليس غير المقصود للراوي : إنه صاحب الحكاية وعلينا أن نتقبلها كما هي ، بيد أنه أولا صاحب حضارة وخاضع لتراث ثقافي مرتبط بالقصة بشكل عام لايقبل الانفصال ، وثمة أمر واضح على أية حال : تسمح الدراسة الكمية لعلاقات البلاد – الشخصيات في هذا المستوى بالقراءة الواضحة للتعريب ، وذلك من خلال نسب متنوعة للأراضي المفتوحة ، وبالتالي انفتاح الأراضي العربية للمؤثرات الخارجية : وذلك مجمل تاريخ الفتح ونتائجه .

الاعتبار الثالث والأخير حول موضوع المعطيات المتعلقة بالمكان : ابتداء من البطل وحتى أكثر الشخصيات ضعفاً فإن سلسلة من التحركات الحرمية تفرض نفسها على الذهن . وكلما كان تخطيط هذه التحركات متنوعاً وكثيفاً وملحاً ، ازددنا وثوقاً من صداقة البطل ومن الفوز ، وبالعكس فإن الموت والجفاء مرتبطان بالتحركات المختصرة . ويحتفظ في أعلى هرم التدرجات بالصيغ المعقدة لهذه التحركات من أجل الشخصيات المنتصرة ، وهي شخصيات مساعدة للبطل ؛ إنهم من الإنس (وليس من الجن) كما أنهم عرب .

فأسست دراسة الزمان على هذا التمييز الواضح : لو أهملنا الكلام عن الصيغ الأخرى الممكنة فإن ثمة زمانين في القصة : الزمان الذي سنسميه زمان العرض (وهو مرقم بـ« الليالي » ، أو أجزاء « ليلة » ضرورية للراوي ولشهرزاد لإنشاء هذه الحلقة أو تلك) ، والزمان الذي نطلق عليه اسم زمان المحتوى (وهو زمان يفصله الراوي داخل القصة ، مثال : وخرجوا إلى مدينة كذا في غضون ثلاثة أيام) .

والنتيجة الجامعة التي يعود إليها فحص الزمان توحد في الواقع بين الزمانين المذكورين وتضم المكان إليهما في حركة واحدة تسلك بنا إلى القلب بالذات من فن الراوي . والنزعة العامة التي يخرج عن نطاقها مرة واحدة(٤) هي الجمع بين المكان والزمان للمضمون ، ويأخذ هذا الزوج بدوره اتجاهاً معاكساً لزمان العرض ، وبتعبير آخر ، كلما اتسعت رقعة المكان (في الأماكن الاسطورية خاصة) ، تمدد زمان المحتوى (يعدده الراوي بالسنوات) ، وضاق بالتالي زمان العرض (ايقاع « الليالي » يزداد سرعة) . وعلى العكس من ذلك ، فكلما ضاق المكان (حول بلد ما ، وحول بلد معروف) انكمش زمان المحتوى (يعدده الراوي بالأيام) وتطاول زمان العرض (ايقاع « الليالي » ينخفض ، والحكاية تنتضد على عدة ليال متوالية) . وينتهي بنا المطاف في هذه الحالة الاخيرة إلى زمان من مستوى آخر : زمان « كثيف » وغني بالحوادث ، يتمم بمجموعة فعلية يسجلها تدخل الأرقام الملح (أيام أوساعات)

الذي يشدد على الناحية السردية ، وأخيراً فإن العدد في ذاته أقل أهمية من الالحاح على التعداد . وهكذا تسير بنا معالجة الزمان ، من الزمان المرقوم ومن الزمان المحض إلى الزمان المعاش ، من زمن الأحداث إلى الديمومة ومن الفعل إلى الدراما ؛ وهي كلها ظواهر محسوسة خاصة في هذا الزمان المصطبغ بأعلى أشكال الدرامية ألا وهو نهار (أو بقية اليوم) المعركة ، وهو مشهد أساسي في قصة هي حكاية في الحرب وفي اعتناق المغلوبين الدين الجديد .

ثم عكفنا على دراسة زماني العرض والمضمون كلا على حدة . وفيما يخص الزمان الأول فإننا نذكر باديء ذي بدء بأنه من عمل الراوي بالفعل ، بل إنه قبل كل شيء من عمل شهرزاد . والحقيقة أنه لايوجد زمنان للرواية ، بل زمان واحد أسقط من خلال القصة وفي آن واحد على حاضر الراوي وعلى الماضي الاسطوري لشهرزاد . اننا نقبل أن تكون « ليلة » الراوي وليلة شهرزاد نوعاً من السمر ولكن مع تحفظ أساسي : فبينما ينهي هذا السمر ، بالنسبة إلى عالم الراوي الحقيقي ، مشاغل النهار فإنه يفتتح المشاغل بالنسبة لشهرزاد التي توقظها أختها قبل بزوغ الفجر بقليل . فمن طريق الخيال وفي منتصف الليل الحقيقي يفتعل الراوي اسقاط « الصباح » أمام القراء وذلك لاختتام الليل ودفعهم إلى النوم ، ومع ذلك يبقى نفس « الصباح » حقيقياً في نسيج القصة ويختتم الليل مرتين : الليل الذي تعيشه شهرزاد فعلا و « ليل » القصة. تقودنا هذه البنية أثناء الحديث عن واقعية الصباح المذكور إلى الاحتفاء بالزمان المجاني المخيلة كما أنها تجعلنا ندرك هذا الصباح بوصفه لحظة ممتازة في القصة ومن خلال تكراره بالذات : ان حياة شهرزاد متعلقة به والمهم بالنسبة إليها لايتوقف فقط على مطابقة نهاية الليلة الزمانية مع« الليلة» المأخوذة كوحدة في تقسيم القصة . إن عليها كذلك أن تضبط الفجر مع مقطع من السرد على نحو تغدو به التتمة مرغوبة وأن تكون حياتها قد أنقذت . فالزمان هنا دارما روائية محضة وإن فكرة اطراحه لتزوي أمام الرهان المقترح على الملكة شهرزاد : تعليق الاهتمام (بوساطة صيغتي الاستفهام والتعجب) ، وهي إذا ما حققت هذا الهدف فإن عليها ألا تولد لدى السامع رغبة لسماع بقية الحكاية لدرجة تجعله يقرر ، بصرف النظر عن الضرورات التي يجلبها النهار ، انهاء الحكاية على الفور ... والقضاء على حياة شهرزاد .

من السهل أن نتخيل زمان العرض المتبلر حول هذه النقطة الحيوية من الرواية مرتبطاً بشكل شبه ضروري بصيغ العرض نفسها : نبرة الصوت والحركات والأوضاع والملامح التعبيرية لشهرزاد . كما أنه يسعنا أن نقوم بتوجيه نفس الملاحظة من خارج هذه اللحظة الممتازة : إن كل « ليلة » ، وبوسعنا أن نقرأ ذلك بوضوح منذ بداية المؤلف ، تعادل ساعة زمنية

تقريباً ؛ لذا فإن النص يتطلب بمقتضى طوله من ليلة إلى أخرى تنويعات ملموسة . علينا أن نتصور إذن بأن المعدل غير متساو بين الليالي ، فهو مسرع هنا ، مبطىء أو معلق هناك ، وأنه مرتبط بالتالي بلعبة شاملة من الأوضاع والحركات والصمت يقوم بها كل من شهرزاد والروائي : من هنا نرى بأن التعامل مع زمان العرض يفضي (من حيث الطريقة وليس من حيث النوع) إلى زمان المسرح .

بقي علينا معالجة زمان المحتوى . تحكي القصة كما أسلفنا فتح البلاد العربية وغير العربية لنشر ملة إبراهيم . ونقرأ فيها الدور الكبير الملقى على عاتق العرب ونطلع على مقاومة المجتمع العربي الجاهلي ومقاومة الحضارات الأجنبية وعلى رأسها فارس . بيد أن هذا التاريخ قد كان قائماً في زمان سابق على الزمن الذي تحققت فيه فعلياً : مدار الأمر حول ملة إبراهيم (وليس حول الإسلام) وحول المؤمنين (وليس حول المسلمين) . من هنا نرى بأن الإسلام مسجل بآن واحد ، في تاريخ سابق لظهوره ، كما أنه ، إذا ما نظر إليه من تاريخه المتقدم ، سقط على المستقبل الذي يأتيه من التاريخ ، التاريخ المتحقق كما هو معلوم لدينا . وحينما يتخذ الراوي من « الوجه » الأول للاسلام موضوعاً للقصة فإنه يصعد هذا الإسلام من حيث أن تعريفه الأساسي آت من خارج نطاق الزمان : فهو مقروء أبداً منذ الأزل السحيق بفضل القصة ، كما أنه مقروء في واقع الزمان المعاش بفضل التاريخ .

وتبرز هذه الاعتبارات بوجه خاص إذا ما أدخلنا نمطاً أخيراً من الزمان الذي يصبح عرضة للطعن عند اعتبار المنطق في مثل هذه الدراسة الشكلية المحضة ، بيد أن أهميته — في هذه القصة — تمنعنا من اغضاء الطرف عنه . مانقصده هنا هو الحديث عن زمن تأليف هذه القصة . بناء على العديد من القرائن فإننا نعتقد امكانية التأريخ لهذا الزمن عند حوالي القرن ٩ — ١٠ للميلاد ، أي حوالي الفترة التي كان العرب يرى فيها أنفسهم وقد فقدوا شيئاً فشيئاً المبادأة التاريخية على حساب الفرس وبانتظار الاتراك . قد يقال بأن ذلك كله ضئيل الأهمية ، لولا أن القصة تقترح كما نعلم على العرب المكتوفي الايدي تاريخهم المجيد بوصفه حقيقة خالدة ، كأنها تطرح نفسها كنوع من التعويض عن خسارة الامتياز في قيادة التاريخ ، من يدري ... لعلها خسارة عابرة ؟

بعد تنسيق الإطار المكاني والزماني فإنه يسعنا الالتفات إلى دراسة كل ما يؤلف سياق القصة : انه قائم على الحركة والشخصيات ، وقد نظر إلى الزمان والمكان كإطار ناتج دفعة واحدة عن هذه الحركة (Action) . وقد ثبت لدينا من دراسة «الدوال» (Fonctions)

بالمعنى الذي يعرفه بروب (Propp) أن القصة تتطابق ، من حيث الجوهر ، مع الترسيمة المستخلصة من القصص « العجائبية » ، وذلك يعني « انطلاق التطور من الحيطة أو من العجز ، مروراً بالدوال الوسيطة ، للوصول إلى الزواج أو إلى أية دوال معروضة على أنها خاتمة » . ومع ذلك فإن المهم أولا وأخيراً هو معرفة ما إذا كانت قصة عجيب وغريب تنفتق ، وسط الترسيمة المعطاة ، عن الإبداع .

البنية الأولى هي أن القصة بوصفها كلا مؤلفاً من عدة حلقات تتخطى بعيداً الامكانات العديدة التي ارتآها بروب : فالترصيع ، وتوزيع الدوال بحسب تسلسل الحلقات ، وتنويع التركيبات ، والالحاح على بعض الدوال لتؤلف من هذه القصة إذا ما قيست بترسيمة بروب صورة من صور الإبداع الأكيدة . ولئن اعتبرنا الحلقات بمثابة مراحل السرد فإنه سيتبين لنا أن هذه الحكاية تتحرك على سبعة وثلاثين مستوى ، هي عدد من « الحكايا » التي تؤلف الحكاية الشاملة . كما أن الإلحاح على دالة التنصيب الملكي ، والسفر والأوبة هو الحاح حاد في قصة المحاربين والملوك هذه ، وإن إضعاف دور « الأعوان » لصالح « البطل المريد » يبرز دور الملك الأعظم ، المزود منذ البداية برسالة إلهية كبطل لحكاية الخلاص .

ARCHIVE

ليست معالجة الأعداد بأقل أهمية ، كما سيتضح ، كما هو الأمر بالنسبة للتحركات السالفة الذكر ، منح دور فريد للبطل يقع على مفصل العالمين الإنساني والاسطوري . فالبطل إذن ، معزول حسب المستوى الهرمي ، بيد أنه على صلة بكافة شخصيات القصة إذا ما أخذ مكانه في صلب فاعليتها بالذات . وخير ما يمثل هذه الخصيصة المزدوجة هو ما يقدمه لنا النظام العائلي . ان لغريب أخوين غير شقيقين ، الأول لأبيه وهو عجيب والثاني لأمه واسمه سهيم . والشخص الوحيد القادر من بين هؤلاء الثلاثة على التمتع في آن واحد بالنسب الملكي (عن طريق الأب) المثبت من طريقين بواسطة اسمي العلم لأبيه وأمه هو غريب . أما بالنسبة لروابط القربى والسلوك في زواج البطل فهي تبرز شيمته العربية من خلال عروبة الزوجة المفضلة : الشوق إليها لايفارقه ، وهي ليست مرتبطة ، في القصة ، بوظيفة الانجاب ، كما أنها الأخت غير الشقيقة لأخيه غير الشقيق ، أي أنها تكاد تكون « محرماً » لولا أنه يتمتع بالإضافة إلى ما تقدم بوضع خاص .

ثمة نقطة أخرى ترسم المكانة الفريدة لغريب في وسط شبكة العلاقات : الميراث ، ذلك أن كلا من النظام العائلي والزواج يسمح بجمع الارث وزيادته أو استعادته . إلا أنه لايظهر إلا في وقت متأخر ليفرض داخل النظام الاجتماعي فتوحات وسلطاناً ، يدين بها البطل لنفسه

ولسجاياه ، كل ذلك بمشيئة العناية الإلهية . وتسوق المقارنة مع عجيب الحجة الدامغة : فغريب هو الابن الأصغر ، وأمه أمة ، وقد ولي خلافة أبيه الروحية ، وبالاضافة إلى محافظته على هذه الخلافة فإنه سيظفر بالحصول على الملك من عجيب أخيه الأكبر وابن المرأة الحرة : حتى لكأنه اسماعيل وقد انتصر انتصاراً ساحقاً على اسحاق في نهاية المطاف .

ومما تسهل ملاحظته في صور البطل البدنية والخلقية هو تلك العلاقة التي يباشرها الآخرون بشكل دائم والفروق الناتجة عنها باستمرار : إن كل واحدة من السمات الملائمة (الجمال والشباب والقوة بدنياً ، الحب والشجاعة والشرف أخلاقياً) مميزة وبارزة بالإضافة إلى هذه أو تلك من الشخصيات التي تقدم إما الصورة المنقوصة أو الصورة المعاكسة لها . فالقوة مثلا ، وهي تقبل الحساب كيفاً من جهة المآثر (زنة السلاح المستخدم ، قوة الضربات ، عدد الأعداء القتلى) تخولنا أن نرى في غريب كائناً برزخياً (وذلك مما يسهل توقعه) بين الأنس والجن ، كما أنه الوحيد الذي تمكن من الاستفادة من موهبته التي تلقاها من الطبيعة وأنه عرف على الأخص أن يحافظ على تصرفه بها .

طالما أن الأمر يدور حول الفعل (Action) — بالمعنى الأعم لهذا المصطلح — في هذه القصة ، وأنه متعلق بقصة مندرجة في المقولة التروية لـ « العجائبي » ، فإن من المناسب أن ندرس اسمي عجيب وغريب اللذين اعطي اسمهما للقصة ، تقول شهرزاد في النهاية : « هذا ما تعلمناه من حكاية غريب وعجيب » . سمي عجيب بهذا الأسم بسبب من ولادته المتأخرة وغير المنتظرة من أبيه الملك العجوز ، ولأنه على الأخص « حسن ولطيف » وغير ذلك من السمات التي دعت منذ البدء إلى جعله موضع الآمال . ويدين غريب باسمه إلى الغربة حيث كانت ولادته . إلا أن الأ لاقاً مزدوجاً يتم في مجرى القصة : فمن كلمة الغريب صار « غريب » غريباً وغير عادي وخارقاً للعادة . ومن اسم عجيب ، العجيب ، بالمعنى السلبي وهو الهائل والقبيح في مستوى الأخلاق . وتنتهي القصة بالتقابل بين رجل منقطع النظير تفسد شيمه ، وآخر متواضع تغدو شيمة عديمة المثال لاستغلالها وحسن التصرف بها . وفي نهاية الأمر ليس العجيب حالة قائمة برأسها ، إنه من صنع البشر .

ويمكن العثور على نفس النتائج من دراسة العلاقات بين الطبيعة و « الثقافة » أو بين الطبيعة وما فوق الطبيعة . وبوسعنا اختصار هذه الدراسة بهذه الكلمات : كون البطل قد تجاوز الطبيعة يعني أنه في التحليل الأخير ظل طبيعياً (إنساناً وليس جنياً) في نفس الوقت الذي استطاع به حسن التصرف بوسائل « الثقافة » (إسلام خاصة) ، بالإضافة إلى مقدرته على التصرف

ببعض وسائل الطبيعة (الرعد ، الصواعق الخ .) مما ليس في مقدور البشر عادة . وهي كذلك بشكل شامل حكاية إنسانية (ظفر العرب) ، وهو مروي علينا في حكاية اسطورية . ونجد فيها أن انموذج الإنسان (وليس الإنسان الأعلى) هو الانموذج المقترح والذي اتخذه الاسلام مثلا أعلى له : راض بمشيئة الله ، متمسك بالأخلاق وبالدين وسيد لنفسه ، ونتيجة لكل ذلك فهو سيد العالم . والعجيب أخيراً هو المعجزة التي يحققها غريب بفضل من الله لاخضاع قدره وقدر العالم له . وبمعنى آخر فإن سحر القصة يظل حياً في الوقت الذي تنتهي فيه : العجيب هو أن تكون هذه الحكاية قد حصلت .

ان دراسة القول بوصفه قولا قد انصبت بادىء ذي بدء على فحص « الأزمنة في النحو » . واعتماداً على التحليلات التي قام بها هـ . فاينريش (H. Weinrich) في كتابه (الزمان ترجمة م. لاكوست باريس ١٩٧٣) فقد لاحظنا بأن العربية ، من خلال استخدام الأفعال تخبط المقولات التي اكتشفها فاينريش : السرد / الشرح ، بالنسبة لوضع الصيغ . الإعلام المؤجل / الإعلام المعجل ، بالنسبة لمنظور الصيغ . الواجهة / الخلفية ، بالنسبة لعملية الإبراز . ولما كانت العربية تعزو إلى الفعل الماضي دوراً حاسماً ، دون الالتفات إلى توزيع « الأزمنة » التي درسها فاينريش ، فإنه يظهر بجلاء ولمجرد القراءة البسيطة لاحصاء استخدامه (حوالي ٨٠٪ من مجموع القصة) على أنه الزمن الأساسي ، ويصبح المضارع بالتحديد الزمن التابع : إنه تابع لاستخدام الأداة ، وتابع للماضي الذي يعرض الجملة زمنياً ، وتابع للقول (المباشر) داخل القول (العام) للقصة .

إن توزيع المقولات التي درسها فاينريش غير متطابق مع نفسه إلا في اللغات الأوروبية : ونسجل هنا الإلحاح المنهجي على الواجهة ، وبتعبير آخر عملية الإبراز المنهجية ، كما نسجل النفور من التمييز بين الشرح والسرد الذي يحول الحكاية الخام والحكاية المحكية ، عمداً وفي وقت واحد ، إلى حكاية مشروحة ومعاشة . كما نسجل استدعاء الحكاية بوصفها حقيقة ثابتة ، خارج الزمان وخالدة ، وصالحة كذلك لأن تنتسب إلى ماض معتبر من قبل التراث ومن خلال الرجوع إلى التاريخ . وهكذا فإننا نصل من خلال الحكاية الظافرة للعرب كما تعالجها القصة إلى حلم ملح من الخلود الأبدي .

أما فيما يتعلق بالأسلوب كأسلوب فلقد اطلعنا على ثلاثة مستويات من الإشارات والمضمون والنبرة . وقد كشفنا بخصوص اشارات القصة عن وجود علامات سميناها « حاكية » (Phatiques) (بمعنى يختلف قليلا عن المعنى الذي يتناول به جاكوبسون

الكلمة) : ونريد بذلك المصطلحات التي يضعف معناها الحصري في سبيل الدور الذي تضطلع به والذي يقتصر على تنبيهنا إلى أننا بصدد القصة . ويمكننا التمييز ، بحسب ترداد الاستخدام بين الإشارات الدورية، والإشارات المتناوبة ، أو الإشارات المتواترة . وهي تعمل جميعاً كاسناد لقصة خاصة ، لقصتنا ، وتأتي بعدها إشارات أعم هي إشارات قصة مستندة إلى النوع القصصي بالذات وليس إلى قصة خاصة .

ويدخلنا الإسهاب إلى مستوى آخر القصة غير متعلق بالمضمون في دوره واستخدامه بوصفه علامة للقصة ، بل ينصب على المضمون بالذات في مادته . ونريد بالإسهاب هنا طريقة في الأسلوب مؤسسة على التوسع حول النواة وذلك من خلال ثلاث صيغ ممكنة : بالتكرار الكامل للنواة أو بضم عناصر أخرى لهذه النواة لتشكل معها سلسلة متتابعة أو بانقسام النواة إلى عناصرها المؤلفة لها . والمشكلة التي تطرح نفسها هنا هي معرفة ما إذا كان ثمة تداخل ، عند اللزوم ، بين الإشارات والإسهاب . والواقع فإن الوظائف التي تؤديها كل من الطريقتين ليست من نفس المستوى : ان الاختلاف الذي يفرق بينهما ، فيما وراء تلاقيهما العرضي ، هو أن صيغة المعطى (التكرار) ضرورية بالنسبة للإشارة وممكنة بالنسبة للاسهاب ، وأن مادة المعطى (المعنى) ضرورية بالنسبة للاسهاب وممكنة بالنسبة للإشارة . إن مهمة الإشارة هي أن تدلنا (لا أكثر) على أننا بصدد قصة ، وبصدد هذه القصة ، ومهمة الإسهاب هي اطلاعنا على ما في هذه القصة .

تتيح النبرة وتنوعاتها تدخل مستويات ثلاثة متدرجة من الأكثر شيوعاً وحتى الأكثر ندرة هي مستويات الفن السردي والسجع والشعر . ولقد استدعى السجع بعض التفسيرات الخاصة : تجعل منه اللعبة التي يحققها بين الصوت والمعنى وبين الشكل والمضمون أداة ملائمة تماماً لاستخدامه ، وذلك بحسب كل من الحالتين ، إما في الإشارات أو في الإسهاب ، إلا أنه لا يقبل أن يكون مختزلا بصورة كاملة في هذه أو تلك من الطريقتين : أنه يطبعها بطابع خاص هو الصوت . أما بالنسبة إلى الشعر المحافظ على تقاليد الموضوع والشكل فإنه لا يقدم شيئاً جديداً للمضمون : على العكس ، فإنه امتداد لموضوع سابق وهو لا يقيم مع القصة إلا روابط واهية للغاية ، وفي الحقيقة فإن له وظيفة أخرى ، فهو حاضر بمثابة تفوق في جزالة اللغة وبمثابة شهادة على التراث الأدبي .

إن مجمل الخطوط المشار اليها بصدد هذه القصة تقودنا أخيراً إلى نتيجة ذات حدين متناقضين : تعمل القصة من حيث معالجة المكان والزمان ومن حيث تنظيم القول والفعل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بوصفها كلا معزولا وأصيلا . كل شيء من القصة واليها ، وهي أبداً مغلقة على نفسها . انها هدف ذاتها ، كما أنها مجانية وحرة من كل ضرورة خارجية ، وهي ليست عابثة إلا بذاتها وبذاتها لا غير ، وبوسعنا القول : إنها أدب المتعة الحقيقية . بيد أن على هذه السمات من جهة أخرى ، التي تمثل سمات نوع القصة « العجائبية » حسب معنى بروب ، الا تنسينا المدخول التاريخي والعاطفي الذي ارتسمت فيه حكاية غريب وعجيب ، وقد عدلت مجانيتها بشكل فريد بواسطة هذا المدخول وبواسطة الحوافز التي يثيرها عند الراوي . ليست هذه سوى بعض المسائل التي يمكن أن تأخذ بها دراسة صيرورة الليالي قصة بعد قصة ، وهي غير مقتصرة على المسائل الشكلية كما نرى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي

١ – في Journal of the royal Asiatic Society 1924, P. 353

٢ – تحت الطبع ، وتمتنع هذه الدراسة في هذا المستوى عن اصدار أية نتائج كلية على الليالي ، وأحرى بها أن تمتنع كذلك بالنسبة للنوع القصصي .

٣ – على سبيل المثال ، إن شخصية محددة على أنها عربية تماماً بالنظر إلى أسفارها أو اقاماتها العديدة في بلاد العرب تبعث هذه العروبة في البلد الفارسي الذي يصادف أنها قدمت لزيارته .

٤ – وذلك في أحد المفاصل الكبرى القصة ، ولأسباب فنية (الضرورة التي تدفع بالراوي وبشهرزاد إلى تدعيم الجانب الدوامي عن طريق قلب الاتجاه) لايسعنا الدخول في تفاصيلها هنا .

«فرويد» اليهودي
و«فرويد» الصهيوني

صفوان قدسي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في بعض مانقرأ باللغة العربية من كتابات حول الفكر الصهيوني ، المعاصر منه وغير المعاصر ، نضع يدنا على حقيقة ناصعة في وضوحها ، وهي أن ثمة لبساً في فهم جوانب عديدة من هذا الفكر ، وهولبس يؤدي الى استنتاجات ربما كان من المفيد تحديدها ومناقشتها .

وعلى سبيل المثال ، فان بعض هذه الكتابات يحاول أن يبث لدى القارىء نوعاً من الايحاء بأن الفكر الصهيوني ، المعاصر منه وغير المعاصر ، هو نسخة مكررة عن الفكر اليهودي في صورته التوراتية ، وأن الحركة الصهيونية لاتعدو أن تكون تجسيداً لليهودية ، بقدر أو بآخر .

ولست هنا في معرض مناقشة هذا الاتجاه السائد في الكتابات العربية حول الفكر الصهيوني ؛ فأنا أعرف انه اتجاه تسنده شواهد عديدة وتؤيد دعواه أدلة كثيرة ، وهو ليس اتجاهاً مصطنعاً على أية حال ، ولكني اعتقد أن هذا الاتجاه قد بالغ بعض المبالغة في المضي بعيداً في الدفاع عن منطقه ، وفي توسيع دائرة هذا المنطق بحيث تشمل مساحات واسعة ربما كان من الصعوبة بمكان القول إنها يمكن أن تخضع لهذا المنطق . أي ان هذا الاتجاه ليس مرفوضاً بصورة كلية ، وإنما هو مرفوض جزئياً باعتباره منطقاً يحاول أن يعمم أحكامه تعميماً مطلقاً .

مثال ذلك ، ان كتباً عديدة صدرت باللغة العربية ، تحاول جميعها أن تعمم هذا المنطق ، اعني المنطق الذي يقوم على المطابقة الكاملة بين كل ماهو يهودي وبين كل ماهو صهيوني ، بحيث يصبح كل يهودي صهيونياً بالضرورة ، وكل صهيوني يهودياً بالضرورة .

وقد قرأت منذ مدة كتاباً للدكتور صبري جرجس (مصر) ، عنوانه : « التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي » ، وهو كتاب يقع في حوالي ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير ، يحاول فيه مؤلفه أن يعقد صلة بين ماأنتجه فرويد في ميدان علم النفس وبين الديانة اليهودية . وهو ينتهي إلى نتيجة مفادها ان التراث اليهودي الصهيوني قد أسهم إسهاماً لاشك فيه على الاطلاق ؛ في كل ماتوصل إليه فرويد في مضمار علم النفس التحليلي .

يقول المؤلف إن التحليل النفسي الذي ابتدعه فرويد مع ظهور الحركة الصهيونية منذ زهاء سبعين عاماً ، لم يكن علماً مجرداً كما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

زعم له ، ولكنه وثيق الصلة في جوانبه المرضية والحضارية معاً ، بالفكر اليهودي الصهيوني الذي ظهر في التراث منذ عهد التوراة وما بعدها . وانه من أجل هذا ، سخرت اليهودية الصهيونية أجهزتها الاعلامية والدعائية لنشر مفاهيمه والدعوة لها في أوسع نطاق مستطاع ، حتى أضحت الفرويدية من أقوى العوامل أثراً في التوجيه الفكري والخلقي للعالم الغربي .

بل إن المؤلف يمضي إلى أبعد من ذلك عندما يصف فرويد بأنه كان يهودياً قحاً ، وعضواً عاملاً وفخرياً في بعض الجمعيات والمنظمات الصهيونية ، كما أنه كان صديقاً شخصياً لتيودور هرتزل .

وبطبيعة الحال ، فان المؤلف لا يمضي إلى هذه النتيجة دون تمحيص ، بل أنه يقدم لها بمقدمات لابد منها للبرهنة على هذا الرأي . والمؤلف يجيب في هذا الكتاب عن مجموعة تساؤلات :

— هل كان في مقدور فرويد وهو يخطط للانسان شخصيته ويرسم له طريق حياته ، أن يتحرر من يهوديته ومن أثر التراث اليهودي الصهيوني الذي كان سائداً على نحو قوي في البيئة التي نشأ وعاش فيها ؟ .

— هل كان التحليل النفسي الفرويدي مجرد فكر علمي موضوعي ، أم أنه كان حركة علمانية صاغت روح التراث اليهودي الصهيوني في نطاق الفكر العملي الذي ساد العصر وبأسلوبه ؟ .

وإجابة المؤلف عن هذه التساؤلات هي أن يهودية فرويد كانت أقوى بكثير من رغبته في الموضوعية ، أو على الأقل من قدرته عليها ،

لأن حركة التحليل النفسي التي انشأها فرويد إنما استمدت جذورها ، كما يقول المؤلف ، من التراث اليهودي الصهيوني . بل ان المؤلف يرى أن المفاهيم الرئيسية لهذه الحركة ، أي حركة التحليل النفسي ، إنما استقت من نفس النبع الذي استقت منه الحركة الصهيونية طاقتها وتوجيهها ، وان الحركتين سارتا بعد ذلك جنباً إلى جنب لكي تصلا آخر الأمر إلى غاية واحدة : الالتقاء بشعب الله المختار على أرض الميعاد .

هل يعني ذلك كله أن المؤلف ينتهي إلى نتيجة مفادها أن التحليل النفسي يخلو من أية قيمة علمية باعتباره بدعة لاتستند إلى أي أساس ؟ .

المؤلف يحذر من خطأ استخلاص مثل هذه النتيجة ، فهو يرى أن التحليل النفسي قد أسهم بقدر أو بآخر في إخراج هذا الفرع من المعرفة الطبية من جمود ران عليه طويلاً . ويقول المؤلف في هذا الصدد إن العديد من المفاهيم الفرويدية قد يختلف العلم معها الآن ومستقبلاً في جملتها وتفصيلها اختلافاً جوهرياً بل وجذرياً أحياناً ، وقد ينكرها ، ولكن يتبقى في رصيد الحسنات لهذه المفاهيم بعدذلك أنها قدمت لنا الشخصية الانسانية في صورة دينامية قد لانستطيع قبولها كلها ، ولكنها برغم ذلك تظل أحد المداخل الهامة في فهم الشخصية ، كما تظل نقطة تحول في تفهم العوامل الفعالة في سلوك الانسان وفي الصحة والمرض على السواء .

والكتاب بالغ الأهمية لأنه يطرق باباً يبدو جديداً وطريفاً ومثيراً في الوقت نفسه . صحيح انه جرت محاولات للكشف عن شيء من هذا القبيل لدى مفكرين أو علماء يهود آخرين ، غير أن هذه المحاولة

الجديدة تكتسب قيمتها الحقيقية من كونها تستند إلى فهم عميق للتراث الفكري والديني اليهودي ، ومن فهم عميق مماثل لحركة التحليل النفسي .

غير أن مايلفت الانتباه في هذا الكتاب ، هو أن المؤلف يؤسس منطقه كله على فكرة مفادها ان فرويد في معظم ماأنتجه في ميدان علم النفس ، إنما يصدر عن فكر يهودي ، وعن معتقدات يهودية ، وعن بيئة يهودية ، وان هذا الذي قدمه فرويد في ميدان علم النفس لايعدو أن يكون تعبيراً ، صريحاً أو مضمراً ، عن التراث الفكري اليهودي الذي لايشك المؤلف لحظة واحدة في أنه ترك بصماته واضحة على فرويد منذ نشأته الأولى .

ARCHIVE

ومازلت أذكر كتاباً قرأته منذ عدة سنوات تحت عنوان : « نهاية اسرائيل والصهيونية » ، من تأليف الدكتور عبدالحميد واكد (مصر) . وعلى الرغم من أن الكتاب يقع في حوالي ٧٠٠ صفحة ، وعلى الرغم من أنه يناقش موضوعات على جانب غير عادي من الأهمية ، إلا أن القارىء مايلبث ، بعد أن يطوي الكتاب ويتأمل في هذا الذي قرأه ، أن يصادف خيبة عظيمة لشدة ماينتابه من شعور بأن المؤلف لم يفلح في اقناعه بالفكرة الأساسية التي يقوم عليها الكتاب وهي أن اليهود هم الذين يصنعون التاريخ . صحيح ان المؤلف يصدر في كتابه عن فكرة أساسية وهي أن مهمة اليهود عبر التاريخ إنما كانت تنحصر في تهديم العالم بوسائل شتى ، ليس أولها اشعال نيران الحروب ، وليس آخرها هدم مجتمعاته ومعتقداته ، لكن الصحيح أيضاً هو أن الفكرة التي يصدر عنها المؤلف لم تفلح في اعطاء الكتاب

قيمة علمية ، ربما لأن المؤلف بالغ بعض الشيء في البحث عن شواهد لفكرته تلك .

ومازلت أذكر كيف حاول المؤلف أن يعقد صلة بين « فرويد » العالم وبين « فرويد » اليهودي . ويقول المؤلف عن الفرويدية بأنها نظرية تقوم على إعتبار الغرائز البشرية جميعها كامنة في غريزتين اثنتين هما غريزة الجنس وغريزة حب المقاتلة . وبعد أن يقرر المؤلف بأن علماء النفس جميعهم (لانعرف من هم علماء النفس هؤلاء الذين يشير إليهم المؤلف) انكروا نظرية « فرويد » واثبتوا إخفاقها لمخالفتها الواقع الانساني والحقيقة البشرية ، ينتقل إلى القول إن المخطط الصهيوني قام بالترويج لهذا الشق من النظرية على أوسع نطاق ، وبكل الطرق السرية والعلنية التي تعمد إلى إثارة الغرائز البهيمية في أدنى دركاتها ، وتستهدف دفع المجتمعات دفعاً إلى الانحلال والتردي في الخطيئة والغواية . ويقول المؤلف إن « فرويد » يزعم أن الانسان لابد له من مقاتلة الانسان حتى يستأصله ، ، دون أي إعتبار للقيم النبيلة ، وللأخلاقيات المتأصلة في النفس البشرية . وينشط المخطط مرة ثانية مستهدفاً تأكيد روح التمييز العنصري كيما تستأصل بعض الشعوب بعضها الآخر .

وفي جزء آخر من الكتاب ، يلح المؤلف على أن اليهود قد شمروا عن سواعدهم دفاعاً عن نظرية « داروين » في النشوء والارتقاء ، وهي النظرية التي يقول عنها المؤلف إنها نظرية في التاريخ الطبيعي تقول إن الانسان في أصله قرد ، ويرى المؤلف ان المخطط الصهيوني إنما يسعى ، عن طريق إلباس هذه الأكذوبة اللباس العلمي ، إلى

زعزعة الايمان بالخالق وإلى إغفال حقيقة معروفة أكدتها الشرائع السماوية ، تقول إن آدم هو ابو البشر جميعاً . ويقول المؤلف إن اليهود عمدوا إلى هذه البلبلة دفعاً للانسانية كلها لما وصفهم به الله من قوله تعالى : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » . وكل موصوم يريد أن يصم كل الناس .

الكتاب في مجماه محاولة لتفسير العالم تفسيراً يقوم على النظر إلى اليهود على أنهم يصنعون التاريخ ، وانهم يقفون وراء كل محاولة مبذولة لهدم العالم ، وإنه ما من ثورة في التاريخ إلا وتستطيع العين المدقة أن تلمح فيها وجهاً يهودياً . وهذا التفسير ليس جديداً على أية حال ، فقد ذهبت مؤلفات عديدة إلى القول ان اليهود هم الذين اشعلوا نيران الثورة الفرنسية ، وان اليهود كانت لهم اليد الطولى في نجاح الثورة الروسية ، وان اليهود هم الذين يحكمون العالم ويقومون بتصريف شؤونه . بل لقد قرأت ذات مرة رأياً لكاتب لاأذكر أسمه ، يقول فيه ان اينشتاين ، وهو يهودي ، لم يضع نظريته المعروفة عن النسبية ، إلا لكي يتمكن العلماء من صنع القنبلة الذرية التي سوف تفضي لامحالة في نهاية المطاف إلى تدمير العالم .

ولست أريد أن أدخل في مناقشة حول هذا الاتجاه في النظر إلى إلى التطور التاريخي ، ولكني أحاول أن أقول إن التاريخ لا يمكن أن يفسر بهذه الطريقة . صحيح أن اليهود يقومون بدور نشط في العالم ، لكن اليهود لايصنعون التاريخ . كذلك فان اليهودية والصهيونية ليستا بالضرورة حركة واحدة ، فمازال ثمة قدر من التمايز بينهما . وقد كتب « آرنولد توينبي » في احدى مؤلفاته : « لست من الذين

يعتقدون أن أساس الصهيونية هو الديانة اليهودية . فكثير من قادة الصهيونية غير متدينين . انهم ليسوا يهوداً مؤمنين » . كما ان « بن غوريون » كتب ذات يوم قائلاً ان مايربط بين اليهود ليس الدين اليهودي ، بدليل ان الحركة الصهيونية فيها يهود متدينون ويهود لادينيون ، أي يهود ملحدون لايؤمنون بوجود إله . وما يربط بين اليهود ليس العنصر الواحد ، بعد هذا التشتت الواسع الذي أصاب اليهود في شتى البلاد والقوميات . وما يربط اليهود ليس اللغة الواحدة ، بدليل أن اللغة العبرية كادت تختفي تماماً قروناً طويلة ، ومعظم يهود العالم لايعرفونها ولايتكلمونها .

ومهما يكن من أمر هذا الذي يقوله « توينبي » المعادي للصهيونية ، أو ذاك الذي يقوله « بن غوريون » العريق في صهيونيته ، فان مايهمنا من ذلك كله هو ألا نبالغ في تعميم احكامنا فنعتبر كل ماهو يهودي صهيونياً بالضرورة ، فننتهي إلى أن « فرويد » اليهودي ، صهيوني لامحالة ، مما يؤدي بنا بطبيعة الحال إلى مجابهة اشكالات عديدة كان يمكن تجنبها لو أننا أحسنا التصرف في المادة الموجودة بين أيدينا ، ولم ندع لفكرة جاهزة مسبقاً أن تسيطر علينا وتقودنا بالتالي إلى نتائج قد يكون فيها قدر من مجافاة الصواب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رحلة النهار والليل

قصة جورج سالم

ورأيتك في منتصف طريق الحياة ، كنت تحسب أن كل شيء قد انتهى ، رأيتك تطوي أشرعتك وتخمد في نفسك جذوة التنقل ، وتستكين ، أنت المغامر جواب الآفاق ، إلى حياة الدعة الوادعة في منزلك الهادىء ، عند ذاك رأيت شوقاً عارماً إلى معاودة الرحيل والتطواف في أرجاء البحار يستولي عليك بغتة ، يرسم في عينيك ، ينبع من مسامك ، حتى لكأنه يحاصرك ويأخذ بخناقك ، ورأيتك تندفع في اضطراب مرغماً عجلا ، تنشر أشرعتك وتسارع إلى ركوب متن سفينتك الصغيرة التي ظلت منزوية أمداً طويلا ، مهملة ، وتتجه شطر اليم من غير أن يتاح لك أن تودع ذويك . لقد ظننت أن عهدك بالرحيل قد انتهى وأنك متمضي ما تبقى لك من سنوات على هذه الأرض تحيا حياة هادئة مطمئنة ، وأن سفينتك ستصدأ وأشرعتها ستبلى ، ولكن ها هوذا نداء البحر يستيقظ فيك بعد أن كان خامداً ، وهاجس الرحيل يشتعل في نفسك اشتعالا . وها هوذا الماضي الذي قطعته تتنقل من بحر إلى بحر خلال رحلات سبع طوال يطغى عليك ويعتصر فؤادك ويشدك مرغماً إلى أرجاء البحار الفسيحة . وسمعتك تقول وأنت تطأ أرض السفينة : « عسى أن أستعيد حريتي وانسانيتي . » وبيت الرحيل في خضم الليل ، في ظلمته ، ثم انطلقت في أول النهار من غير ما وجهة أو قصد . ومضت بك السفينة تتقاذفها الأمواج ، فتعلو فوق غواربها حيناً . وتنخفض بها حيناً فيرتد عنها الموج مرغياً متكسراً عليها زبداً أبيض .

قضيت في سفينتك النهار كله تغالب الموج وتطوي المسافات وأنت تغذ السير نحو هدف لا تعرفه ولم يخطر لك أن تحدده . لم يمر ببالك الشاطىء ومن تركتهم على الشاطىء . كنت مستسلماً نشوان الفوارب تتهاداك وتتقاذفك . وشعرت بأنك غدوت خفيفاً كالنسيم ، وحدقت في الشمس الساطعة تسكب أشعتها على سطح البحر ، وعلى سفينتك ، وعلى أجزاء جسمك . وأحسست بالبهجة تغمر كيانك ورأيت البحر يخفق طرباً ، فاستسلمت إليه تمضي بك أشرعة سفينتك نحو بقعة موحشة بعيدة منه .

وحلت ظلمة المساء . ولما تلاشى الضياء رأيت أن من الخير ان تخفف من سرعة السفينة واندفاعها كي تستريح برهة من مشارق النهار ، اذ ذاك بدأت السفينة تنجذب في اتجاه ما . كانت العتمة مطبقة . وأنت وحيد ثمة لانار معك ولا ضوء . وأحسست بالسفينة تضاعف من سرعتها وهي ماضية في ذاك الاتجاه الذي يجذبها جذباً لاتحيد عنه يميناً أو يساراً . وشعرت بأن خطراً ما محدق بك لا ريب ما دام عنان السفينة قد أفلت منك . ولكنك أدركت أنه خطر بهيج عذب ، وأنك على شفا المغامرة ، فرقص منك الفؤاد واندفعت مع السفينة غير مبال بالخطر ، كأنما تحدوها في سيرها السريع ذاك ، وتبين لك ان مسامير السفينة قد شرعت تتخلخل من أماكنها ، والليل يزداد من حولك قتاما وأنت بسفينتك تندفع نحو أقاصيه ، ولاحت لك من بعيد على ضوء نجيمات تائهة في صفحة السماء كتلة سوداء صماء تنبجس من وسط البحر ، وشعرت بالخطر يتفاقم ، وان هي الا لحظات حتى تفككت مسامير السفينة ، وتخلعت ألواحها ، ورأيت المسامير تنجذب بقوة نحو جزيرة بعيدة غارقة في العتمة ، وصرت وحيداً هناك في البحر ، ووجدت نفسك تنجذب أنت أيضاً نحو هذه الجزيرة ، وبلغتها بمثل لمح البصر ، وحانت منك التفاتةفوجدت الأمواج تتقاذف الألواح في كل اتجاه .

حين طرحتك الأمواج فوق عشب الجزيرة كان التعب قد هد قواك ، وخلفت نتوءات الصخور جراحاً في باطن يديك وظاهر قدميك ، ونظرت إلى جسدك فإذا دم أحمر قان ينزف خفيفاً من جرح في صدرك قرب خاصرتك ، وتسرب الملح إلى جراحك فآلمك ، ثم تراءى لك وهج النار فتحاملت على نفسك واتجهت نحو هذا القبس الذي لم تكن قد رأيته بعد . وجلست غير بعيد منه تجفف جسمك بحرارته ، وتضمد جراحك وتزيل ما علق بها من أعشاب البحر وأوساخه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ورأيتها ، من خلال الوهج رأيتها ، لا ، لم يكن ذلك وهماً ولا رؤيا ، لقد شاهدتها بنفسها ، بلحمها ودمها ، بكامل انوثتها وكل بهائها ، المرأة التي تحبها وتشتاق إليها على الدوام . لم تدر كيف ظهرت هناك ، ولم تفكر بذلك . حسبك أنها هنا . على مقربة منك ، الليل يتكاثف من حولك ، وتشتد ظلمته ، والنار يخمد اوارها وتتقاصر ألسنتها ، وها هي ذي الفتاة تنير ظلمة الليل كقمر يتلألأ نوراً وبهاء . هي الفتاة الضعيفة الرقيقة تنتشلك من اسارك ، من عالمك المطمئن الآسن ، من ركودك وملالك ، وتجذبك إليها ، فلا تستطيع مقاومتها أو الافلات منها ، ولا تكاد تشعر بالألم ، في بعدها وحده ألمك وأساك . وها أنتذا تستكين إلى جانبها نشوان فرحا .

وأسندت رأسك إلى حجرها ، ساعات الليل القصيرة ، دفعت عنك النعاس والنوم ، وأنت الليل تتأملها ، تنهل من جمالها ، وكنت كظامىء وجد ينبوعه .

قلت في دهشة : « العالم جميل . » واستدركت هي تقول : « هو الحب جعله جميلا . » وهتفت من أعماقك « تبارك الحب يضيء الليل ، وتباركت المرأة تنير أغوار الوجود » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وضممتها بين ذراعيك ، وغاب الزمن ثم تلاشى ، وشعرت أنك عاجز عن الكلام وأن كل قول تدنيس لهذه المتعة المقدسة التي تشعر بها وأنت بين ذراعيها ، ورأيت يطبق الليل عليكما ، يتكاثف ظلمات فوقكما . ليل أسود كجبل من الحجارة الصم ينوء عليك ويحجبك عن العالم ؛ وكان ثقل الليل ممتعاً جميلا عذباً . وأخلدت هي أيضاً إلى الصمت فلم تنبس بكلمة . لم يكن ثمة الا عطرها يضوع حولك ويحمل اليك النشوة ، ليس ثمة الا شعرها الكثيف تتغرز أصابعك بين طياته ، والا ملمس جسدها الحريري العاري . وشعرت بجلال الصمت . الصمت فوقك ، والصمت من حولك ، الصمت في كل مكان ، يغني ينشد يغرد ، وأنت مأخوذ بروعته وسحره.

في صبيحة اليوم التالي ، وربما بعد أصباح عديدة ، رأيتك تسير الهوينا . كنت بين جماعة من السائحين تزورون مناطق أثرية ، في بقعة جرداء . كانت الجزيرة قد تلاشت واختفت معها المرأة . وسرتم أمداً طويلا يتقدمكم دليل طاعن في السن . وبعد مسيرة ما ، بلغتم المنطقة الخربة . قال لكم الدليل : « هذه هي المدائن الميتة . » ورأيت على مدى البصر مجموعةمن المباني والمنازل الخاوية ، قد تهدمت منها الأطراف وبانت في عرى مخيف . الشمس تسطع فوقها ، وتترك آثاراً سوداً من شواظها عليها . سقوف المنازل منهارة الا من بقايا حجرية في الزوايا ، والزوايا مخلعة مفككة ، بقايا نوافذ وآثار جدران ، أطلال وكوم من حجارة كانت ذات يوم تعمر هذه البقعة ، بقايا شوارع ولا شوارع . وتسير الدروب

في استقامة ثم تلتوى ، تضيع تحت الأرض ، تحت الأنقاض ، فلا تفضي إلى مكان ، تزوغ عن البصر وتضلل الناظر ، وحول أكوام الحجارة تلال صغيرة من التراب ليس فيها أي أثر لحياة . لاعشب ولا زهر ، لانبات ولا أشجار ولا فيء . والنهار ساطع . تتوسط الشمس فسحة السماء ، وتبدو لك كتلة حمراء ملتهبة تقذف الحمم على عالم الموتى ، تتراقص قطرات من العرق على جبهتك ، ثم ينهمر منك العرق بغزارة . يجف حلقك في عالم الجفاف هذا ، ويتيبس في اللسان الفم . لا ساقية ولا ينبوع ، مامن جدول أو نهر تتبرد بمائه أو تستحم في عبابه ، الجفاف حولك من كل ناحية . وأشعة الشمس تحرقك ، وتكوي بشرتك ، والأرض من تحت قدميك تنفث لهيباً حارقاً ، وترتمي في آخر النهار ، مع غياب أشعة الشمس ، مع انتشار أوائل خيوط الليل ، مكدوداً ، متعباً ، دامي القدمين من المسير والتطواف في المدائن الخالية ، وقد زكمت أنفك الأتربة المتفتتة وحطام الحجارة .

أنت الآن في خضم الليل ، والأرض ، ما امتد نظرك ، تلتهب بالعواصف والأعاصير ، تخرج من منزلك وسط العاصفة مرتدياً معطفك السميك ، تتساقط فوقك الامطار بغزارة ، وتلتمع البروق في كبد السماء ، تتساقط الأمطار مدراراً ، وتقصف الرعود ، وأنت صامد أمام العاصفة . الريح تتلاعب بأطراف معطفك ، بثوبك ، تتقاذفك ذات اليمين وذات اليسار فتكاد تتهاوى ، ولكنك تظل متماسكاً ، تريد أن تنفذ إلى قلب العاصفة ، أن تصغي إلى هديرها ، أن تسمع أعمق همساتها ، أن تسمع نبضها وتمسك به ، أن تغوص إلى صميمها ، تريد أن تثبت نبضاتها الوامضة التي لا تتكرر . مامن عاصفة تشبه عاصفة أخرى ، ما من عاصفة تتكرر . وأنت تريد أن تلج قلب هذه العاصفة الفريدة . ومن ثم تعود إلى غرفتك تسجل النغمات التي سمعت والألحان التي جمعت ، وتسكب الأحاسيس التي شعرت بها والرؤى التي رأيت ، والصواعق التي تساقطت حولك فحطمت الأشجار وهشمت الجذوع وأحرقت الأوراق . تجلس إلى معزفك تعيد ما سمعت ورأيت ثم تستعيده . في هدوء غرفتك أمام النار المتقدة في المدفأة تبدع ألحانك ، تشذبها ، تنميها ، تغنيها ، تطورها . في هدأة الليل كذلك تصعد السلالم ، تستند إلى جدران المباني ، وأنت تمسك بالفرشاة والألوان ، تطلي الجدران ، تزينها ، ترسم عليها الرؤى التي تلوح لك وتقض مضجعك ، تعيد خلق العالم ، تكونه تكويناً جديداً . الناس يغطون في سباتهم ، ينفضون عنهم عناء النهار ، وأنت الجائع المقرور ممدد على صقالة عالية ، وعلى رأسك شمعة تضيء الظلام ، تضيء الجدار فوقك ، وأنت هنالك ، في الأعلى ، تكون الخطوط بجانب الخطوط ، فيستوي البشر بين يديك أحياء تنبض في أجسامهم

الحياة التي لاتفنى . ثم تنحني على أوراق أمامك فوق المنضدة فتخطط المدن ، ترسم الحدائق ، تبني المعابد والمتاحف ، وتشيد المصانع والمعامل ، وترى ان ذلك كله حسن .

عليك الآن أن تسير في الأسواق وسط الزحام بين ألوف الناس ، حدق فيما حولك ، ولسوف تشاهدهم بوضوح . انهم يملؤون الدروب والشوارع والمنعطفات والمخازن والمحلات . اناس من كل الأعمار والأشكال ،يسرق بعضهم بعضاً . ويخون بعضهم بعضاً . يتراكضون سعياً وراء السلع . يبيعون ويشترون . بين أيديهم أموال السرقات التي لاتحصى ، يجمعونها درهماً فوق درهم ، ويسرقون المرة تلو المرة ، والسارق مسروق بعد حين ، والعسس ينظرون إليهم في وضح النهار ويبتسمون . يقولون لهم : لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون . وشمس النهار مضيئة ساطعة ، تدخل المنازل والمتاجر ، تلج النوافذ والكوى ، تبارك المختلسين السراقين ، تبارك العهر والزنا . أقول لك . لاتشهر سيفك في وجه أي منهم . فسيفك مثلوم وسلاحك مغلول وأنت محاصر في كل اتجاه .

انظر إلى رتل السيارات . هي تمر مسرعة تسابق أبصارك حتى لتطير فلا تدرك صورتها . سيارات من شتى الأحجام والألوان تتدافع وتزحم بعضها بعضاً حتى لتكاد تتلامس . أبواقها ما تني تنعب وتصيح . زعيقها يتناهى اليك ، يحيط بك ، يلفك ، يفتك ، يكاد يثقب اذنيك . صافرات من شتى الأنحاء تتغلغل فيك فتضطرب وتستغيث ، وما من مغيث . تتشكل فوقك كتل كثيفة . أهي غبار أثارته السيارات والناقلات أم دخان ، لا بل دخان أسود فاحم يحجب عنك النور . دخان بلا نار ، النار حولك ، تحس بها ولا تراها ، النار تحاصرك ، تنبع من هذه الصفائح المعدنية التي تملأ كل ما حولك ، الصفائح المعدنية التي تسير هادرة مسرعة متسارعة كأن حادي الزمن يلهب ظهرها بالسياط ، فتهرب متدافعة تسحق ما أمامها ، تسحق الهواء والعشب والتراب والماء .

المرأة التي تحبها تتألم ، تتلوى ألماً ، تتقلب ذات اليمين وذات اليسار فوق سرير أبيض عال . الجزيرة لم تعد جزيرة ، صارت الآن مستشفى واسع الابهاء ، وأنت تسير في هذه الابهاء ، تقطعها ذهاباً واياباً مرة ومرة ومرة وصراخ المرأة الهادر يبلغ مسامعك ، يصم اذنيك ، يمزقك تمزقها وهي بين الموت والحياة ، ولكنك عاجز عن مد يد العون لها . والممرضات يتسارعن ، يتراكضن ذاهبات آيبات ، غير مباليات بك ، يمشين بخفة وصمت ، يفتح الباب ويغلق مرات ، والطبيب المعالج عاكف على المريضة يتفحصها وأنت في الخارج تنتظر ، ولكن الصوت المتألم المتمزق لا يهدأ ولا يفتر ولا تخف له حدة .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

تحمل أمام ناظريك على محفة ، تحمل كشيء ، لقد فتت الألم كيانها وهدمها ، ويفصل بينكما باب غرفة العمليات ، يفصل بينكما إلى الأبد ، لايتناهى اليك صوتها ، لقد خفت وتلاشى .

أصوات مرتفعة وضجيج حاد يثقب أذنيك . المطارق تصلك من بعيد ، ولا يلبث الطرق ان يشتد حتى يبلغك ، تتساقط المطارق فوق رأسك . لقد اختنق شيء ما ومات . صافرات الانذار في كل مكان ، وأبواق السيارات ما تني تزعق وتزعق . وأنت وحيد وسط العاصفة . تحاصرك الأصوات تهتصرك ، ترميك أرضاً ، تنشب أظافرك في الأرض بحثاً الجزيرة والحب والمرأة فلا تجد لكل ذلك أثراً . تتشكل في الفراغ أمامك كلمات ، كلمات في الهواء ، فوق التراب على الجدران ، في كل مكان ، كلمات ، سيل من الكلمات لاتعني شيئاً وما أنت قادر على تثبيتها . ضاعت الالحان وذابت الألوان وتهدم العالم .

ويزوغ منك البصر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

يصدر حديثاً
عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

الحضارة على مفترق الطرق

تأليف
رادوفان ديشته

ترجمة
يحيى علي ديب

الانفصـــال

قصة رشاد أبو شاور

دفرته في ظهره ، تحرك ببطء لم يستيقظ دفن جسده ورأسه تحت اللحاف ، هزته بعنف :

– انهض .

(انهض) جاءت حاسمة ، منبئة بما هو سيء ، لكنه توجس فحاول أن يرخي جسده تحت اللحاف ليوحي لها بنعسه وتعبه . عاد صوتها آمراً ملحا :

– قم .

انقلب على ظهره . خبط اللحاف بقدميه . أخذ يدعك عينيه ويتطلع من خلال أصابعه إلى وجهها . سألها بشيء من الدهشة :

– ماذا حدث ؟

كان فمها مزموماً والكآبة تغشي وجهها . وأنفاسها تخرج من أنفها . وفمها المطبق يكسب قسمات وجهها حزماً وقـوة .

– بنت محمود عيسى . .

وسكتت .

سحب جسده وأسند ظهره على الجدار الطيني .

– ما لها ؟

أطلت عليه من فوق ، بعينين فيهما غضب وحزن .

– ذبحوهـــا . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعد لحظة صمت انتفض وسأل مندهشاً :

– ذبحوها ، ولكن لماذا ؟

(هه) أخرجتها من أنفها .

صرخ متفجعاً .

ــيا للفاجعة .

لم تفهم بماذا نطق . سألته :

– ماذا قلت ؟

مد يده يتحسس علبة السجائر تحت الفراش . أشعل عوداً ، وترك النار تتوهج حتى وصلت سلاميات أصابعه . نفخ على العود . كظم الألم الذي سببته نار الثقاب .

– غير معقول .

كانت ما تزال تطل عليه من فوق . راقب أرنبة أنفها وبعض جبينها ، وشعرها الشائب . (كأنها ليست أمي ، إنها قاسية ، وبعيدة عني الآن) .

– كانت حلوة ومرتبة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عيناه تحاول التشاغل بأعواد البوص الصفراء في السقف ، والأخشاب الطويلة الرقيقة التي تحمل الأعواد . عاد صوتها يلح بطيئاً ثقيلا :

– أخذها شقيقها في الفجر . قال لها سنذهب إلى نهر الشريعة لجلب الحطب ، لكنه نحرها في الوادي .

سكتت قليلا

– يا حسرتي عليك يا مريم ، عاد إلى المخيم يصرخ : أختي لدغتها الأفعى . كان قد رتب الأمر مع أمه ، فانطلقت أمه تصرخ وتولول وتمزق ثوبها . . المسكينة ، ربما تفقد عقلها . كانت تحب ابنتها كثيراً . من لم يكن يحب مريم؟.. ذهب المختار وشاويس المخفر وشقيقها وبعض أقاربهم ولفوها في البطاطين وحملوها في الدسكرة ، وعادوا . حاول ان يكون صوته طبيعياً .

– ولكن لماذا .. ذبحوها ؟

(هه) أخرجت الصوت من أنفها ، وتساءلت .

– لماذا ؟

فتحت النافذة فتدفقت أشعة شمس الصباح .

— قلت لماذا ؟ لأن الأم رأت بطن ابنتها يكبر يوماً بعد يوم . مرة جاءت وأخبرتني بشكوكها قالت : ياريت الاستاذ يوسف يتزوجها . تفرس وجه أمه بانشداه ..

— ماذا تقصدين ؟ ولماذا ايقظتني؟ وما هي علاقتي بكل ما يحدث؟ اليوم الجمعة واريد أن ارتاح .. ما هي علاقتي بهؤلاء الوحوش ؟

تباوت على الكرسي القشي . اخذت أصابعها تقلب دفاتره وكتبه المرصوصة على الطاولة .

— وحوش؟ يايوسف ألست منهم ؟ نحن نسكن مثلهم في بيوت من الطين والبوص والخشب .

انطلقت في الخارج صرخة حادة طويلة .

— مريا ا ا ا ا م ..

علقت الأم وهي تفرك يديها .

— هذه صرخة أختها المتزوجة في مخيم عين السلطان . يا خسارة شبابك يا مريم . كانت حلوة وشاطرة . لم تكن واحدة من بنات المخيم تجيد التطريز مثلها . الله يجازي اللي كان السبب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صرخ بجنون :

— ولكن لماذا تقولين هذا الكلام أمامي ؟ ما هي علاقتي ؟ انتفض أخذ يرتدي ملابسه على عجل . كانت تراقبه ، وظل ابتسامة حزينة ساخرة ترتسم على زاوية فمها.. اندفع خارجاً .

رأى والده يجلس على التراب تحت الشمس ، وقد نزع عمامته ، وأخذ يفرك جلد رأسه الخالي من الشعر ، وجسده الضئيل يتأرجح إلى أمام وخلف ، وهو يتمتم بادعية وأوراد ، ما زال يحفظها ويرددها منذ عشرات السنين .

خرج من البوابة إلى الشارع أخذ صوت مريم يلاحقه (هل ستتزوجني ؟) (طبعاً سأتزوجك أنا لا ألعب) (لكنك أستاذ وانا ..) (أنت مجنونة ، لقد عشنا معاً ، منذ كنت صغيرة وأنا احبك .. وها أنت حلوة وطويلة كنخلة ، أحب رائحة القرنفل التي تتضوع من جسدك ..) كان يصرخ بتحسس نهديها الصلبين (أنا أحبك لكنني خائفة . أنت لم تعد مثل أيام زمان هل تحب بنتاً في أريحا ؟.) (أنت مجنونة أنا أحبك أنت . والله صدقيني) .

ترددت في داخله كلمات أمه (نحن وحوش . وأنت ؟ أنت من أين أتيت ؟ هل نزلت من السماء ؟ بنات المدينة مش أجمل من مريم . الله يجازي اللي كان السبب) .

راح إلى السهول ، شرقي المخيم . سار على الطريق الترابي ، باتجاه نهر الشريعة . رأى بعض الحيوانات السائبة ، لم ير بشراً . كانت الشمس حادة والأرض الرملية تلتمع تحت الأشعة اللاهبة . ظل يسير حتى وصل الوادي . هبط مع المسربة إلى القاع . أخذ يتفحص المكان ، لكنه لم ير أثراً لدم ، ولا نثار لحم أو عظام . سمع غناء بدوياً بعيداً . مسح العرق عن جبينه . أخذ يصعد المسربة باتجاه المخيم (ولكنك متزوجني) طبعاً سأتزوجك .. أنا لا ألعب) .

(لا أستاذ يوسف منشان الله ، عندما نتزوج) وانهار جسدها تحته على الأعشاب ، بين أشجار الموز الخضراء الظليلة .

مريا ا ا ا م ....

دار حول نفسه لكنه لم ير أحداً (انني محموم سأجن) .

مر تحت شجرة السور التي كانا يلعبان تحتها أيام الطفولة (بطني كبرت أنا خائفة).. (وماذا أفعل لك يجب أن أؤمن مستقبلي) (وأنا) ؟

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذبحوووني ..

كانت أمه أمام البيت وقد ظللت عينيها براحة يدها رأته فأخذت تمسح دموعها (بغدفتها) البيضاء .

خرج الناس بالنعش سار المختار وشاويش المخفر في مقدمة الموكب . في الخلف كانت النسوة يراقبن ويبكين . اندفعت الأم صارخة مولولة (خذيني معك يا مريم .. يا خسارة شبابك) كانت تبكي وتلطم . عاد ابنها اليها ، اقتادها وأدخلها البيت مع النسوة النادبات .

لوى يوسف رأسه ، أراد أن يسد أذنيه ، لم يستطع رفع ذراعيه ، اندفع بعيداً عن المخيم ، باتجاه السهول الجرداء ، تحت الشمس اللاهبة .

في العراء ، وتحت الشمس التموزية الشرسة ، وبعيداً عن شجرة السور التي كان يلعب مع مريم تحتها ، ارتمى وحيداً .. في الصمت الرهيب .

أقص عن زماننا

قصة يوسف القعيد

« المؤلف يجد حلا »

٥٥ للمرة الأولى بعد الألف حاول ان يكتب . جلس الى مكتبه ، أمسك بقلمه ، سوى أكوام الورق الأبيض أمامه . ويبدو نسيت عادات الكتابة ، أمسك بقلمه اللي علاه الصدأ . كلمه أو كلمتان وشطب ما كتبه . طبق الورقة حتى استدارت في كفه واصبحت في حجم الكرة ثم رماها . هذا ما كان يحدث على مدى سنوات ثلاث مرت عليه . بدأ يفسر الأمر واستهوته التفسيرات . قال ازمة عاطفية وقال إجهاد عقلي من كثرة القراءة وقال ان الواقع أصبح مجدباً ولم يعد فيه ما نحكي عنه . حتى محاولا ت التفسير بدت عارية من المنطق ولم يقتنع بواحدة منها .. هذا المساء عاد لتوه من المقهى ، هناك تحدثوا كثيراً ، عاموا في بحار الكلمات وتناولوا كل ما تقع عليه العين في مصر بالشرح والتحليل . لم يعجبهم العجب ، وبدوا كما لو كانوا يستجدون الكلمات ان تقوم بما لم يقوموا به هم . أما هو فلم يتكلم . كان يستمع وكان لسقوط الكلمات على أذنه لذة جديدة عليه . بسعادة مفاجئة قام من جلسته . استأذن من رفاق كل ليلة . في الطريق ، انتشر بداخله غناء لم يجربه من قبل . في البيت ، قرر أن يكتب ، أن يحول ما بداخله إلى كلمات تخدش قلب من يقرأها ، تحرمه لذه النوم بدأ يكتب . بعد السطر الثاني توقف . الكلمات التي خطها عن بطل قصته تقول انه استيقظ من نومه في الصباح متعباً وفتح عينيه المحمرتين على يوم مر المذاق . تاهت منه نشوة العثور على أول الخيط والبدء في كتابة قصته . احس بتعب السنوات الثلاث الماضية يستيقظ ، يشل يده . اعاد قراءة السطرين بصوت عال . تساءل ومن لايستيقظ من نومه متعباً ان كان قد نام وأى الأيام ليست مرة

المذاق . بدت الكلمات باهتة من كثرة الاستعمال . لعبة كل يوم تتم بحذافيرها يكتب ثم يشطب ويكتب ويشطب . حتى يتعب فيرقد في سريره منتظراً النوم. في النهاية قام ودار في حجرة مكتبه توقف أمام النافذة ، أطل منها ، غمس وجهه في الليل الذي يطل عليه من الخارج . بدأ يحدث نفسه عن البطل الذي يحاول خلقه .

بعد منتصف الليل ، اتاه الحل من البطل الذي يحاول خلقه . لايعرف من اين خرج . بدأ مختلفاً عن كل تصوراته ، عندما شاهده يقف في ركن الغرفة . أدرك ان كل محاولاته السابقة في وصف ملامحه الخارجية كانت عبثاً . اللقاء صعب . لم يمد أحدهما يده لكي يصافح الآخر ولم يتبادلا أية تحية . قرر المؤلف ان يصف هذا الموقف جيداً في قصته .

بعد فترة صمت قال البطل بدون مقدمات ، انه أتى لانقاذ المؤلف من ورطته . ابتسم المؤلف ، تحركت شفتاه ، خرجت الكلمات محاولة وصف ورطة المؤلف وأبعادها لم يعطه البطل فرصة لكي يتكلم . قال البطل : انه يرفض ان يلعب دور البطولة في قصة لن يقرأها أحد . سيظل ميتاً بين الأحرف والكلمات مالم تقع عين قارىء عليها لكي تمنحه الحياة . فميلاده هو لحظة قراءة القصة . الناس ملت القصص .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سأله المؤلف :

— والحل ؟

تباطأ البطل في الرد . وسقت ابتسامة المنتصر كلماته . أما ان تكون القصة مثيرة تأخذ القارىء من السطر الأول . أو أن تكون قصة تتحدث عما يراه الذين لاصوت لهم كل يوم . الاحتمال الثاني غير وارد ، لايستطيع أحد أن يتكلم عما يحدث في بر مصر وهذا يريح المؤلف من صعوبة الاختيار . ليس أمامه سوى أن يكتب قصة تقطع أنفاس القارىء وهو يحاول متابعة قراءتها .

مع كلمات البطل الأخيرة بدا التعب على وجهه واضحاً . دهش المؤلف ، وجد أن كلمات البطل تحدد ما بداخله . وافقه . قال لنفسه : ليكن هذا البطل هو عذابي المتجول بين الناس . وبدأ عملية تأليف القصة . قال المؤلف ، وكانت تلك أول كلماته ، المشكلة كلها في كتابة السطور الأولى فقط وبعدها يتكشف عالم القصة ويسلمك نفسه . كتب بعض المقدمات ، لم يعلق عليها البطل . لم تكن مختلفة عما كتب من قبل آلاف المرات . تدور في اطار الموضوعات الخالدة للقصة : الميلاد ، الحب ، الزواج ، الجنس ، الأولاد ، المرض

ثم الموت . بدأ صوت البطل يعلو وبدت عروق رقبته منتفخة . صاح قائلا : ان الكتابة بهذا الشكل خيانة ، هروب أو تضليل . لم يسمعه المؤلف كان مشغولا بهمه الخاص . مشكلته انه يريد ان يقول كل ما عنده دفعة واحدة ويمضي . كتب ونشر وقال وشغل الناس ولكنه لم يكن يجد ما يتفسه في اسطر ما كتبه . كان يغمز ويلمح ويرمز . الرموز والتلميحات كانت تموت في أحرف الكلمات . ولم ينتبه اليها أحد .

— عندي فكرة .

قالها البطل . نظر إليه المؤلف بيأس . وبدأ البطل في حديث طويل :

البطل يخلق نفسه :

الفكرة بسيطة ، يكفي سطرواحد لخلقه ، ماضيه الطويل وقصة حياته . اخفاقات واحباطات كل يوم ستشتت القارىء ، فهما يكتبان قصة قصيرة ، على السطر الواحد أن يضع القارىء والمؤلف والبطل في مواجهة موقف انساني محدد . ورفض ميوعة ارضاء كل الاطراف وانتهازية الامساك بالعصا من منتصفها . اتفقنا بعد مناقشات طويلة على كلمات السطر الأول من القصة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— صحا البطل من نومه ليجد أن بفمه ورماً ضخماً منعه حتى من تناول إفطاره . كان السطر في البداية صفحة ، ولكن البطل شدد على ضرورة الاستخدام الاقتصادي للكلمات . تحدث عن كيمياء اللغة . أكد أنه ان كانت بنفس المؤلف عواطف أو أفكار تساوي عشر درجات فيجب ان تستخدم كلمات تساوي هذه الدرجات العشر .

فرح المؤلف والبطل باتفاقهما على السطر الأول من القصة . هنأ بعضهما ، وانتقلا إلى باقي أحداث القصة . بعد السطر الأول يذهب البطل إلى مقر عمله . في العمل يحاول ان يحدث أحداً عن ورمه . لايفلح ، لاتصل كلماته إلى أحد . يدبر أموره كي يعرض نفسه على الطبيب في المساء . اقترح المؤلف ان يسهب في وصف يوم بطله . الذهاب إلى العمل والعودة منه . احباطه في الاتصال بانسان آخر . وجبات طعامه الثلاث . متاعبه ، اعترض البطل . مثل هذه الأمور ملها القارىء من كثرة مضغه لها . تفصيلات كثيرة لاطائل من ورائها .

بعد الكشف والفحص يقول له الطبيب :

— الورم خبيث .

يكمل بعدفترة صمت ثقيلة :

– العلاج الوحيد استئصال اللسان . وفوراً . ـ

يعترض البطل على تشخيص الطبيب . يرفض العلاج ، يخبط المكتب بيده محتجاً ، فاللسان وسيلته الوحيدة في الكلام والاتصال بالآخرين . والتعبير عن نفسه وهو لم يقل رأيه بعد في الكثير من أمور الحياة . كيف يعيش بدون لسان ؟ يرد عليه الطبيب ان حياة البطل بدون لسان ليست قضيته فهو كطبيب ليس أمامه سوى اجراء عملية الاستئصال والآن .

وضح الطبيب الأمر .

– التأجيل مرفوض ولو لدقيقة واحدة ، الخطر يهدد الجسم كله .

هاج البطل ، هجم على الطبيب الذي وجد نفسه في موقف دفاع مشروع عن نفسه . كاد الأمر ان يصل إلى العراك بين الاثنين . ولأن الوقت ليل ، تدخل المؤلف بين الطرفين . اقترح حلا وسطاً فسخر منه البطل :

– دائماً الحلول الوسط .

استمر المؤلف في ايضاح كلامه . يجب اعطاء البطل فرصة أخيرة لكي يقول رأيه . وبعد مناقشات طويلة على ذلك . واجهتهم صعوبة تحديد المدة . طلب البطل سنة . واصر الطبيب على ساعة . بالنقاش والمفاوضات تم تقريب وجهتي النظر .

واتفق الثلاثة على ان تكون الفرصة أسبوعاً . يتكلم البطل فيها بنفسه . ونيابة عن كل الذين لم يتكلموا مهما حدث . طلب المؤلف بعض الضمانات . من يضمن له ان البطل سيتكلم بشجاعة ولن يخاف . امام كل الناس وفي الأماكن التي يزدحمون فيها وانه سيعود إلى المؤلف لكي تكتمل القصة وتصل إلى خاتمتها . طمأنه البطل وضمنه الطبيب فهو ليس بطل القصة فحسب ، بل أصبحت حياته ، ولابد وان تصل إلى نهاية ما . سيعود إليه مهما حدث .

وهكذا خرج البطل متأبطاً ذراع الطبيب وهما يبتسمان لبعضهما في سعادة وتركا المؤلف وحده الذي حسد البطل وكان عزاؤه الوحيد أنه خالقه . وان القصة ستكون مثيرة وستنسب له . أطل عليه من صمت الليل تساؤل بسيط بدد سعادته الطارئة سيذهب البطل لكي يتكلم ويعود ليقطع لسانه ، ثم ماذا ؟ ولأنه لم يشعر بسعادة منذ ثلاث سنوات مضت ، طرد الخاطر الخبيث بسرعة . جلس إلى مكتبه فأمسك بقلمه .. وقبل ان يكتب ، تعجب من البطل الذي يحب الصمت . وحاول ان يتصور حاله بدون لسانه ، كيف يصرخ ؟ يقول لا ، يحب ، يعبر

عن رغبة حارقة في الليالي الصامتة . يرتبط بانسان ما في هذا العالم ، يحول المشاعر الداخلية ورواه المهوشة إلى كلمات يفهمها الآخرون .

بدأ المؤلف يكتب. سجل ما تم من أحداث القصة من البداية حتّى لحظة نزول البطل مع الطبيب .

« الاحداث تصل الى الذروة »

في اليوم التالي أحس المؤلف بالفراغ . وبدت له صفحات قصته كوليد تنقصه الجرأة لكي يخرج إلى الدنيا . تسلل التعب إليه وسريعاً اتى بعده ملل قاتل وبدأ ذهنه يسبح في جو من الفراغ الذي لاطعم له . فكر في قصته وبطلها الذي لم يمض على ذهابه سوى يوم واحد . أخرجه من افكاره دخول البطل عليه . اللحظة ، تصور انه أخطأ في حساب الأيام . وقف البطل أمامه . لمح على وجهه علامات خيبة أمل ويأس من الصعب التعبير عنهما . جلس البطل ولم يتكلم. فضل المؤلف السكوت وأحس بكسل لذيذ .بعد قليل قام البطل وطلب من المؤلف ان يكمل القصة . دهش المؤلف . معنى هذا ان يقطع لسانه اليوم . ذكره بالايام الستة الباقية من المدة المتفق عليها . صحح البطل له كلامه :

– الأوان فات .

قال له : ان أي محاولة تبذل الآن لن تجدي. قد تكون ضرورتها أكثر من نفعها. لم يفهم المؤلف . طلب من البطل ان يجلس ويتكلم بهدوء وبدون انفعال . رفض الجلوس وبدأ حديثه بالحساب الزمني الدقيق باقي ستة أيام كفرصة خيرة يقول فيها رأيه في كل شيء مرة واحدة هذا صحيح . الواقع له منطق مختلف ، بالأمس نزل ، لف ودار في كل مكان . تكلم اللغة والمفردات ، هي هي . وما تحدث عنه يعاني منه الكل . أستمع له الناس . هزوا رؤوسهم ، مصمصوا بشفاههم ، خبطوا بأكفهم ، رفعوا عيونهم نحو السماء ، وافقوه على كل ما قاله بهزات من رؤوسهم . ثم مضى كل منهم لحال سبيله . عاد وناد . كروكرر انتهى وبدأ علا صوته حتّى تحول إلى صراخ . الكل كان يقول ان الحال أسوأ مما يقول أشار له البعض من بعيد وهمسوا في الآذان :

– مجنون .

ما يطلبه البطل من المؤلف بسيط :

– خلصني من لساني الآن وانه قصتك .

رفض المؤلف ، واصر البطل ، وهدد بهدم اللعبة من الأساس رضخ المؤلف وجلس الى مكتبه لكي يكمل القصة .

يذهب البطل إلى عيادة الطبيب ، بعد ان اقترض نصف اتعابه واقسط النصف الثاني بضمان مرتبه الشهري . في العيادة دون اسمه في كشف المرضى وجلس ينتظر الدور . دخل حجرة العمليات . أخبر الطبيب انه قال كل ما بنفسه ولم يعد في حاجة إلى لسانه هذا الطبيب بحرارة . قال له ان أيامه القادمة ستخلو من المشاكل . فاللسان هو العضو الوحيد في الانسان الذي وجد لكي يجلب له المتاعب. طلب منه الانتظار إلى أن يفرغ من كل مرضاه ثم يستأصل له لسانه . في آخر الليل كان الدكتور قد انتهى من مرضاه . تمدد البطل على مائدة بيضاء وأعطاه الطبيب البنج .

قال له :

— عد من واحد إلى ألف ..

بدأ لسانه يقوم بآخر الأعمال المطلوبة منه . لم يكمل حتى المائة الأولى . وبدأ عقله يطير وسط حلقات لانهائية . أفاق ليجد بجواره قطعة صغيرة من اللحم الاحمر الباهت في أخرها دم متجمد ، اشار له الطبيب ضاحكاً .

— ها هو لسانك ..

تمنى له أياماً رائعة بلا متاعب . أشار البطل للطبيب انه يرغب في أخذ لسانه معه . اعتذر الطبيب ، سيحنطه ويحفظه في أنبوبة توضع في حجرة انتظار المرضى بعيادته كدليل حي وعملي على مهارته العظيمة في أجراء الجراحات الدقيقة . ومن يدري قد تحتاج الدولة ذات يوم . ان تضعه في ميدان عام ، لكي يشاهده الناس في الصباح والمساء . فيعتبر من لم يعتبر بعد . قام البطل ، ارتدى ملابسه وصافح الطبيب بحرارة صامتة . ووجدان عليه ان يستخدم يديه وملامح وجهه . في التفاهم مع الآخرين .

أثناء سيره في الشارع بدت له أصوات الآخرين ، خافتة ، كأنها تصل إليه من عالم آخر بعيد عنه . شعر برغبة في الغناء . فتح فمه . وفاجأه ألم حاد ولم يخرج الفم سوى هواء دافيء مشبع برائحة دم ومطهرات وأدوية .

« ولكن النهاية هي المسيرة »

جلس المؤلف في انتظار عودة البطل إليه . لم يحضر . قضى أياماً لايعرف عددها في انتظاره . لم يذهب إلى عمله . ولم يخرج إلى الأماكن للجلوس في مقهاه المفضل ولم يناقش قضايا الساعة مع أصدقائه . تصور أنه لو ترك منزله لحظة واحدة . فسيظل البطل فيها ولا يجده .

طال الانتظا ر بدون جدوى . بدأ المؤلف البحث عن البطل . ذهب إلى عمله ومنزله ومسكن أهله . وجدهم يبحثون عنه . عاد المؤلف إلى منزله . مزق ساعات الانتظار بالقراءة . ودون أن يدري ، أصبحت ساعات الانتظار اياماً ، والأيام شهوراً ، والشهور سنة ، والقصة لم تكتمل ، والبطل لم يظهر . أبداً لم يره أحد . في المرة الأخيرة التي قرأ فيها المؤلف قصته بصوت عال حتى وصل إلى خطة اختفاء البطل . توقف عندها . فكر كثيراً . ومد يديه . مزق أوراق قصته الناقصة ببطء ووقار غير عاديين . مزقها ورقة ورقة . طبقها و كورها . وضعها برفق في صندوق المهملات الموضوع بجوار مكتبه . حمل الصندوق بنفس الهدوء . وبصمت فتح باب شقته . وعلى البسطة التي تفصله عن الجيران وضع الصندوق بعناية . همس لنفسه وهو يعود إلى مكتبه ، انه في الغد – السادسة صباحاً سيحضر الزبال ليفرغ محتويات الصندوق في عربته . حيث تختلط بكل نفايات المدينة . ويحملها إلى فرن كبير لحرق الفضلات .

هل انتهت القصة ؟ المؤلف لايدري والطبيب يعترض فاختفاء البطل بدد بطولته الجراحية . اللسان وحده لايكفي .

في الأيام الأخيرة انتشرت في المدينة شائعة تقول ان البطل شوهد في أكثر من مكان وهو يستخدم يديه وملامح وجهه في حديث طويل مع نفسه لم يسمعه أحد . حاول الطبيب والمؤلف أن يعثرا عليه ... لم يتمكنا من ذلك أبداً . كان المؤلف مستعداً للبدء في كتابة القصة الناقصة . أهل المدينة لم يبد عليهم جديد . كانوا يتكلمون ويأكلون ويشربون ويذهبون إلى دورات المياه . مصير البطل مازال غامضاً . في بيته نسوة وفي العمل تزاحم أكثر من موظف للحصول على مكتبه و كرسيه ودولاب أدواته . وتقدم مليون عاطل لشغل درجته المالية الخالية . إثنان فقط احتارا في الأمر . مدير شئون العاملين في المصلحة التي كان يعمل بها . ومأمور القسم الذي كان يسكن فيه ، لم يكن للحالة أي تكييف قانوني . فهو لم يمت ، ولا يعد من الأحياء . هارب أو مختف اين ؟ لا أحد يعلم . وهكذا تركت بعض الخانات في أوراقه ، ناقصة حائرة . أكثرهم حيرة كان المؤلف . فكر وعصر ذهنه . وخطط وجادث الكثيرين . وفي النهاية قال ان الحياة لاتساوي كل هذا وان الا نسان في زماننا ما هو الا حزمة تعسة من الأسرار . ضحك على نفسه ، وصفق بيديه . ووضع أمامه نفس الورق وأمسك بنفس القلم وأخرج لسانه وقرر ان يكتب قصة جديدة ، بعيدة عن موضوع القصة الناقصة الشائك . يسيطر عليها وعلى أبطالها من الكلمة الأولى حتى النهاية ويعيد بها ترتيب الكون بكل مافيه .

ومن جديد بدأ المؤلف يكتب .

القاهرة

البحر والعباءة

د . نذير العظمة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خلني أنا المنفي أكتب قصائدي البحر

هـذا المحيط المهرول من الأنغـام كسمفونيـة

ههنـا في أقصى الغرب حملت اليه أطفـالي

لننصت إلى هـديره

ونرمي كلماتنـا وضحكاتنا إلى موجه المتأرجح

نسبق إليه الشمس في غبش الفجر

نوقظ طيور النورس ونعبث بالأصداف النـادرة

تاركين آثار أقدامنـا القلقة على وجـه الرمـل

والريح تضرب وجوهنـا كالسوط

II

أيها البحر
يا عبـاءة السفر في مسافة الدهر
علمني كيف أتسلق حبال الضوء إلى أفق الفجـاءة
علمني كيف أفتح بوابات الفرح والطفولة
وأملأ بالسفن فراغ الأصـداف
مدينـة الحلم تنطفيء في الموج
تفرش جنـاحين على القلب
في النبض رصـاصة يابسـة
وفي فخ الزبـد والرماد الأبيض
تلتهب عصفورة النير بـين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

III

في السقوط تتطـاول قمم الرؤيـا
ينفتح سر الذروة والهـاوية
الإنسـان سمكة والعـالم شبكة
لا مفلت من الماء إلا بالموت
لا مخلص من الموت إلا بالمـاء
صرت واحـداً والبحر
هرولت والريح .

المرأة والبؤبؤ

I - « لا حناجر للصوت »

أيتها العارية أمام الحقيقة . بلا خيول تطارد النجوم الغريبة . وجوهنا مواسم الشوق وابتساماتنا غصص القلوب الطافحة بحصاد الدمع . بعيد عنك يا حبيبة في مسافات الكلمة المتمردة . لعينيك بريق الدم ، السد بلا ماء ، العشب يصلي للمطر والنبع مكبل في الأعماق

الصخر يحن إلى الماء ، والشمس سراب على الرمل ، هل يرقص شعاع على الخد ؟ ! الزمن يمجد الوسادة والمشاعر تنقط الهمس . جئتك بفرسين وأعراف من اللهب فامنحيني الحرية . علميني الطعن ودلق النبيذ ، اجلي نطقي بالنار والوثب كي لا يجر أطفالي أثقال الذل . القلب يتفجر دما على تراب الغربة ، يكره أن ينشف في غرف النوم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فم الليل ممتلىء بالسكينة . لا حناجر للصوت . أطأ العتبة فيصيح الديك . أمحو رؤيا الجدب ، أزرع النبض في الجسد الميت وأنثر بذوري في المزارع الراكعة لريح السموم .

II - « بؤبؤان في حدقة »

تخطفني عروس من البحر
نصفها الأول سمكة وباقيها امرأة بلا قلب
إلى غابات النار الخضراء نسبح معاً
الجنس قارة من ثلج
والدم أبيض في جسد المرأة السمكة
وأنا بؤبؤان في حدقة
وقلبان في صدر
تفاحات من النار والدم

تقطفهـا المرأة السمكة وترميها في الماء
ترسو في كهوف النبـاتات البحريـة
غـذاء لعرائس البحر الطالعـة
لبذور الارحـام المائيـة في الأعماق
وحيداً أطفو على السطح سمكة ميتة
وفي الأغوار الملحية امرأة من رخـام
تلعق حرائق الدم وتلد الأطفـال .

III — « ارسمي الشفق بدمي »

كلماتي خدر وغزلي نعاس أيتها المرأة الطاغية . على شفتيك أمكث وأنتظر الفم . في صدرك تستقبلني الأسرار وعلى خاصرتيك يتكشف لي عالم آخر يمتلكني من الشرش . الموت حكمي والحياة رايتي .

ما يهمني بعد وأنت معي ؟ ! تركت الرعب خلفي ، الموت لا يخيفني ، إنني أقوى من الموت ، على فرس الموت أعدو تلالك الصخرية وأقتنص الغيلان . لسرتك يصير المنفى مصره والأطفال أبطالا والحب حقيقة .

ما يهمني بعد وأنت معي ؟ ! . عرقك نكهة بابلية ولثمك لهب من حرير . نكتب قصائدنا بالدم ونخبز أرغفتنا بالفرح ونعود أطفالنـا لعبة السيف . خبزنا للجميع وللجميع ندلق الخمر .

صدرنا راية حمراء ، شراعنا يقطف البحار السبع وجباهنـا مرساة الحقيقة ، تستقر في القاع لتتألق المدينـة في واجهـة البحر .

لا تقلّي عينيك من عيني ، املئي رئتي بأنفاس الغربة يـا عشـيقتي الدائمـة . ارسمي على وجهي علامـة السنبلة في وطن الجدب . احفري قلبي بئراً للقافلة . أنت قيامتي من الموت ، دحرجي الصخرة عن صدري ، اربطيهـا بشعرك في الفضاء علقيها نجمة للمجوس الجدد .

من يجعل من جبل الريب هاوية ويقصف هامات الرجـال لتنحني للريح ؟ ! في زمن الاحتراق تمنح الحب لهبه ، والتألق صنع أيدينـا نمنحه للنجوم الخامدة .

معك أسكن على كتف غيمـة في كوخ جنيـه ولا أسأل الآخرة . عناقنا قصب الريح وسر النغم . قربيني من المقصلة الحيـاة شهادة . الغمي بي قلب الطاغية وادفنيه في جسدي .

أيتها الهاربة ، امنحيني خيـال الحقيقة . ارسمي الشفق بـدمي .

VI — « الحروف الغائبة »

ادخلي أبعادي ، خلنـا نفاجيء الحب ، نوقع الحلم بالفخ نفترس السر ، خلنا نفترع بحر الجسد بلهيب الغربة . كوج في ضوء القمر أهجم عليك من زاوية جديدة ، أنفرش عليك ، تتغلغلين في ، نتوحد بالليل خيمة المسافر الكبيرة خلنـا نعد النجوم الساقطة نركض وراءها كالطفل والفراشة .

ها إني أتكوم صخرة في حرارة وهجك ، ظلليني دالية كرمك واتركي عناقيد جسدك تغطي وجهي . افرطي كلماتي من القلب ، هجني لي الحروف الغائبة في كلمة الشوق . خلنا نوحد البحر والحب ، السفر والرؤيا . أصابعك على شفتي تأمرني بالسكوت ، وفـمـك الندي يتفتح وردة طرية للضوء في ليـالي المنفى الخريفيـة .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

رسالة إلى مصطفى

I

هـل نفقأ العين يا مصطفى ونعطل الرؤيا ؟ ! هل نطفيء مصابيح الحواس في العتمة الخائرة ؟ ! نرتطم في الأعماق سفينة تتأرجح إلى القاع وأجراس الضوء تعلن في الأفق ولادة الشـمس الجـديـدة . أواه يا مصطفى ساطور الجلاد تفصل ميمك عن صادك عن طائك عن فائك عن ألفك وأنت تتلهى بالحروف وتنمى الكلمة ، تتغنى بالشغاف وتنمى النبض ، قلبك التمزق ولسانك الوحدة ، تطمس وجـه النهر وترسم له طريق الهاوية ، تسجد في المحراب ولا تنشـد منـه إلى الواحد الأحد . ترسم السراب على شاكلة النبع والنبع على شاكلة السراب .

II

القلوب تنشخ في الحناجر وتجحظ في الأعين الحشاشة ، العطش والماء توأمان ، ها إني جئت من الغرب إلى الغرب والشمس حزينة على كتفي ، أستنطق الأحجار في المدينة ، ألطأ على أسوارها حمامة غريبة تنقر تاريخ الهزيمة بالحب والتغريد ، وبين أقواسها الساهمة أطير كعصافير الضوء . اللغة صارت كلمة والكلمة إشارة تشهد ولادة الزمن الواحد من صلب التقويم الناظر إلي بعين مفقـوءة ، الساعة عجوز هرمـة ، وجه مربـع يحلم بالتدوير يعبث بالتعداد نائحة في صمت وهي تقضم خبز الزمن الذي لا يسكت الجوع دقيقه دقيقة .

III

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يا ابن الجيران أنت بلا حيل ، تخشى من ضوء التاريخ وتتكوم في الشريعة . سقطنا من قبة الصخرة ، خلنا نتسلقها من جديد خـل عظام الوليد تتجدد فينـا ، اهترأ اللحم والمخيخ جـوزة يابسة ، تفرغ النخـاع والراس طابة نحاس ، القـلب رمانة فارغة .

خل هـذا الجسد يتعمد بالغربـة والشوق ، يتقصف بالكهربـاء -يتلوع في المنفى – خلنـا نسمي القاهرة باسـمها ونـنزع عن رأس دمشق الهـالة خلنا نشق جفونها لترى من جـديد . أواه يا مصطفى هـل تسمعنا نحن المنفيين في الوطن والغربـة نبضك الحي ، تمزق الخـلاص عن طفل الولادة وتترك الموتى للموت تعلق القصائـد الجديدة على ستر الكعبة ، تـدحرج الأصنـام إلى العتبة وترفع الشهداء ؟ !

متى يفلت انسـانـك مـن الغيب ، يتعمـد بالشـهادة يتوحد بالشـعلة واليقظـة ، يقترب في سـفر الحـق إلى الحـق ويحـج إلى ينبـوع الحركـة مسربـلا بالنبـض يتموج كالزلزلـة ويشـكل جسـد الأرض الجـديـدة ..

يوم عادي

هيفاء خليل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في يوم الاثنين
– يوم كباقي الأيام –
صحوت على طرقات بائع الحليب
نهضت متذمرة – كان الجو صحواً –
تأوهت قليلا لأنني سأذهب إلى العمل
إلا أنني تذكرت : كم لاقيت صعوبة حتى حصلت عليه
فسرت بخطوات سريعــة
مصطدمة بالعديد من الناس المسرعين مثلي
(فكرت : انهم يسرعون لحاق بعمل حصلوا عليه بصعوبة)
وقفت خلف صف طويل متدافعة لأصل قبلهم
وكل منهم يحمل في ذهنـه الفكرة ذاتها
حين جلست في الباص ابتسمت
لأنني حصلت على مكان للجلوس
بينما وقف المتأخرون وهم يتأرجحون
مصطدمين ببعضهم البعض
توقف الباص

نزلت
بهدوء
متوجهة نحو مكتبي .

لقـــاء

أراقب تحول الجبـل إلى شوارع
قـدوم الشاحنـات
قـدوم الشاحنات
ابتعادهـا السريـع
وتحول الصخور إلى أحجـار .
أراقب العمال ذوي الخوذات الحديدية
وهم يداعبون آلات تحولت إلى مرايا
كبيرة تعكس الضوء .
أراقبهم
وهم
يتأهبون
للقاء المدن الجديدة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

درس في الديالكتيك

كانت صحف بلدتنا الأسبوعية المليئة بالأخطاء
حافلة بالطرائف
الكلمات المتقاطعة
المسابقات الأسبوعية
ومقال رئيسي
عن مقتـل أحد الأشخاص
في حرب ما
في بلاد مجهولة

اليـوم

نستلم جرائد يومية مرتبة من قبل اختصائيين في التصميم
بعد أن راجعها مصحح اللغة عدة مرات
إنها لا تزال كما كانت
حافلة بالطرائف الكلمات المتقاطعة المسابقات اليومية
ومقال إفتتاحي
عن مقتل آلاف الأشخاص
في عدة حروب
في بلدان نعرفهـا .

دعـوة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اشتريت بيتـاً صغيراً
طليت جدرانه باللون الأبيض
رسمت في باحته بحيرة زرقاء
وعلى جدرانه البيضاء رسمت فوارس ذهبية
ذات أجنحة تتألق كلما أشرقت الشمس
أحطت البيت بأشجار خضراء خضراء

ثم

طلبت من الأنهار
أن تأتي لزيارتي
كلما شعرت بالملل .

نزهـة

قررت ، ذات صباح ، التنزه في الجبل .
تهيأت لذلك
وضعت في شنطتي
غيمـة شاحبة
جدولا صغيراً

وحديقة استعرتها من جاري .
تعثرت في الطريق
ببعض الأحجار الأشواك وبقايا عظام متيبسة
حين عثرت على مكان ملائم
اقترب مني
كلب أسود
ربت على رأسه
نظر الي بمودة
حمل شنطتي وابتعد .

حلم

أحلم بأطفال يبتسمون دائماً
ولا يجبرون على العمل
بنساء يبتسمن دائماً
ولا يجبرن على العمل
برجال يبتسمون دائماً
ولا يجبرون على العمل
حين أجد هذا حقيقة
سأكف عن الحلم .

دمشق – ١٩٧٦

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عــــذابـــــات

عبد الباسط الصوفي

شعر عبد القادر الحصني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ١ —

مطر في الداخل . .
ضميني يا ذات الأغصان المغسولة بالضوء
من أهوى نافذة تحبو على الموت .
وأنا قنديل يتأرجح في النافذة . .
ومطـــال الموت طويل .

* * *

— ٢ —

مطر في الداخل . .
أعراس لحزن . . وغربه .
طفل يتعرى كي يفهم لغة الشمس
ويركض . .

يركض . .
يغمض عينيه إذا فاجأه الفرح ليحمي قلبه .
من أيقظ فيه الكامن ؟
من عبأه بالشوق الجامح للسفر سوى عينيك ؟
اعترفي :
(إن عذابك كان غراماً)
إن غرامك كان عذاباً
اعترف بأن الليل صديق . .
والدرب إلى (أفريقيا) حريق .

° ° °

— ٣ —

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مطر في الداخل .
أبشر يا شجر الصفصاف .
صوتي يجرح رئة الريح فتنزف نهراً وضفاف
وشرايين الغيم تهرول ،
تمتـد ،
تضيق ،
تعرش في ذاكرة تفرش للغيم سماء .

قال الغيم : من شريان ما تبدأ قافلة الإسراء .
ندهتني من جرح الأرض قرنفلة بيضاء .
فصعدت . . صعدت . .
هويت . .
اكتشفت بأني أنحت تمثالا حجرياً للماء

° ° °

— ٤ —

مطر في الداخل . .
درويش يقرأ ورد السحر وينسل من كوة (زاوية) في الشرق . .
خيطاً يربط بين الحزن وبين العمق

* * *

— ٥ —

مطر في الداخل . .
ها . . وطني في . . فكيف أهاجر منه ؟
ها . . أغنيّي السمراء حريق يتجول في أعصابي .
الآن أحاكم وطني في . .
أدين وجوه الأحجار السوداء .
أدين الوقت !
أنتحر . . . ووجه حبيبتي الشاهد في محكمة الصمت .

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صدر حديثاً
عن وزارة الثقافة والارشاد القومي
عزف منفرد على الكمان
قصص
جورج سالم

فـــؤاد الشايـــب
فـي ذكـراه الســـادســـة

تجربة الواقع عند فؤاد الشايب

عدنان بن ذريل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هناك في حياة الأدب فترات انتقال بارزة ، يتساند فيها الجهد الأرادي للأمجاد مع عوامل الأنبثاق الطبيعي للأدب ؛ وغالباً ما يكون الانبثاق نفسه ذا دفع داخلي يفوق جهد الأدباء ، وأيضاً امكانات حاضرهم ، فيتجاوزها كلها يغلب رواد التجديد على أراداتهم ، وطموحهم ، ويفسر نفسه بنفسه بالطابع التاريخي والفني الذي يتركه في تجارب الجيل ، وأدب الأدباء كافة ..

وأن قلة نادرة من الموهوبين هي التي تستطيع الصمود في وجه تيارات التخارج والتطور ، مدها وجزرها ، بحيث تحقق رسالتها مهما كلفتها الظروف من المصاعب والمشاق .. وفترة (الثلاثينيات) وما تلاها من أدبنا العربي السوري هي من هذه الفترات الشاقة التي شهدت ولادة الفن القصصي ، القصة والرواية ، وكانت ولادتهما بالفعل شوطاً إرادياً ساعدت عليه ظروف الحياة والأدب وقتها ، فتوفر له رواد مخلصون حققوا المستوى اللائق المطلوب له ..

لقد تنوعت تجارب أولئك الرواد ، فتباينوا في أفكارهم وأذواقهم واتجاهم في الفن القصصي : فؤاد الشايب ، صبحي أبو

غنيمة ، شكيب الجابري ، علي خلقي ، نسيب الاختيار ، محمد النجار ، مظفر سلطان ، معروف الأرناؤوط وغيرهم .. وقد طوى الردى معظمهم اليوم، ولم يتركوا، ما عدا معروف الأرناؤوط الا النذر القليل من القصص والروايات ، وأيضاً المقالات والمحاضرات (١) ؛ وذلك بالفعل أذا كان يفسر عادة بظروف الأنتاج والنشر ، الا أنه دليل على أصالتهم ، وصدقهم مع أنفسهم ، وأدبهم ، والجمهور ..

ونحب في هذه الدراسة الكشف عن (نثر) فؤاد الشايب من مثل المقال ، والخاطرة ، والمحاضرة ، والذي ظل هذا الرائد للقصة القصيرة في سورية ينثره المرة تلو لمرة يبثه لواعج نفسه ، ومطامح فكره ووجدانه .. والذي يشكل وحدة مع قصصه وبحوثه ؛ بحيث تكون دراسته متممة للصورة الادبية والنقدية التي سبق أن قدمناها عن قصص فؤاد الشايب (٢) ، خاصة أنه يضم آراءه في الأدب والقصة والمجتمع والحياة ، كما يصور كثيراً من أحواله الخاصة والعامة..

أن أدب فؤاد الشايب صورة صادقة لنفسه ، ومجتمعه ، وعصره .. واذا كان من طبيعة الحياة الأدبية أن تصاحب ظهور الأدب والأدباء هالات من بهرج المجد ، أو زخرف الشهرة ، والتي سرعان ما تزول بموت صاحبها ، فان أدب فؤاد الشايب على العكس ، سواء قصصه أو نثره سوف يزداد تألقاً وبزوغاً ، لأنه أدب الصدق والأباء ، أدب الطموح والتقدم .

لقد تميزت كتابات (فؤاد الشايب) المختلفة بمسحة من المكاشفة البريئة في تصوير همومه بواقعه وعصره ، قل أن نجد لها مثيلا في أدبنا العربي السوري ، تظل علامة على العصر ، وأيضاً على تجربة صاحبها وأصالته.. وهي ما سنحرص على توضيحه في هذهالدراسة بحيث تكون فلذة لتحديد مواقفه من واقعه وعصره ، وسيرة الأبداع القصصي نفسه عنده ..

(١) نثر فؤاد الشايب إلى الآن غير مجموع ، ومنه عدد من القصص لا يزال مثل غيره في مكانها في الجرائد : الشام ، الأيام ، الاستقلال العربي وغيرها ، أو المجلات : الحديث ، الرسالة ، الثقافة ، الصباح ، النقاد ، المعرفة وغيرها ' ولعل ولده زهير الشايب يعمل على جمعها ونشرها . .

(٢) أدب القصة في سورية ، لعدنان بن ذريل، دمشق ١٩٦٦ ، ص ٨٨ – ٩٩ ، وقدم له المرحوم فؤاد الشايب . .

حقاً لم يعرف عن فؤاد الشايب انتسابه إلى جمعية أو حزب في حياته (١) ، بل أنه آثر خدمة واجبه عن طريق خدمة وظيفته كمسؤول عن الصحافة والاعلام في وزارة الداخلية ، ثم وزارة الأعلام ، حتى تسلم رئاسة تحرير المعرفة في وزارة الثقافة والأرشاد القومي .. ولكنه كان مثال الأديب الملتزم قضايا وطنه وشعبه ، منحها كل فكره وجهده فكان العالم (بالنسبة له) ينتهي حيث تنتهي سورية بحدودها — على حد قوله (٢) ..

أن ما حققه فؤاد الشايب في الثلاثينات، وأوائل الأربعينات ، من وصل الادب(٣) بالحياة والواقع يكفي وحده أن ينزهه عن الفضول أو اللهو أو أيضاً الهروب من الواقع النضالي حسب تعبير شاكر مصطفى ..

أن (فؤاد الشايب) في رأي شاكر مصطفى : — عبر (في قصصه) عن تلك النظرة الفنية القلقة التي كانت الطبقة الجديدة من المثقفين بثقافة الغرب تهرب إليها من الواقع النضالي أذ ذاك .. لم تكن الأهداف قد اتضحت لديه بعد ، ولا لدى غيره ، ولذلك أحب الناس هذا الانتاج الذي يمتع ، ولا يرهق (٤) — .

وأعتقد أن تعبير (هروب من الواقع النضالي) غير لائق ، وجائر يظلم هذه القصص السامقة التي قدت من روح العصر الوثابة ، العاملة للرقي والنجاح .. وأولى بنا اعتبارها جهداً نضالياً ، هي الوجه الحقيقي لتجربة الكفاح والتنوير وقتها ، بدليل أن تجربة فؤاد الشايب بالذات — وتشبهها في ذلك تجربة نسيب الاختيار (٥) — سوف تصير إلى الكتابة الاجتماعية ، والاشتراكية نفسها ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد شهدت الفترة التاريخية التي عايشها (فؤاد الشايب) عهوداً سياسية مختلفة ، تسلسل فيها عدد من الثورات والحروب والكوارث ، وهي الانتداب الفرنسي ، الاستقلال ، حروب فلسطين ، والعمل

(١) من المستحسن مراجعة المصدر السابق الذكر في ذلك كله . .

(٢) من مقال (مأساة نفس) له ، وسنعود إليه بعد قليل ، انظر فيها بعد . .

(٣) أنه يجيب على المتسائلين : (هل في محيطنا صور قصصية ؟ .) ألا يشعر هؤلاء بالحياة ؟ ! . جريدة الأيام ١٥ نيسان ١٩٣٥ .

(٤) القصة في سورية ، لشاكر مصطفى ، مصر ١٩٥٨ ، ص ٣٤٨ .

(٥) بخصوص رواية (سقوط الفرنك) لنسيب الاختيار ، راجع كتابنا السابق الذكر ص ١٠٤ — ١٠٨ ، والمعرفة عدد ١٦٤ نيسان ١٩٧٤ مقالنا عن الرواية السورية ، ثم كتابنا الرواية العربية السورية ، دمشق ١٩٧٣ ، ف ا . .

للوحدة العربية ؛ وكانت كلها ذات أثر فعال في المجتمع العربي السوري في جهوده لمواكبة التقدم الاجتماعي والحضارة العالمية ، وكلها كانت شيئاً يعايشه أديبنا الكبير بفكره ووجدانه وقلمه ، وترك فيه أثراً أدبياً من تجربته وروحه ..

وأدب فؤاد الشايب يمكن تقسيمه أذن إلى ثلاثة أنواع ، واكبت هذه العهود ، هي :

١ – القصة الفنية التي أوجدها في الثلاثينات وأوائل الأربعينات ؛

٢ – أدب المقال والخاطرة والمحاضرة والتي ظل طوال حياته يعمل لها ؛

٣ – البحوث الفكرية الاجتماعية والاشتراكية التي انصرف لها في الستينات ..

مفهوم القصة عند فؤاد الشايب

كتب (فؤاد الشايب) عدة مرات عن مفهومه للقصة ، دلل فيها المرة تلو المرة على واقعية ظلت تؤثر العفوية الحدسية في الفن القصصي تخضع لها المضمون والشكل فيه ، من حادثة ، أو عقدة ، أو فكرة ، أو أسلوب ..

لقد كان يتمثل القصة على أنها صورة ، أي قطعة من المحيط ، و لوحة ، وهذه المصطلحات (١) له استعامل إلى جانبها ومضة ، ولقطة ، ورؤيا شاعرية ليدلل على هذا الصنيع الفني الذي يتسقطه من داخليةنفسه ، ومن واقع المحيط حوله .

هذا المفهوم الواقعي الذي كما نرى صبغه فؤاد الشايب بصبغة نفسه وتجربته مفهوم خاص به ، كونه لنفسه ، لانقول فقط من قراءاته للغربيين أمثال جورج دوهاميل وغيره ، ولكن ليرضي حسه الواقعي والانساني في الأساس .. وسمعه في محاضرة عن أدب القصة (٢) ألقاها في نادي الكشاف بدمشق في أوائل الأربعينات يقول :

– أن الروائي مهما تجرد وانزوى وعلق بذاته وارتاح الى هواجسه وأخذ بوحي خاطره يظل ملازماً

(١) يقول : (القصة . . قطعة من المحيط ، تحمل مرغمة طابعي محيطها في نفسي وفي السوق الذي أتت منه وعادت اليه) الصباح عدد ٧ – ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤١ ؛ و (القصة عندي صورة زلت من منابع نفسي البعيدة المجهولة) الصباح عدد ١٣ – ١٩ كانون الثاني ١٩٤٢ ؛ (وخير القصص عندي ما كان لوحة أو صورة ، وان افتقرت إلى الموضوع من فكرة وعقدة وغاية) القصة في سورية ص ٣٣٠ .

(٢) الصباح ، عدد ٨ – ١ كانون الأول ١٩٤١ .

محيطه لا يمكنه التجرد عنه ؛ فالفن الروائي كما يقول (دوربودولا روشيل) هو مزج ماله علاقة بالبسيكولوجيا مع ما له علاقة بالمحيط ، فالموهوبون بالأنشاء الروائي انما يساقون إلى أجراء هذا المزج سوقاً لا أرادة لهم فيه تجري عليهم في ذلك نواميس قادرة . وقد أوضح الفكرة ، فكرة الأمتزاج لدى الروائيين ، (جورج دوهاميل) حيث قال : أن مرجع الروائي الوحيد هو حياته . فما هي حياته ؟ حياته هي رد الفعل المتسلط من نفس دائمة الاتصال بنفوس سواها ..

.. أن الروائي .. أنما يسقيكه من ينبوع تفجر من صدره ، وهذا الصدر قد صبت فيه جميع سواقي النفوس البشرية ؛ وقد قلت(سابقاً) أن القصة في نظري هي قطعة من المحيط عاشت في نفسي قبل أن تعود إلى المحيط .

ثم نسمعه(١)أذيعود إلى الموضوعي — كيف أكتب القصة ؟ — ، فينوه بعملية بنيوية هي في معظمها لا شعورية ، يربط فيها الأبداع القصصي بالعفوية ، والحياة الانسانية ، قال :

— أن القصة عندي وهي في دور تمخضها صورة تنزل من منابع نفسي البعيدة المجهولة لتكون في مضطرب الوعي دافعة طريقها دفعاً طبيعياً بكل ما فيها من قدرة لتكوين وجودها ثم لاخراج هذا الوجود .. هذه الينابيع البعيدة التي تنبجس منها تلك الصور هي كل الأرادة الخالقة التي تخلق قصصي وتوجد خطاي وتأمر وتنهي في جميع شؤون حياتي ..

... لا أعرف لميلاد القصة في نفسي عملية معينة ذات ميكانيكية خاصة كلما استنجدت أنجدت . . (القصة) انما هي ثمرة ناضجة تعبة على الغصن الذي يحملها ، فما تحتاج ثمرة قلم لتهوي .. وهكذا فأنني لا أكلف نفسي أي عناء في وضع الخطط والأشكال ..—

ويتساءل (شاكر مصطفى) بالفعل عن هذه الصور .. ما نوعها ؟ ويفندها قائلا : — أنها ليست صوراً اجتماعية مما يحكي بعض الأحداث المحلية وبعض التقاليد ؛ وليست صوراً نفسية مما يعكس الكهوف والأغوار اللاشعورية ويلقيها في النور : وليست صوراً من الخيال الجامع على بساط الريح !. أنها لقطات حية ولحظات متحركة من الحياة ، قطاع مستعرض للحظة من لحظات الواقع الهارب(٢).—

(١) الصباح ، عدد ١٣ — ١٩ كانون الثاني ١٩٤٢ .

(٢) القصة في سورية ، ص ٣٣٧ وما بعدها .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أي كما نقول اليوم هي لقطات حياتية ، ثم يظهر كيف يتحلل الشايب فيها مرة ومرة من العقدة وغيرها ، كما يرى أن قوتها في أن لها (تكنيكاً) في لاشعور المؤلف ، ينم عن ذوق مرهف ، وتصميم هندسي ، وحس فني (١) ..

وعند تأليفي كتابي أدب القصة في سورية عام ١٩٦٥ سألت فؤاد الشايب عن مفهومه للقصة ، وعن مصطلح (صورة) بالذات .. فأجاب بأن القصة عنده (ومضة من رؤى شاعرية) .. وأنه لايزال يصر على أنها (صورة) ، وأجمل الصور ما التقطته عدسة القلم خطفاً ، وليس من الضروري أن تكون حادثاً .. بل أن سرعة الحركة ، والرشاقة أجدر بها (٢) ...

الانساني والواقعي

هذا الاتجاه الأصيل لاشك اتجاه واقعي إلى الأفق الانساني ، أذ هو ينطلق من المحيط ليعود إليه ، ولكن علائقه اللاشعورية ظلت شيئاً من تجربة المؤلف ، حدسه ، وفنه وينم عن بنيوية ذات (نواميس قادرة) على حد تعبيره السابق ، قال (٣) :

— ليس لي شخصية تعيش وأخرى تنشيء في أدب الرواية والقصة . أن هذه الأرادة المركزية الرئيسية التي أحار في تسميتها فأدعوها (ينابيع بعيدة) مرة ، ومرة (إرادة قادرة) إنما توجه حياتي ، كما توحي صور أسديمية لقصصي .

. . هذه الذات ليست لنفسها وليست في أصولها ألا مجموعة طيفية للذوات الآخرين أولئك الذين يعيشون حولي وأعيش بينهم ؛ أن هذه الذا ت في مجاهل النفس البشرية هي الصوى الذي يرشد الى وجود تلك الينابيع الثرة في أعماق الحياة الانسانية ؛ أن هي ألا الوسيط بين جرفين : ينبوع الألهام السري ، وبئر الاصدار الشخصي . —

وستعود بعد قليل الى حيثية هذا التمثل الذي يقرب من تمثل تركيب بنيوي في منغرس في لاشعورية الحياة الانسانية وألهامها السري ، على حد تعبيره أيضاً . . ان الاتجاه في حد ذاته مشروع ، دفعت اليه طبيعة العمل القصصي الذي كان يؤسس فيه ، ويحدب عليه ، ثم جندت القراءات وقتها ، ولكنه انقلب عند فؤاد الشايب الى انتكاس

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) المصدر السابق .
(٢) أدب القصة السابق الذكر ، ص ٩٢ ، وجريدة الوحدة الدمشقية عدد ١٠١٥ .
(٣) الصباح عدد ١٣ السابق الذكر ، كيف أكتب القصة .

لاشعوري الى الداخل ، اكثر من كونه انتشاراً واعياً في المحيط، وتلك هي(الخاصة الشخصية) في تجربة الواقع عند فؤاد الشايب ، ظلت تدفعه الى الفكر والتأمل ..

لقد أراد فؤاد الشايب استكشاف الجذر ، وارتياد الآفاق البعيدة فأغرته المغامرة ، وأغرته القمم ، ولكنــه صار الى سديمية ، وعبث ، وهباء ، وهذه التعابير له أيضاً ؛ (١) وكان من تأصلها في نفسه أنه بإستمرار ،وكان من تأصلها في نفسه أنه في – تاريخ جرح – ينبي مقدمته يبحث عن نفسه في قصص لم تعد تعبر عنه ، فيصيح (٢) : – عبث !.. وكم معجزة من هذا العبث ؟ ! . –

في خواطر له ترجع الى مطلع عام ١٩٤٢ كتب يقول (٣) : –

– هذه صيحات تدوي بأفكاري
الخاصة قد لاتصدقها ، وقدلا تلتئم
ومذهب حياتك . . أني أؤكد لك
أن ماهو خاص بي خاص بك أيضاً
ولكنك قدتكون من الخادعين أنفسهم..

هذه صيحات قد لاتصدقها . .
وقد لاأصدقها أنا أحياناً ! ! ..
على أنني أحياناً أستطيع أن أغدو
(قصبة مفكرة) ! . – .

نعم ان كون الانسان أن يغدو أحياناً (قصبة مفكرة) هو كل البلاء ، وكل الشقاء . . وفي خواطر أخرى في نفس العام يقول (٤) :

– الانسان له وجهان كما تتجاذبه نزعتان : وجه من طبيعة الآلهة ، وآخر من طبيعة الحشرات والدود ، والمثالي رسول الطبيعة الآلهية في نفس الجنس البشري . المثل العليا أنما هي عمل مستمر في بلاد الحقائق على وجه الأرض ، وبين الناس في سبيل تغليب السمو في حياة الانسان الداخلية كفرد ، وفي علائق الأفراد كمجموعة بشرية ولذلك صارت الحقيقة همه . . ولكن ماهي الحقيقة ؟ . أهي شيء مثالي ، أو مثل أعلى ؟ . . أم هي الواقع كما هو موجود أم هي تأمل ذاتي يستلهم الضمائر ؟ . .

وفي مقال يقول(٥) :

(١) الصباح عدد ١٣ السابق الذكر وعدد ٤٢ – ٥ تشرين الأول ١٩٤٢ ؛ والنقاد عدد ١٦٠ – ١١ كانون الثاني ١٩٥٣ .

(٢) مجموعة تاريخ جرح ، بيروت ١٩٤٤ ، ص ٩ .

(٣) الصباح ، عدد ١٧ – ٢٣ شباط ١٩٤٢ .

(٤) نفس المصدر ، عدد ٤٨ – ٢٣ تشرين الثاني ١٩٤٢ .

(٥) المصدر نفسه ، عدد ٢٣ – ١٣ نيسان ١٩٤٢ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

– . . الجبناء الذين يتكسبون بالوهم كحشرة الزحار اذ تحس بالخطر ، فيهربون من مجابهة ذواتهم ، والانحناء على ضمائرهم ، يشيحون عن الحقيقة ، وصرامة الحقيقة . .

أنا لا أؤمن بدين النجاح اذا آمنت بكمال انسانية (أومانيزم) القرون الخوالي ، لقد كان الانسان خرافة قبل داروين . والخير للانسانية المتطورة المتدرجة نحو السمو أن تعرف أصلها في سلالة القرود في أن تتلمس منحدرها من صلب الأله . .

المثاليون الحقيقيون هم الذين ينطلقون من الحقيقة نحو المثل الأعلى دون أن تنقطع واشجة الحقيقة بالمثل . . أقدامهم في نار بطن الأرض ، وجباههم في السماء. –

ولذلك صار الى نظرة تشاؤمية وسلبية ، على الأقل بالنسبة لانتاجه ، وصار يفسر حاله من الاقلال فيه ، بأنه من جيل يريد أن يقرأ ، أو أنه في فترة تحتاج الى قانصي معرفة ، ومتابعي ثقافة أكثر من حاجتها الى ادباء منتجين (١) . .

ثم يفسره بالاضطراب المزاجي والتشتت (٢) ، وأيضاً عدم جدوى الكتابة نفسها ، وأن حمل الرشاش أجدى على نفسه ، وعلى البلاد منها ؛ يقول (٣) :

– أنني لأقسو بالدرس على ذاتي كل يوم ، وأقر بأنني عاجز مكسور ، وأدمغ هذه الذات من كل جوانبها بالعجز والقصور حتى ليضطرب مزاجي ، وتظلم آفاقي ، ويبدو نسيج انتاجي الأدبي عندما لابدلي من أن أنسج شيئاً كأنه خارج من فوهة مدخنة . –

أو يقول (٤) :

– ومن قال أنني شخصية أدبية أفسحت لها مجالات الاكمال . ومن قال أنني شيء في هذه الحياة ، غير أنني من جيل المحاولات الفاشلة . .

أنا من جيل العواطف والزعازع والأنقاض أعيش حياة مكدودة ملوعة ، من أقسى مظاهر بؤسها وعارها أنني لا أستطيع أن أكتبها ، أنا من جيل أقل ما توصف به حاله من العجز الروحي والمادي أنه جيل التشرد . .

(١) النقاد ، عدد ١٦٩ – ٥ آذار ١٩٥٣ .
(٢) وانظر مثلا النقاد ، عدد ١٦٠ – ١١ كانون الثاني ١٩٥٣ .
(٣) النقاد ، عدد ١٦٩ السابق الذكر .
(٤) النقاد ، عدد ٤٤٣ – ٢٢ آب ١٩٥٨ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

. . ولكني تحت قرع الزمان؟
وتحيب الكارثة كنت أرى كل حرف ينطبع على ورق تافهاً حقيراً لي كأحقرما تكون الذبابات تلعق أجنحتها بغبغ الشريط اللزج ؛ وأبلغ من هذه الحروف المزروعة على الطروس رشاش بمتطاقة يكون بيدي . —

وقد سجل في ذلك كله العديد من المشاهد عن تنكيل فرنسا بالثوار ، ثم القصف ، الأسرائيلي لدمشق عام ١٩٤٨ ، ثم مأساة اللاجئين الفلسطينيين وتشردهم ، مظهراً خوفه على أولاده المسمرين في كبده ، وأخوانه وبني قومه ، وغير ذلك . .

الادب اندفاع طبيعي لشخصية شعب

قدم (فؤاد الشايب) عدة تعريفات للأدب في اتجاهه الواقعي الأنساني الذي صار ينم عن تركيب بنيوي لاشعوري وقاهر كما رأينا ، وذلك بفضل أنه اعتبره من زاويته الخاصة التي ترى في الحياة نفسها مجموعة من العواطف والأعصاب ؛ يقول (١) :

— أن الأدب هو استكمال عناصر القوة والحرية في جماعة من الجماعات، أنما هو نتاج تلك الفعالية التي تعبر عن نفسها بحركات حرة غايتها النمو الصحيح واستكمال أسباب القوة . .

والأدب أذ ينم عن هذه الحياة الداخلية أنما يعبر عن أرادة الحياة في حرص على هذه الحرية التي هي شرط من شروط الحياة والبقاء والنماء . —

كما هو يقول (٢) :

— الأدب لايمكن أن يصطنع أو تمثل أشباحه على مسرح . أنه اندفاع طبيعي لشخصية شعب بلغ حداً من نموه الاقتصادي والسياسي والثقافي معاً . واذ يبلغ الشعب هذا الحد المقرر في زمن ما فلا بد له ليخصب من أن تلقحه الذات الأدبية بما تجمع في أعماقها من معرفة تسمو بأبعاد فوق مستوى المعرفة العامة . أنه لمن العدل أن نقرر أن مجتمعنا لايزال دون حده والمعرفة الأدبية دون مستواها. —

وكان (فؤاد الشايب) قبل ذلك(٣) قرر أن الشعر العربي منذ حملة نابليون

(١) الصباح ، عدد ٤٢ — ٥ تشرين الأول ١٩٤٢ .

(٢) النقاد ، عدد ١٦٩ السابق الذكر ، وسوف يقول إن الأدب ثقافة عامة ، وأخذ من كل علم بطرف ، المعرفة عدد ٣٨ ، نيسان ١٩٦٥ .

(٣) الصباح ، عدد ٤٢ الذي سبق التنويه به ؛ وقد عاد ففصل القول فيه في مؤتمر الأدباء الخامس ، ببغداد عام ١٩٦٥ ، انظر فيما بعد .

حتى الأربعينات مثل دون النثر أحزان الأمة وأفراحها ، ونزعاتها وآمالها ، وأن هذا التمثيل نفسه يدل على أن الحياة العربية مجموعة من العواطف والأعصاب والغرائز . في حين أن النثر متأخر ، ولايستجيب للحياة ، كما لاتستجيب الحياة له من حيث أن له مواضيع كان العقل العربي لايزال وقتها يقصر عنها بسبب هذا الواقع العربي . .

ومن هنا كان ينوه باستمرار بأن القصة شعر ، وأن القاص شاعر (١) ، كما يربط بين تقدم الشعر والنثر وبين الاصطراع مع المادة ، وهذا الاصطراع الذي يشكل في نظره ، ونظر نسيب الاختيار (٢) ، المشادة الكبرى في العصر ، وهي مشادة بشرية معضلة . .

وقد كانت له آراء نقدية في معظم الفنون الأدبية والتأليف الأدبي ، وكان يعجب بتوفيق الحكيم (٣) ويدعو إلى قراءته ، وكتب عن كتابي فن المسرحية بأنه فتح لم يسبق أحد إليه ، ثم قدم لكتابي أدب القصة في سورية ، فنعته بأنه كتاب أدبي نقدي فريد في بابه (٤) وموضوعه . .

أن فؤاد الشايب في ذلك كما في مفهومه للقصة يكتفي بتسجيل العلاقة الطبيعية بين ما هو نفسي ، وما هو اجتماعي ، ثم المزج بينهما من أساس رؤيا شاعرية ، وانسانية ولكنه لم يصل إلى مفهوم ما نسميه اليوم بموقف وجودي ، أو تركيب جدلي .. وانما الانتاج الأدبي والقصصي متعلق بناموس طبيعي مغروس في النفوس ، ويتم بمنطق طبيعي له ، وحسب تصميم داخلي ينبع منه . .

أن الواقع ، في نظر فؤاد الشايب وحدة مما هو داخلي وخارجي ، ذاتي أو من المحيط ، تتفاعل عناصرها فيما بينها ، ويتمم بعضها بعضاً ، حتى يسوي الصنع الفني نتيجة لها ، هو أيضاً صورتها . .

— لاشيء في الأدب ، الا وهو نابع من الواقع ، أو عائد إليه ، من الأساطير والخرافات والحكايات العجيبة ، إلى ما دونها من روايات

(١) في العديد من المقالات والتصريحات . .

(٢) الصباح ، عدد ٧٤ ، ٢٨ حزيران ١٩٤٣ وعلى الخصوص عدد ٨٠ — ١٦ آب ١٩٤٣ ، أنظر فيما بعد .

(٣) النقاد ، عدد ١٦٩ السابق نفسه . .

(٤) صدر فن المسرحية عام ١٩٦٣ ، وأدب القصة في سورية عام ١٩٦٦ . .

وسرود وحكايات . (الواقع) هو كما هو معلوم ليس ما وقع فحسب ، بل ما يمكن أن يقع ولا سبيل إلى معرفته الا بالتخيل ، ولعل أجمل الخيال ما يتخيل الواقع الانساني ، واحتمالاته الغير محدودة (١) . — أي الممكن الانساني ، في احتمالاته !. وهكذا بعد أن كان يتغنى فؤاد الشايب بالحرية والتقدم صار يتغنى اليأس ، والقلق ..

— يأس من الاصلاح والصلاح ، قرف من الدعوات إلى عالم جديد ، هزء بالمثاليات ، ودعاتها . لقد خرج العالم مسعوراً من حروب التقتيل والتدمير ، ومن خرج سالماً برأسه يود لو تطاح دونه ملايين الرؤوس . وقد أعربت المانفستية السارترية عن حقائق القرف والهزء والاستهتار والانغماس في سكرة عارمة هي سكرة المحكوم بالأشغال الشاقة عشرين عاماً يغادر الحبس ذات مساء فلا يطيب له ألا أن يعرج على تلك الخمارة القديمة التي ارتكب فيها جريمته الأولى (٢) . —

ثم يعزو ركود الأدب إلى القلق والاضطراب اللذين اجتاحا النفوس في البلاد ، بحيث لا سبيل إلى الانعزال عن تيارات العاصفة التي تهز العالم العربي ، ثم يورد مشاهد عن القصف الإسرائيلي لدمشق من الجو عام ١٩٤٨ ، ويعلق على ذلك :

— ويبدو لي أن الأحداث تمعن في مطاردة صاحب التأملات مطاردة ملحفة ، لتطارده من خلوة المكان وخلوة الشعور ، ولتقول له (يجب) أن تفعل شيئاً . . ولتذكره بالواجب ، وبالعمل ، ولتردد عليه بأنه مسئول . . لأطرح السؤال على نفسي مرة تلو المرة : لو خيرت أيها الرجل بين رشاش بمئة طلقة ، وبين أن تعطى خمس سنوات فراغ فأيهما تختار ؟ . أجيب وأنا أصرف أسناني فأحس تحتها التراب ، وأحس بلساني الجفاف والمر : رشاش بمئة رصاصة (٣) .

لقد صارت الصلة البنيوية مع الواقع ، والذي يصير هو نفسه إلى واقع امكان ، واحتمال كما رأينا صلة واجب ومسئولية

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) من حوار أجراه عادل أبو شنب معه ، القصة في سورية والعالم ، دار الفن الحديث العالمي ، ص ٣٩ .

(٢) النقاد عدد ١٦٠ الذي سبقت الإشارة إليه . .

(٣) النقاد عدد ٢٤٤ السابق الذكر . .

هانت إزاءها صناعة الحرف . . وبعد أن كانت تكفي ثمرة فلم لا جتناء ثمرات التجربة الشعورية واللاشعورية ، وبعد أن كان الأديب الأصيل في نظره يؤدي رسالته أداء تلقائياً مثل القيمة التي ترسل الصاعقة بدون أن يوصي عليها في مصانع الأسلحة (١) . . نجد أديبنا الكبير يصير إلى معاشرة الافكار ، وتأمل الآخرين في العالم الواسع (٢) . . .

وقد وجد (فؤاد الشايب) متنفساً لطموحه الفكري والادبي في مجلة (المعرفة) التي أنشأتها وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، وأسندت رئاسة تحريرها اليه . . وفي العدد الأول الذي صدر في آذار عام ١٩٦٢ يؤكد فؤاد الشايب على حرية الفكر والقلم ، وأن ليس للدولة في المجلة غير الورق ، ثم يأخذ وقتها بكتابة (جولات) شهرية تناولت في بادىء الأمر شؤون الفكر والفن والأدب، من شعر ونثر ومسرح وتصوير ومؤتمرات على الخصوص من زاوية قراءاته في الصحف والمجلات والكتب العالمية، والمحلية ، ونشاطاته ، ثم اتجهت إلى بحوث اجتماعية واشتراكية متنوعة . .

يذكر فؤاد الشايب مثلاكيف أنه في مؤتمر الأدباء الثاني الذي عقد في بلودان عام ١٩٥٥ انعقد رأي المؤتمرين على — أن الالتزام ينفي الالزام ، فهو إذن التزام داخلي عضوي طبيعي في عصرنا هذا ، وفي واقعنا القومي الماثل أمامنا (٣) — ، كما يحدثنا عن الموضوعات التي صارت تطرق في مؤتمرات الأدباء مثل القضية الاجتماعية ، والقومية العربية ، والتاريخ العربي ، ثم الاشتراكية العربية . .

وفي بحثه (الأدب والوحدة) الذي شارك به في مؤتمر الأدباء الخامس في بغداد عام ١٩٦٥ يعود عن فكرته إلى تمثيل الشعر والنثر لحياة العربية الحديثة والمعاصرة ، ويفصل القول في الشعر القومي والفكرة القومية ، ثم النثر الاصلاحي والاجتماعي ، ويطالب بجمع نثر الكتاب الاجتماعيين العرب ، كما ينوه بمحاولات الاستشراق في ترجمة الأدب العربي المعاصر (٤) ، أو التعريف

---

(١) كتاب القصة في سورية لشاكر مصطفى، ص ٣٣١ .

(٢) من حوار [السابق]، نفس المصدر ، ص ٤١ — ٤٢ (لم أتوقف عن الكتابة . . الخ . . الخ . .) .

(٣) المعرفة ، عدد ٣٨ — نيسان ١٩٦٥ .

(٤) وهي مختارات من الأدب العربي المعاصر تقديم جاك بيرك ، وكان عبد السلام العجيلي علق عليها في المعرفة عدد ٣٦ — شباط ١٩٦٥ ، نوه فؤاد الشايب بالتعليق في بحثه

http://Archivebeta.Sakhrit.com

به ، ويعلق عليها . . ثم يتساءل بروح علمية واقعية (١) :

— ما هي الطبيعة الطبقية في المجتمع العربي ، أهي ثقافية أم اقتصادية أم اجتماعية ، وبم نعالج عندما نعترف ؟ .

هل صحيح أن التخلف الاقتصادي والاجتماعي عرض لمرض التخلف الثقافي ؟ . ما هي حوافز التقدم وعوامل التخلف بين مجتمع عربي وآخر ؟ . هل الثروة قوامة على الإنسان ، أم الإنسان قوام على الثروة ؟ . وهل المجتمعات سواء في تقبل المبادىء ، وتطبيقها ؟ ! . .

ثم يشير إلى هزال ما قام لدينا من بحوث اجتماعية تثقف المجتمع العربي ، وتبصره بموقفه الاجتماعي ، والتاريخي ، ويحاول الرد على تهم التخلف ، موضحاً دائماً دور الثقافة (٢) ، والتثقيف ، حتى تقول (٣) :

— الدعوة إلى الوحدة دعوة إلى مكافحة التخلف والاستعمار في الوقت نفسه . . يبقى أن تستطيع القيادة رفع الشعب إلى مسوى الدعوة ، وهذه هي رسالة الوحدة . .

ويبقى أن ينعقد العزم ، على أن الإنسان ليس غاية الوحدة فحسب ، بل هو السبيل إليها أيضاً . —

رحم الله فؤاد الشايب ! لقد عاش يتهيب الأدب والتأليف لدرجة العبادة (٤) ، ويعمل لها بأمانة وإخلاص . . وحسبه أنه حقق فيهما انتصارات لا يمحوها الزمان ، تظل تحكي سيرة الإبداع والأصالة ، سيرة الصمود والصدق مع النفس ، والجمهور ؛ ولتحيا بجهوده الزاكية ، روحه في الخالدين..

http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) تجد نص هذه المحاضرة بكاملها في الكتاب الذي أصدرته اللجنة التحضيرية للمؤتمر في بغداد بعنوان — دور الأدب في معركة التحرر والبناء — بغداد ١٩٦٥ وهو في جزأين ، ج ٢ ، ص ٣٥٣ — ٣٩٥ ، والفقرة ص ٣٨٥ .

(٢) (الثقافة) في نظر فؤاد الشايب مثلاً هي عمل بناء ، راء النصر السياسي ، هي أيضاً بلاغة مكتسبة من فهم أحوال الزمان والمكان ، لتقوم بدورها المزدوج الفني والاجتماعي ، المصدر السابق ، ص ٣٥٩ .

(٣) المحاضرة في المصدر السابق ، ص ٣٩٥ . ثم نجده في مقالاته اللاحقة يقبس السياسة نفسها . .

(٤) النقاد ، العددين ١٦٠ و ١٦٩ السابقي الذكر ، والحوار المنوه عنه آنفاً ص ٤٢ . .

فـــؤاد الشـــايب

علامة متميزة في «تاريخ جرح» طويـل

جان الكسان

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

بين معلولا .. القرية العربية المتكئة بدعة على كتف احد جبال القلمون ، وبين «بونس ايرس» عاصمة الارجنتين وراء البحار رحلة طويلة ، قطعها فؤاد الشايب ـ رجل القلم الذي فقدنا في صيف مضى ـ لا كما يفعل الذين يختصرون الحياة على الخط الاقصر بين نقطتين ، بل في زحمة المعاناة الصامتة المريرة ، عبر تقلب انواء الاحداث، وتشعب سبل السعي الى جملة الاهداف التي صحت امتنا على اصوات الدعوة لتحقيقها ..

لقد رحل الرجل ، تاركا بين ايدينا كتابا يتيما هو « تاريخ جرح » ، ومشروع كتاب آخر نشر منه فصلا او اثنين هو « اوراقي » ، وجملة من الكتابات الادبية والصحفية وضعها عبر رحلة طويلة تحاول هنا ان نستقرىء مراحلها :

الرحلة طويلة .. تبدأ من معلولا .. قريته التي ولد فيها .. خطا فيها اولى خطواته التعليمية .. وكان لابد من متابعة التحصيل في كلية الحقوق بدمشق ثم في باريس ، حيث اتيح له دراسة القانون والاطلاع على الاداب العالمية باللغتين الفرنسية والانكليزية اللتين اجادهما ..

واستهوته الصحافة .. فتعاورت قلمه ونتاجه .. كان يكتب في الصحافة والادب معاً : « عندما كنت اكتب قصص (تاريخ جرح) بين ١٩٣٥ ـ ١٩٤٠ ، كنت اكتب في نفس الوقت في الصحافة السياسية ، وفي البحوث الاجتماعية ، شأني شأن كثيرين من شبان ذلك الزمن الذين ادركوا منابع الثقافة الغربية ،وشعروا بالاحداث العالمية الكبرى وتياراتها الفكرية تقرع عقولهم وقلوبهم ،

ولقد كانت كتابة القصـة جزءاً من معاناة التجربة الفكرية والفنية ، ولمونكن لننصرف كل الانصراف الى العمل الفني القصصي وحده ، ولقد كتبت شخصيـاً في الشؤون السياسية والاجتماعية اشـد اكثر بعشر مرات مما كتبت في ادب القصة لشعوري وشعور فئة كبيرة من المثقفين ، اننا اذا لـم نستجب لقارعـة العصر ، ونتجاوب مـع احداث المجتمع الذي نعيش فيه ، واذا لم نشرع اقلامنا في سبيـل مجتمعنـا لنعالـج شؤونه ، فليس هذا المجتمـع منا ولسنـا منـه » ..

وتمر بنا في المرحلة محطات ، او نمر بهـا :

□ في عام ١٩٤٤ اصدر « تاريخ جرح » عن دار المكشوف

□ وبعدها مثل سورية في كـل المؤتمرات الادبية

□ وفي عام ١٩٥٩ انتخب رئيسا لاتحاد الادباء العرب في سورية ..

□ وفي عام ١٩٦١ كان لـه الـدور الاول في تأسيس مجلة المعرفة التي رئس تحريرهـا حتى اوائل عام ١٩٦٦ حيـث انتدب مديراً لمكتب الاعلام العربي التابع لجامعة الـدول العربية في الارجنتين ..

يومها .. يوم غادرنا الـى هنـاك ، حياه الاستاذ اديب اللجمي الذي تسلـم بعدها رئاسة تحرير « المعرفة » بكلمة قال فيهـا :

«الاديب بالفطرة ، والموهبة ،والممارسة، فنان يزخر خيالـه بالصور الناطقة التي تزدحم تحت قلمه .. أصيل فكراً وبيانا ، رائد في دروب الادب حتى امام الاقلام الغضة الجديدة ، ذلكم هو فؤاد الشايب ، رئيس تحرير « المعرفة » وعقلهـا المخطط ، بـل ومخرجهـا مـن ضمير الغيـب الـى دنيـا الناس ..

كانت « المعرفة » مهنته ، مثلمـا كان « الفكر » عقيدته .. اعطى كلا منهما خـير ما جنت يداه وصاغ عقله » ....

الى ان يقول « وايمان فـؤاد الشايب بالانسان المفكر قوة تبدع القيم ، وتصنـع الحضارة ، وتشيع التقدم ، وترفع البشر من أديم الارض ـ اذا كانوا لاصقين بها الى منطقة التحرر منها والسيطرة على الطبيعة هو الذي دفعه الى ان يجعل من « المعرفة » مجلة للمفكرين والباحثـين عـن الحقيقـة والمستعدين للبذل في سبيلها »

وعندما احتدم النقاش في بلدنا حول واقع الادباء « المستريحين » الذين شكلوا طبقة من الموظفين الكبار ليستريحين والخروقفة على مدرج الجامعة أو حديقة المنشية اوسور مقبرة الدحداح ، دار حوار حول ادب فؤاد الشايـب ، فمـن قـائـل ان الـوظيفـة استهلكته .. ومن قائل انه فضل الراحـة على المعاناة ، او انه هجر الادب والقصة ـ « تاريخ جرح » ـ الى الابد ..

وكان لابد له من دفع التهمة او محاولة ذلك : « انا واحد من عشرات مـن الرفاق

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

والاصدقاء الذين صرفهم النشاط الفكري والاجتماعي والقومي عن مجرد النشاط الفني .. وبعض هؤلاء قد اعرض نهائياً عن الادب والفن ، واعتبر نفسي من النفر الضئيل من ابناء الجيل الذين لم ينقطعوا قط عن الخلوة العذبة مع الادب والفن ، فإن انقطعت فعلا عن نشر القصة منذ اكثر من عشرة اعوام ، فانني لم انقطع ابداً عن الكتابة فيها والتاليف دون نشر » ..

على ان الجدل استمر .. قالوا للرجل يجب ان يخرج هذا العطاء للناس .. وكان هو يريد ذلك ، فيهم ، ثم يتملل .. ويعود الى التامل والمطالعة : « امارس العمل الفني على ان متعة روحية .. بيني وبين نفسي عندما تتيح لي متاعب الحياة والتفتيش عن الرزق ذلك الفراغ الهادىء.. وكثيراً ما اكتب وامزق .. لانني عندمااطالع قصصاً لسواي ممن يكتبون ويؤلفون ، على المستوى الفني الرفيع . اقول لنفسي : لقد فعل غيري مايجب ان افعل ، ونشر ما كان يجب ان انشر ، وعندئذ تفوت لذة التامل عندي ، لذة النحت ، فاستكين للصمت والتامل ، عن طريق المطالعة » ..

مهما قيل في هذا الموقف ، فهو ، وفي بلدنا بشكل خاص ، موقف كثيرين من رجال الفكر والادب والمعرفة ، كانوا مبشرين بالعطاء منذ اليفاع ، بل انهم محوا في عطائهم ، الذي لم ير اكثره النور ، قطاعات كثيرة من ليل ماساتنا ومن حكاياتنا الخضراء ، من اعلى قصور المدينة الى اقصى اكواخ الريف ، ولكنهم اثروا الصمت ، وتنكبوا دروب الاضواء ومسالك الضجيج ، فكان هذا في رأي البعض شيئاً من حجب الجراح دون الرائين ، وفي رأي البعض الاخر انكفاء في درب العطاء « مواسمهم معلومة ومحسوبة على عقارب الساعة ، لاتخرج عن نظم قصيدة في ذكرى اربعين ميت ، او تهنئة رئيس برئاسته » وما دمنا في حكاية الفقيد الراحل، فلنقف قليلا أمام بعض آرائه التي ضمنها مراثيه لمن سبقوه من فرسان الساح الادبي..

يوم رثى ماري عجمي قال يخاطبها عن المتخاذلين الذين هرموا في دروب العطاء ! « هرموا ياعروس الخلود لان اعمارهم خيام مرتحلة بين صباح وعشية ، وغراسهم سرعان ماتذوي فوق تراب ليس لهم فيه جذور ولا بذور لانهم كاعشاب المواسم تاتي بهم دفقة سحاب ، وتذهب بخضرتهم لفحة شمس ..

ان حس الاقوام العريقة بمستقبلها يبدأ من يقظة الالتفات الى ماضيها .. هذه حقيقة اكدهاعلماء التاريخ والاجتماع ، ومن ظن نفسه يولد كاليل العرم تحت قرع السحب للارض الضحلة ، فليتذكر أن السيول لم تكن سوى شارات الدمار واعلان لغضب السماء على سكان الارض » .

وفي مقالته الشهيرة « شيء من التاريخ .. وشيء من الدموع » التي كتبها

في ذكرى وفاة الصحفي الاديب ساهي الشممة وقف موقف المتسائل امام العطاء المتفجر لاناس يختصرون رحلة الثمانين بالثلاثين :

« لا ادري كيف تطوي هـذه الارواح النادرة ثمانين عاما بثلاثين .. وتمر كالصواريخ الملتهبة في سماء الدهر ، كان بها شوقا الى الاحتراق والتحرر ، وانفا من التسكع البطيء ، والعيش الهادىء الهنيء، وهي لو قدرت لاختزلت كل الحياة ، بخط واحد ، هو اقصر الخطوط بين مرحلتين ، ومضت كالزوبعة الصارخة من المهد الى اللحد .. ثمانون عاما ؟ ..

اف .. ما اثقل هذا الدهر الطويل ، يتذبذب على ظهور حيوانات ، ترفع من الطين قدما لتضع في الطين اخرى .. بجلد كجلد الفيلة ، وصبر كصبر الحمير ، ثم لاتلبث ان تلفظ انفاسها في المستنقع » .

ونصل الى «اوراق» الراحل .. تلك التي ظلت بالنسبة للقارىء وعدا معلنا وغير منفذ طيلة سنوات ، كنا في توق لان نقرأ ما كتب الرجل بعد ذلك الصمت .. بل ان « دار الاداب » أعلنت عن الكتاب ونشرت فصلا منه في محاولة وضع صاحبه في الامر الواقع .. ولكن الاعوام مرت .. وظلت الاوراق رواية ناقصة بين مخلفات الراحل الكريم :

« كتبت هذه الرواية ثلاث مرات ومزقتها ثلاثا ، ثم عدلت عنها عندما ظهر لي أو شبه لي انني لم اصل الى قناعة حاسمة في تقرير مصير هذا الموظف الذي يكتب أوراقه ، أو انه هو كبطل لم يستطع ان يقرر مصيره بحرية » ...

ويروح فؤاد الشايب يحكي في حديث لمجلة « الاحد » البيروتية قصة بطل هذه الاوراق :

« انه يكتشف يوما بعد يوم ، في مذكراته، انه ليس عبدا لوظيفته في الدولة فحسب ، بل لمجموعة من الوظائف اخذ بعضها برقاب البعض الاخر ، فهو موظف عند أبيه المتقاعد صاحب الاراء المغلقة ، وعند امه التي ماتت تاركة وصية وظفته لها ، وعند زوجته البريئة الساذجة ، وعند اطفاله البكم الصغار ، وعند جيرانه ، وعند أهل الحارة، وعند حلقات مترابطة من المفاهيم والتقاليد والاوهام والناس والاصدقاء الذين يسعون لتحريره ثم سوقه الى حلقة معقودة منهم ، ليوظفوه ثانية ، ويوثقوا رجليه الى رأسه، ويدحرجوه في هوة المصير المشترك .. كل طريق تنفتح من طرف لتنقله من الطرف الاخر .. ان الصورة الوحيدة التي يتصورها لخلاصة هي صورته وقد دخل العوسجة وخرج منها تاركا لها قميصه الممزق ، معرى، داميا ، يستر ذاته بكفيه المعقودتين العاجزتين ويسير في المجهول المظلم بعيدا عن عيون الناس، عن الخطأ والصواب ، والحلال والحرام ، والمعقول واللامعقول » .. الى أن يتساءل الكاتب على لسان بطله المسحوق هذا :
« هل تكون النهاية بلوغا لذروة المأساة بمعنى

يفهم منه ان هذا المتمرد العاجز قد سلك طريق الضلال .. واذا كان يجب أن يكون على صواب ، فهل يعني ذلك أن الحرية قد بلغت خلال التجريد » ..

هنا .. نجد ان الكاتب يصدر في روايته هذه عن جملة انعكاسات لادواء بيئتنا الاجتماعية والاقتصادية في مرحلة انهى فيها شعبنا حرب الاسوار ضد المستعمر ، ليبدأ قتال الخنادق ضد طغمة الاقطاع والمستغلين وكبار التجار والبورجوازيين واذناب النخاسة السياسية .. ورغم قسوة المعاناة ، فان الخلاص في رأي جيل فؤاد الشايب كان هذا الانهزام الدراماتيكي : « دخول العوسجة والخروج منها بحالة العري ، والسير في المجهول المظلم » ...

كان هناك ما يشبه الثقة الناقصة بقدرة انساننا العربي الجديد على الرفض والتمرد والثورة ، وان كان هذا الموقف غير محدد ولا نهائي في فكر فؤاد الشايب ، مما جعله لا يجزم بهذه النهاية ، بل يقف امامها موقف المتسائل الذي يزاوج حتى بين شخصية الموقف المسحوق والكاتب الحائر : « اذا رأيت نفسي مندفعا في شارع مقفر ، رحت أسال نفسي : افعل ذلك في سبيل عملي الخاص ، أم في سبيل انشاء قصة ؟ ».

● والآن .. « مع تاريخ جرح » والوقفة ليست للدراسة بقدر ما هي وقفة في احدى المحطات الاساسية في حياة الراحل ..

تاريخ جرح شيء من تاريخ جراح طويلة كنا نداريها بالمسكن حينا ، وبسفود الكي حينا آخر .. وهو ، في تاريخ القصة مرحلة متقدمة لادب فؤاد الشايب بعد مرحلة العطاء الاولى في أول الصبوة ، وبعد أن : « كنت أكتب لنفسي .. لاصور هياج مراهقتي واحتدام حبي بلوحات صغيرة ، أو رسائل حزينة الى حبيبة مجهولة » .

بدأ مرحلة « تاريخ جرح » برصد تجارب وعذابات نماذج من الناس الكادحين منخلال سعيهم في مسالك العمل والقهر والتوجس والخيبة والفرح .. انموذج الامم المتوجسة من خطر قادم داهم في « ملاك الموت » .. والطالب العربي الذي يعيش بعقليتهالشرقية مع فتاة باريسية في « الشرق شرق » .. والجائع الملهوف الضائع في ضجيج الساعة التي تسبق الافكار في قصة « قبل المدفع »، وصاحب العربة الذي يتحداه صاحب السيارة في « جنازة الالة » ..

هذه النماذج من القصص ، كانت ـ في حينها ـ مرحلةمتطورة فعلابعد جملةاقاصيص كتبها آخرون معتمدين التصوراتالرومانسية المحضة ، ونذكر على سبيل المثال قصص محمد النجار .. ذلك لان فؤاد الشايب ـ والرأي من دراسة الاستاذ « أبو طالب زيان » في عدد تشرين الاول من عام ١٩٦٥من مجلة « الاديب » ـ يفهم القصة لا على انها حوادث وقعت ، او خيالات يضل الناس في

متاهاتها ، وانما هي قطعة من محيط يعيش فيه ، ويحياها في أعماقه ، أو خيالاته هو.. او في نفسه المسجلة الحافلة .. بل انه في عدد من اقاصيصه يتجاوز هذا المفهـوم ، ويعمق هذا المعنى ، ليؤكد الاطار الذي يجب ان يعطي الكاتب في خلاله ، ويجعل القصة نابعة من الواقع المحلي ،صاعدة الى الموقف الانساني المحيط ...

والآن .. مع محطة أخيرة في حياة الاديب الراحل .. فهو ، وان كان يعتبر القصـة مذهبا في الادب لايدانيه أي لون من الوانه، ولايصل الى قمته أي فن من الفنون .. الا اننا نراه ، في أواخر أيامه ، وفي « جولـة الشهر» التي كان يكتبها في مجلة «المعرفة»، يسعى الى مايسمى بالفكر السياسي بتسجيل مواقف من تيارات الفكر العالمي والاحـداث التي تترى هنا وهناك .. فوقفة مع القضية الفلسطينية ووقفة مع الاشتراكية وأخرى مع حاضر افريقيا ومستقبلها ، وثالثـة عـن الاستعمار ، ورابعة في مناقشة أعمال الزعيم الافريقي نكروما .. وذلك انسجاما مع رأيه الذي أعلنه في افتتاحية العدد الاول من مجلة المعرفة عندما اكد أن « المعرفة والبحث عن الحق والحقيقة بالمعرفة ، من تقاليد الفكر العربي ، والدأب ، والصبر ، وهدر العمر وراء البحث والتأمل والتفكير ، من صفات المفكرين العرب ، وتطعيم الحضارة العربية بمعارف الشعوب السابقة وعلومها ، مـن أبرز ما ميز ثقافة العرب الحضارية ،وليس لنا الا أن ندرك بعد هذا اننا لبثنا في نفق الظلام طوال أربعة قرون ، فسار موكـب الزمان ، وتخلفنا ، وبات محتما علينا أن نعوض ما فات تعويضا مركبا لنعيش في القرن العشرين ، لا في القرن السادس عشر ، تحت طائلة الحرمان من حق العيش أبدا..فبأي جهد ، وبأي دأب ، وبأي حب للحياة وحرص على البقاء ؟ . » ..

* * *

فــؤاد الشايب
بعــد ســـت ســـنوات

ظافر عبد الواحد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بدأ حياته الوظيفية كاتب رسائل في رئاسة الجمهورية سنة ١٩٤٢ ، وكان من المعروف أنه يعد خطب رئيس الجمهورية آنذاك . بيد أن موهبته كانت في اتجاه الأدب ..

وهو من رواد القصة في سورية .

قال الأستاذ اديب اللجمي في رثائه :
« بدأ فؤاد الشايب الكتابة منذ أكثر من أربعين عاماً ، بدأها في وقت كان للكلمة حساب ،وعلى قائلها مسؤولية . كان الأدب المتداول آنذاك أقرب إلى الشيوع منه إلى الطرافة . وتمكن فؤاد أن يختص لنفسه بأسلوب في الكتابة استمر يرافقه طوال حياته ،إنه أسلوب تفجير الكلمة من الداخل، لكي تعطي معاني جديدة ، أو لتوحي بمشاعر لم تكن توحي بها من قبل . » (١)

يقول الأديب الراحل إن أكثر قصص مجموعته (تاريخ جرح) (٢) جرى في روعه وحياته وتحت قلمه بين أعوام ١٩٣٠و١٩٤٠، وليس الا (العانس) و (ربيع يتضور) و (المعركة) من نتاج أعوام ١٩٤١ – ١٩٤٣، حيث نسخ هذه القطع عن مخطوطاتها

(١) مجلة المعرفة – دمشق – آب(أغسطس) ١٩٧٠ ص ٥
(٢) فؤاد الشايب – تاريخ جرح – منشورات دار المكشوف بيروت – الطبعة الاولى ١٩٤٤

واعدها للمطبعة التي انجزتها في ١٥حزيران (يونيو) ١٩٤٤ .

ويقول في خطاب له في افتتاح مهرجان القصة في النادي العربي في دمشق :

« كان علينا أن نقرأ باديء ذي بدء أدب الميثولوجيا الإغريقية ، وهي ثرة ، ومايدانيها من قصص الأسطورة المصرية والهندية وغيرها من أساطير الشعوب . كان علينا أن نغذي هوانا الادبي بقراءة الاسفار التي لفظ الدهر حكمه بخلودها كرسالة الغفران والكوميديا الالهية ودون كيشوت والفردوس المفقود وبعض الرذاذ من بحر شكسبير و (فاوست) على الاقل ورابليه، وكان علينا أن نمر ببعض راسين وكورنـي وموليير قبل ان نجرأ على بعض أبراج فولتير وروسو وقبل ان نصل إلى فرانس وزولا وبورجيه ولوتي ودوديه وموباسان . وهل لنا أن نسافر عبر ذاك النهر الكبير الذي ينبع من اعماق الأزل دون أن نستحم في بعض أحواض ديكنز وبلزاك وبروست ودوغار وجيد ودوهامل ؟ أممكن أن نعرف غوركي ونجهل دوستويفسكي ؟ وهلا يجرنا هذا إلى تولستوي وتورغينيف وبوشكين ؟ وهل يجوز لقاص عربي أن يكتب القصة العربية دون أن يحيط بنشوء فن القصة في تاريخ الآداب العالمية ؟ »(١) .

ويلاحظ خلدون الشمعة تميز « قصص مجموعة (تاريخ جرح) من بين كتابات جيل الرواد ، من أمثال محمد النجار وعلي خلقي ، بالبعد عن الاستطراد الريبورتاجي وبساطة الخط الواحد الذي ينتظم الموضوع وترابط الصور الفنية وبساطتها . » (٢).

« وقد تميزت هذه القصص بالإضافة إلى القوة النسبية في الربط بين المشهد والحركة فيها ، بنمو في التوازن بين عناصر القص التي استخدم معظمها . فثمة حوار وسرد مباشر ووصف وتحليل في (جنازةالإله) مثلا ، قصة تعرض لجابهة سطحية وساذجة مع الإله ، باعتبارها رمزا للحضارة الوافدة، وهي ليست صورة أو ومضة في هذه المرة، وربما قصة ريفية . »(٣) .

ويعتبر بدر الدين عرودكي هذه القصة أكبر دليل على الجهد المبذول في القصص التي كتبت في الثلاثينات (٤). ويضرب خلدون الشمعة بقصة (ملاك الموت) مثلا على تخلص تقنية الشايب من معظم عيوب الرومانتيكية . وتدور القصة « حول نبوءة غجرية بان ملاك الموت سيقتحم منزل أم ،

---

(١) مجلة النقاد ـ دمشق آذار (مارس)١٩٥٢ .

(٢) تقنية القصة القصيرة في سوريةخلال ربع قرن ـ مجلة المعرفة ـ دمشق ـ شباط (فبراير) ١٩٧١ ص ٤٣ .

(٣) المقال نفسه ص ٤٦ .

(٤) البحث عن هوية القصة القصيرةفي سورية العدد نفسه ص ٧٥ .

وتتحقق النبوءة ولكن بمصرع طفلها بدلا من زوجها المريض . وبالطبع لايمكن اعتبار مصرع الطفل الذي يعتبر بمثابة حادث (استبدال) بانه يمثل مصرع الشر ، وإنما هو رمز لعبث الاقدار التي تمنح الحياة للمريض مقابل سلبها حق الحياة من الطفولة . وهذه التقنية تقترب كثيرا من تقنية (موباسان) في واقعيتها الطبيعية وإغرابها أحيانا ؛ لابل إن هذه التقنية كثيرا ماتحجب ضعف المضمون وقصوره أحيانا . فالانسان ليس عاملا حرا في صراعه أمام الطبيعة . وهو قد يتعرض للفتك من قبل الجماعة دون اعتبار لثلاثين سنة من تاريخه كما حدث للزعيم الذي اتهم بالخيانة مجرد اتهام غير مقطوع بصحته ، كما في قصة (جموح القطيع) .(١) » . هذه القصة التي يعتبرها بدر الدين عرودكي «أكبردليل على طبيعة الفهم الذي تحكم بوجدان الكاتب في رؤيته للواقع السياسي والاجتماعي خلال فترة الحكم الوطني أثناء الاحتلال الفرنسي . »(٢)

وينقطع فؤاد الشايب في عام ١٩٤٤ عن كتابة القصة ليبدأ في كتابة روايتين كبيرتين، والخطب والمقالات .

كان النادي العربي ملتقى المثقفين القوميين في دمشق في مطلع الخمسينات . ولاعجب في أن يكون فؤاد الشايب من رواده بالمعنيين : الرائد الذي يزور ، والرائد الطليعة . ومن المحاضرات والخطب التي ألقاها في النادي محاضرة (كيف نجابه إسرائيل) ألقاها مساء ١٥ أيار (مايو)١٩٥١ ونشرها النادي في كراس . وأعاد فؤاد الشايب نشرها بعدخمسة عشر عاما في العدد الخاص الذي أصدرته مجلة (المعرفة) عن (القضية العربية) في صراعها مع الصهيونية العالمية، وقدمها بقوله :« وليس من جديد أضيفه . لقد كانت الرؤية واضحة لدينا نحن المواطنين العاديين . ولكن السياسات والقيادات هي التي ملأت طريقنا ضباباً وغباراً .. سرنا وراءها فلا نراها ، وسارت أمامنا فلا ترانا . » (٣) .

وألقى كما رأينا خطاباً في افتتاح مهرجان القصة في النادي العربي في عام ١٩٥٣ .

واذا وجدنا الفكر التحليلي في قصصه، فسنقرأ الاسلوب القصصي في مقالاته .

وينتقل من كتابة الرسائل في رئاسة الجمهورية إلى المديرية العامة للدعاية والأنباء في عهد الاستقلال .

(١) العدد نفسه ص ٤٧ .
(٢) العدد نفسه ص ٧٥ .
(٣) مجلة المعرفة ــ دمشق ــ آذار(مارس) ١٩٦٦ ص ٢٦٨ .

والمرحلة التي كانت فيها سورية مقبلة على الوحدة ، كانت فترة جدب أدبي في حياته ، فقد بذل نفسه فيها للعمل القومي ورأس الوفد السوري إلى مؤتمر الأدباء في القاهرة عام ١٩٥٨ ، ولم يفلح أحد في إخراجه عن صمته في المناقشة التي دارت في منتدى سكينة قبل الوحدة بشهر حول موضوع الأدب والقومية العربية .

وعندما تقوم الوحدة يغادر الشايب دمشق ويصل الى القاهرة عن طريق الكويت. ويذكر الدكتور يوسف شقرا الأيام الأولى التي خطط فيها مع فؤاد الشايب « لاصدار مجلة تستهدف إغناء الفكر العربي بموضوعات الحياة وموضوعات الفكر ..»(١) ويؤيده الشايب في أنه « أحد اثنين وضعا فكرة المجلة وخططا لها ، وتربصا ليوم تحقيقها. وكان ذلك قبل عام من صدورها.»(٢).

ويؤكد أديب اللجمي ذلك يوم استلم منه رئاسة التحرير : « ذلكم هو فؤاد الشايب ، رئيس تحرير (المعرفة) ، وعقلها المخطط ، بل ومخرجها من ضمير الغيب الى دنيا الناس . » (٣) .

ولكنني أزعم أن مدير النشرات الثقافية أديب اللجمي فكر منذ بداية أحداث وزارة الثقافة في اصدار مجلة ثقافية بالاتفاق مع الدكتور عبد الله عبد الدائم مدير الشؤون الثقافية والامين العام يوسف شقرا ووزير الثقافة والارشاد القومي الاستاذ رياض المالكي ،حتى كان الانفصال وعاد فؤاد الشايب إلى دمشق فعادت فكرة اصدار المجلة الى الظهور . وهذا ماعبر عنه فؤاد الشايب في العدد الاول من المجلة :

« عندما قررت وزارة الثقافة والارشاد القومي اصدار مجلة ثقافية باسم المعرفة ترامى الى هيئة التحرير ان الاسم كثير التداول في بلاد العرب ، حتى لايكاد يخلو قطر عربي من مجلة أو صحيفة تصدر الآن بهذا الاسم ، عن مؤسسة رسمية أو أهلية أو سبق أن صدرت به واحتجبت . وكانت لجنة الادارة والتحرير أمام قولين : قول يدعو الى اسم بديل وقول يلتزم الاسم الاصيل ، ثم أخذت اللجنة بالقول الثاني بلا تردد لان الاسماء الحسنى لايمكن أن يكون لها عوض ولايدني من قيمتها أنها كثيرة التداول بل قد يكون الانتساب إليها اسما ، أبعث على شرف الاعتزاز والتوفر لها فعلا . » (٤)

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) الدكتور يوسف شقرا – كلمتان وتحيتان – مجلة المعرفة دمشق – كانون الثاني (يناير) ١٩٦٧ ص ٢١٠ – ٢١٥ .

(٢) فؤاد الشايب – وقفة على الرصيف ..!! العدد نفسه ص ٢١٦ – ٢٢٧

(٣) مجلة المعرفة – آب (أغسطس) ١٩٦٧ ص ١٨٥

(٤) فؤاد الشايب – هذه المجلة – مجلة المعرفة – دمشق آذار (مارس) ١٩٦٢ ص ٥ – ١٢ .

وكرم الشايب الصفحات الأخيرة من المجلة إذ خصصها لجولة الشهر مع تيارات الفكر العالمي التي عالج فيها الموضوعات الفكرية والادبية والفنية .

كان اسمه (فؤاد) من المفردات القرآنية ، وكان في مقالاته القومية اقرب الى الإسلام حتى ظن مسلماً . وردته ذات يوم رسالة من مجلة (البلاغ) التي تصدر في النجف الأشرف في العراق ، يستكتبه رئيس تحريرها بحثاً في الدفاع عن الدين الإسلامي الحنيف . «قال لي رحمه الله « لم يبق إلا أن يضعوا على رأسي عمامة » .

وعندما توفيت عقيلة الأدب الرائدة الأولى ماري عجمي في ٢٥ كانون الاول ١٩٦٥ كان فؤاد الشايب بين زهاء عشرين محزوناً مشوا في موكبها . والقى في هذه الحفلة التي أقامها لتكريمها اتحاد الجمعيات النسائية في دمشق في مدرج الجامعة كلمة اختتمها مخاطبا الجمهور بقوله :

« إن تجمعكم اليوم في هذا المكان أيها الأخوات والإخوة رفض لتهمة العقوق ونية العقوق يرمى بها بلدنا وقومنا وانكار لقلة نكران الجميل ونية النكران . »(١) .

استغرق العمل في مجلة المعرفة عصارة جهد فؤاد الشايب :

« وإذا كان في الوظيفة أيام جميلة ، فقد كانت أيام (المعرفة) أجمل الايام حقا . وحسب (المعرفة) احسانا الى من كانوا في خدمتها ، انها في حرم الفكر حولت العلاقة بين الموظفين إلى علاقة بين إخوة وأصدقاء . وأحيانا ، كان وزراء يجالسوننا في الحرم كزملاء ، وقد وضعوا أيديهم على ركبهم وأنصتوا . ويتركوننا بين أيدينا أوراقهم كانهم لدينا محررون . فتطيب نفوسنا لمظاهر احترام الفكر — ولطالما كانت مظاهر مفتقدة — وإن تكن قد غدت في كثير من الظروف أعمق من مظاهر ، وأجمل من مجاملات . » (٢) .

* * *

ودعنا فؤاد الشايب مرتين : مرة حين غادر دمشق مديرا لمكتب جامعة الدول العربية في الارجنتين ، ومرة حين عاد الى دمشق في تابوت .

لم يطق الوداع يوم تأخر نقله الى الارجنتين ، فكانه مطل « من نافذة القطار كانه يغرق ... مناديل المودعين وكآباتهم ، الصفير المفجع ، ينبعث مع عمود بخاري قاتم لايلبث ان ينشر فوق الرصيف ظلا

(١) اتحاد الجمعيات النسائية في دمشق يكرم فقيدة الادب الرائدةالاولى ماري عجمي — نشرت هذه المجموعة تحقيقات الفقيدة في الجمهورية العربية السورية — ص ٢٠ .

(٢) مجلة المعرفة — كانون الثاني (يناير) ١٩٦٧ ص ٢٢٠

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وطواطياً ... جرس المحطة يقرع للمرة الثالثة والاخيرة ... عيون تفتش عن عيون ، بينما يبدأ القطار بالانسلاخ عن الرصيف انسلاخاً حاداً ... ثم المناديل ... والمناديل ... والغرق !! »(١).

هكذا رأى نفسه حين قرأ كلمات الدكتور يوسف شقرا في وداعه :

« غداً عندما تذهب بعيداً عنا وتطويك مسافات ومسافات سنبحث عنك في صفحات (المعرفة) مثلما بحثت أنت فيها عن (الشاعر القروي) وسنحثك على العودة مثلما حثثته عليها ... »(٢) .

وعاد الشايب في تابوت .

وفي آخر يوم من أيام دوامه في مكتبه في مجلة (المعرفة) ودعته حتى العتبة ، وكانت طائرته ستقلع في صباح اليوم التالي. واعتذرت عن عدم وداعه في المطار كيلا أتأخر عن الدوام . وكان حدثني عن ذكرياته في الوظيفة حين كان في القصر الجمهوري ، وكان الامين العام الدكتور نجيب الارمنازي في ذلك الحين يلاحقه في الدوام ، حتى نصحه الرئيس الراحل شكري القوتلي بممارسة نشاطه الثقافي في المكتب . قال : « خمسة اعوام مع المعرفة ، من خمسة وعشرين عاماً مع الوظيفة . ياللسماء ماأقبح العمر عندمالا يميزه شيء إلا طوله . عشرون عاماً من الحراثة في حقل الدولة ، مرة بأجر ، ومرة بلا أجر . وطورا بشكر ومئة طور بلا شكر . حراثة بمخلاة ، وحراثة بلجام . طعم الغبار، وطعم الدم ... وفي أسخى أيام الغيث والغوث ، طعم الماء المالح . يحسن إلينا ويغمرنا بعطفه من يقول : الله يعطيكم العافية. ومرات يطأ الحاكم العابر تلم الحراثة ثم ينكر فعل جزمته في الارض ويلعن الحارث والحراث . ويمضي بجمعان هولاكو.

وبعد مغادرته دمشق ودعه رئيس التحرير الجديد ، حيث قال الاستاذ أديب اللجمي عنه : « أديب بالفطرة والموهبة والممارسة . فنان يزخر خياله بالصورة الناطقة التي تزدحم تحت قلمه . أصيل فكراً ، وبياناً ؛ رائد في دروب الأدب حتى أمام الاقلام الفضة الجديدة » (٤) .

ثم نعاه :

« حين كانت مواد هذا العدد تأخذ طريقها إلى المطبعة ، نعت جامعة الدول العربية ، كما نعت وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي ، ووزارة الاعلام ، واتحاد الكتاب العرب ، ونقابة الصحف ، في الجمهورية العربية السورية،

(١) العدد نفسه ص ٢١٧ .
(٢) العدد نفسه ص ٢١٤ .
(٣) العدد نفسه ص ٢١٦ .
(٤) مجلة المعرفة ـ دمشق ـ آذار ١٩٦٧ ص ١٨٥ .

الكاتب العربي الكبير المرحوم فؤاد الشايب الذي توفاه الله في عاصمة الارجنتين ،بونس أيرس ، يوم السبت الواقع في ١١ تموز (يوليو) ١٩٧٠ . وكان الأستاذ الشايب يدير في عاصمة الأرجنتين مكتب جامعة الدول العربية ، ويعمل فيه بلا حساب للجهد والوقت . تولى رئاسة تحرير هذه المجلة منذ صدورها سنة ١٩٦٢ .... واستمر فؤاد الشايب ، بقلمه المبدع ولسانه البليغ ، ينشر المعرفة ، ويدافع عنها ، ويحمي حق العروبة في الفكر والارض والحياة الحرة ، ولم تكن وفاته المباغتة سوى نتيجة الجهد العملاق الذي بذله من ذاته ، ولم يبخل به على أحد ... شارك في نشاط العروبة الأدبي كاتباً قصصياً ، وناقداً لأعمال أدبية ومسرحية ، ومدافعاً عن قيمة الأدب والفكر ، وعن أهله ، باكياً إياهم حين كانوا يأفلون ، فكانت تنطلق الكلمات من قلمه لتتحول فوراً الى مشاعر بل الى فعل في نفوس قارئيه أوسامعيه . قدم بحوثاً جديدة إلى مختلف مؤتمرات الأدباء العرب التي شارك فيها ، وكان خلالها عضواً بارزاً فعالاً. وقد يكون البحث الذي قدمه إلى مؤتمر الأدباء العرب الخامس الذي عقد في بغداد سنة ١٩٦٥ من أجمل وأمتع البحوث التي تداولها المؤتمرون ... وأدرك فؤاد الشايب ما للكلمة والثقافة من دور في معركة الحضارة ... ثم بمضي فؤاد الشايب في نضاله الوحدوي ، من خلال القلم والثقافة ... وبهذه الروح وهذا الايمان استمر فؤاد الشايب يناضل في سبيل العروبة ، في بونس أيرس ، حتى وقف قلبه الكبير فجأة عن الخفقان ، ولم يقف فكره عن التأثير في بني قومه ... من حق فؤاد الشايب ، وحق الوفاء لهذا الأديب العربي الأصيل ، أن تكرس (المعرفة) لأدبه وفكره وحياته صفحات طوالاً في أعدادها المقبلة . أما الآن فنكتفي بطلب الرحمة للأديب الفقيد ، وبمشاركة أهله وإخوانه وأدباء العروبة ألم المصاب ولوعة الافتقاد .»(١) .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإذا الهى الأدب القومي الشايب عن قريته ، فكما يلهو الطفل عن أمه ثم يعود الى صدرها ليخفي فيه دمعه .

فلم ينس وهو مقترب قريته الناسكة بين الجبال ، حيث له حديقة يزرع فيها القرنفل وتسرقه الصبايا ، ويبتهج بزهر المشمش فتحرقه موجة الصقيع ، فلا يلبث أن يزداد ولعاً بزراعة الورود ، ولاييأس من رحمة الربيع بالزهور .(٢)

---

(١) مجلة المعرفة – دمشق آب (أغسطس) ١٩٧٠ س ٣ – ٨ .

(٢) فؤاد الشايب – وقفة على الرصيف ..!! مجلة المعرفة دمشق – كانون الثاني (يناير) ١٩٦٧ ص ٢١٨ .

قــراءات نقــدية

المــــرأة في كتابات نوال السعــداوي

رجاء طايع

ARCHIVE

طرحت نوال السعداوي في كتابين صدرا لها مؤخراً قضية المرأة ، أو اشكال « المرأة » وحاولت بلغة هي مزيج من علمانية العالم وموضوعية الطبيب ، والاندفاع الذاتي كأنثى أولا . وكشرقية عانت مع غيرها من بنات جنسها من محاولات الكبت والقمع والتشويه الاجتماعي ثانياً ، أن تلقي بعض الأضواء التحليلية العلمية على هذا الإشكال في محاولة منها لفك رموزه..

الكتاب الأول بعنوان « المرأة والجنس » وصدر في جزئين وهو عبارة عن مجموعـة دراسات عن المرأة . . . أما الكتاب الثاني فهو رواية بعنوان « امرأتان في امرأة » ونستطيع اعتبار هذه الرواية انعكاساً لآراء الكاتبة المتضمنة في كتابها الأول . . .

المراة والجنس :

تتميز دراسات هذا الكتاب بالانطلاق من نظرة شمولية الى أوضاع المرأة تاريخياً وبيولوجياً مع التركيز على محاولات التشويه النفسي والفكري والاجتماعي التي تعرضت لها المرأة ، ورصد مظاهر هذا التشويه في مجتمعاتنا العربية بشكل خاص .

هذا الطرح الشمولي لمشكلة المرأة عند الكاتبة أتى مدعوماً ومرتكزاً على آخر ماتوصل اليه العلماء من نظريات في البيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع ، وقد بذلت الكاتبة

اهتماماً في مناقشة هذه النظريات ، والاستشهاد بها ، وتفنيد بعضها استناداً الى نظريات علمية أكثر حداثة وتطوراً ، كما حدث في مناقشتها وتفنيدها لآراء « فرويد » في المرأة ، وفي محاولتها للبرهنة على أن هذه الآراء تكتسب أهمية مرحلية فقط ، وأنها أتت مغالطة للحقائق العلمية والطبية الحديثة ، وأنها انعكاس للتغيرات الاقتصادية الاجتماعية التي سادت العالم في مطلع هذا القرن .

كما أننا نستطيع أن نلمح من خلال مضمون الكتاب ، ومن مجمل تحليلات الكاتبة وآرائها ، التأكيد على العامل الاقتصادي والتركيز على أهميته كأحد الأسباب الرئيسية لدونية المرأة .

١ ــ المرأة تاريخياً :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في استعراض تاريخي مكثف تبين الكاتبة أن المرأة كانت في العصور المظلمة القديمة من التاريخ مساوية للرجل إن لم تكن تتمتع بمكانة أعلى . . إلى أن برزت ملكية الأرض . وكانت السبب الرئيسي لتزعزع مكانة المرأة ، فاستعبدها الرجل مع استعباده الأرض والعبيد وأطفاله . . ولاتغفل الكاتبة الأثر الكهنوتي للأديان في تثبيت هذه الأوضاع الاستعبادية للمرأة ، والتي بلغت ذروتها في العصور الوسطى وتأتي بأمثلة عن اضطهاد الساحرات الشريرات . ثم تعرج على العصور الحديثة لتكشف النقاب عن النظريات الخاطئة التي حاولت تحليل المرأة نفسياً وبيولوجياً ، وأن هذه النظريات ماهي إلا امتداد مقنع للنظرة الخاطئة للمرأة في العصور الوسطى ، وتدخل الكاتبة في مناقشة آراء فرويد في سيكولوجية المرأة وتحاول تفنيدها انطلاقاً من وقائع علمية أكثر حداثة .

٢ ــ المرأة بيولوجياً :

في تعرضها للطبيعة البيولوجية للمرأة تثبت الكاتبة استناداً إلى أبحاث في علم الجينات والكروموسومات . أن السلبية والضعف المنسوبين اجتماعياً للمرأة ليس لها أي أساس علمي وأن التكوين الجسمي للمرأة يعطيها فرصاً أكبر من الرجل من حيث المتانة والايجابية في الحياة ، لذلك فان فكرة سيادة الرجل على المرأة لأنه الجنس الأقوى أو الايجابي ليست الا من صنع المجتمع ، وأن هذا التفوق المزعوم للرجال على النساء ليس إلا دعاية ذكورية ، وتستند الى أحصائيات مختلفة عن حوادث الطرق أو الانتحار ، التي تبين أن نسبة إصابة

الرجال بها أكبر من نسبة إصابة النساء ، وتضيف أنه رغم صفات الضعف والعاطفية الملصقة بالمرأة فان النساء يتحملن الظروف الطارئة كالتهجير أو الغارات مثلا أكثر من الرجال .

ثم تنتقل إلى ناحية أخرى جديرة بالاهتمام وهي أن الملامح النفسية للذكورة أوالأنوثة تتحدد وتتشكل بفعل العامل الاجتماعي كموقف الوالدين والاخوة والأسرة تجاه الطفل كذكر أو كأنثى، بالدرجة الأولى، إضافة إلى أعضاء الطفل الجنسية من الناحية التشريحية والفيزيولوجية والقوة البيولوجية داخل هذا الطفل والتي تشكل الى حد ما الآثار المترتبة على العامل الاجتماعي .

٣ ـ المرأة نفسياً وفكريا واجتماعياً :

« حينما تولد البنت ، وبالرغم من أنها لا تستطيع النطق و التعبير عن نفسها ، إلا أنها تستطيع أن تدرك من النظرات من حولها أنها ليست مثل أخيها الولد . ومنذ أن تبدأ الطفلة تحبو أو تمشي ، تتربى على الحذر والخوف على أعضائها التناسلية . » .

تعتبر الكاتبة أن هذا الموقف الاجتماعي المبدئي تجاه البنت هو الأساس الأولي لجميع العقد النفسية والجنسية للمرأة وهو الذي يمنع نموها الطبيعي ، ونضوجها في المراحل المختلفة من عمرها . . ويأتي حادث البلوغ الذي يحدث في غالب الأحيان قبل أن تتكون لدى البنت تهيئة نفسية صحية وسليمة لتقبله بسبب الجهل أو التجهيل بأعضائها ورغباتها ، فتبدأ بدخولها سن المراهقة بالتعرض لمزيد من المحظورات والقيود ، ويكون رد الفعل الطبيعي تجاه كل هذا هو المزيد من الخوف والانكماش والكبت . وتشعر شيئاً فشيئاً بالفروق الضخمة التي يضعها المجتمع بينها وبين أخيها الولد ، الذي يخرج ويلعب ويقفز ، وهي التي عليها أن تتقوقع في البيت وتحرص على الاحتشام في ملابسها ، ويتولد لديها تدريجياً أن كل شيء فيها عورة تستوجب التستر والإخفاء .

ومن الطبيعي أن تشعر البنت بعد ذلك بالعداء نحو جسمها وأعضائها التناسلية والجنس، وترتبط كل هذه الأمور بالرجل فتشعر نحوه بالكراهية . . .

وضمن هذه الاجواء المحمومة من الخنق والكبت الاجتماعي ، نرى مسيرة النضج النفسي والفكري للمرأة تتعرض لهزات كبيرة ، وتصبح أكثر عجزاً عن التحرر من السلبية والاعتماد على الآخرين ، وتبقى كالطفل في مراحل نموه الأولى ، عاجزة عن الاستقلال والايجابية وحرية العمل ، مع الفرق الكبير ، وهو أنها تمتلك جسداً ناضجاً كبيراً .

والقسم الأكبر من نسائنا يتمتع بأجساد كبيرة وناضجة ، لكن نفوسهن وعقولهن ما تزال في مرحلة متخلفة من مراحل النمو ، وهذا التخلف هو أهم سبب وراء كثير من المشكلات والتشوهات الاجتماعية والنفسية والجنسية .

وعدم النضوج النسائي هذا ينعكس تلقائيا على الرجل رغم فرص الحرية التي يتمتع بها ، ويتجلى عدم نضجه اكثر عندما يزداد احساسه بإيجابيته. هذه الايجابية التي تتزايد طرداً مع تزايد عدم النضج والسلبية والضعف لدى المرأة . . . وتدريجياً تتحول هذه الايجابية إلى مبالغة في السيطرة، وميل الى الانانية والسادية، في نفس الوقت الذي تزداد فيه المرأة سلبية وماسوشية .

وسلبية المرأة هذه ليست صفة طبيعية بقدر ماهي صفة اجتماعية بسبب الضغوط والكبت ومايقال في السلبية يقال في جميع الصفات الأخرى التي ألصقها المجتمع بالمرأة والأنوثة ، وجميعها صفات غير طبيعية ، ودخيلة على طبيعة المرأة الأصلية .

وتدرب المرأة منذ الصغر على أن تكون جسداً جميلا فقط ، مما يزيد في تشويهها النفسي والفكري ، فهي تلزم بالكبت والتخويف الجنسي بقدر ماتشجع على أن تكون أداة امتاع جنسية للرجل .. وهذا التناقض الاجتماعي الذي تقع فريسة بين مخلبيه يزيد من تناقضات شخصيتها ، ومن استعدادها للاصابة بالقلق والأمراض النفسية المختلفة ، وخاصة اذا لم تكن مستوفية لمقاييس الجمال الموضوعة . وكم من البنات يشعرن بأن مستقبل حياتهن يتحدد نتيجة لمقاييس الجمال في وجوههن وأجسادهن ، مما يخلق لدى المرأة هاجساً وحيداً هو جمالها ، فتهدر غالبية وقتها في الاهتمام به ، مما يؤدي الى التأثير على ملكاتها الفطرية الابداعية الأخرى ، فتموت هذه الملكات شيئاً فشيئاً بسبب هذا المناخ الاجتماعي المشوه :

« يضع المجتمع النساء في تناقض حاد ، ففي الوقت الذي يجري لهن عمليات جسميتونفسية ليفرض عليهن العفة ويعدم احساسهن بمتعة الجنس يطالبهن بامتاع ازواجهن ، وإرضاء شهواتهم وقتما شاؤوا وكيفما شاؤوا ، فإذا عجزت الزوجة عن أن تلبي رغبة زوجها ، طلقها أو تزوج غيرها أو هجرها وخرج ليعربد خارج البيت مع المومسات أو مع غيرهن من النساء . » .

وهذا التناقض نتيجة طبيعية في مجتمع فقدت فيه المرأة مكونات شخصيتها ، أو

شوهت هذه المكونات ، وأفرغت من طبيعتها الانسانية وتحولت الى أداة ، أو سلعة أو بمعنى آخر شيئت . .

واستناداً الى ذلك ترتفع قيمتها اذا كانت بكراً . وتلعب القيم الأخلاقية المتعارف عليها دورها في تكريس هذه النظرة المبتورة إلى المرأة ، فالمرأة التي خبرت الرجل والحياة « لاتصبح أقل من المرأة الجاهلة الساذجة فحسب ، و لكنها تصبح مرفوضة كأنما الخبرة عاهة . » .

« والرجل يفضل الفتاة الغريرة الساذجة ، فلا تعرف لنفسها حقوقاً ، ولاتدرك لجسدها رغبات ، ولاتفطن إلى أن عقلها له احتياجات وطموح » .

وتعيد الكاتبة هذه الأمور أو هذه الظواهر إلى سببها المادي الاقتصادي . وإلى منطق البيع والشراء ، والعلاقات الإنسانية المشوهة والمتحولة الى علاقات نفعية مصلحية .

وهكذا نرى أن المرأة تشوه نفسياً وتخصى فكرياً ، وتشيأ اجتماعياً ، « وليس لها أن ترفض أو تتذمر ، وإنما تطيع وتستكين وتهدأ ، لأن الطاعة والاستكانة والهدوء صفات الانوثة الكاملة ، أما الرفض والتذمر فهي صفات ذكرية عدوانية تسيء اليها في نظر الناس ، وتشوه أنوثتها ، وتجعلها من هؤلاء النساء غير الطبيعيات أو المريضات نفسياً . ولهذا السبب تستكين معظم النساء ، ويكبتن في أعماقهن الكراهية للرجال والحياة ولكل شيء بما في ذلك أنفسهن ، وبسبب كراهية أنفسهن فإنهن يكرهن النساء الأخريات أيضاً ، وبالذات أولئك النساء اللاتي يكشفن الظلم الواقع عليهن ، فكأنهن يكشفن عن الجرح العميق المؤلم الذي ينزف كل يوم ببطء . وبسبب الألم والذعر والكراهية تمقت معظم النساء أولئك القلة القليلة من بنات جنسهن اللاتي يرفضن الظلم ويحاولن الاصلاح أو ينادين بالمساواة والحرية للمرأة . » .

والفتاة منذ صغرها تدرب على عدم الغضب ، وعلى عدم التعبير عن غضبها أو كراهيتها بفعل ظاهر ، لأن ذلك مناف لصفات الأنوثة ، ومشوه لجمالها . وهذه الكراهية المكبوتة ، والمقلوبة إلى الداخل ، تسبب لدى المرأة الاكتئاب ، وهذا الاكتئاب هو المعادل الحقيقي للعدوانية التي يظهرها الرجل كرد فعل ظاهر للغضب أو الكراهية ، ولهذا تزيد نسبة إصابة المرأة بالاكتئاب على إصابة الرجل .

« وهذا الاكتئاب ماكان ليحدث للمرأة لو أنها وجهت انفعالها الى الخارج كما يفعل

معظم الرجال . ولكن الخارج هذا (بعبارة أخرى المجتمع) يرفض انفعالات المرأة الطبيعية سواء أكانت كراهية أم حباً ، ويفرض عليها أن تكون مخلوقاً بغير انفعالات ، اذا أساء اليها أحد وانفعلت بالكراهية عليها أن تكبت هذه الكراهية ولاتحولها الى عدوان مماثل وإلا اتهمت بالرجولة والإنحراف عن المرأة الطبيعية » .

وهكذا نرى أن حياة المرأة الجنسية والنفسية والعقلية قامت دائما على الكبت، والحرمان من الفعل والممارسة ، لذلك كان طبيعياً أن تعيش المرأة حياة منفصمة ، أن تهرب من واقعها القاسي الى عالم تبنيه لنفسها من الخيالات والاحلام ، مما أدى إلى تعرضها الدائم للصدمات النفسية عند اصطدام واقعها الحياتي بخيالها . واذا بحياتها تنقلب إلى صراع نفسي دائم بين هذين العالمين . لذلك تغلب على المرأة صفة الإنفصام بين فكرها وممارستها ، فهي تفكر في شيء معين ثم لاتفعله ، أو تفعل شيئاً آخر مناقضاً لما تفكر به ، وهذا يعرضها دائماً للاصابة بالقلق النفسي والعصاب . .

وما القلق النفسي والعصاب إلا تعبير عن الإخفاق في عملية التكيف الاجتماعي المفروض على المرأة ضمن هذه الظروف المتناقضة . إنه تعبير عن الإخفاق في عملية كبت وجودها الحقيقي وقتله، والمرأة التي تسمى «الطبيعية» هي التي نجحت في قتل وجودها الحقيقي ونجحت في التكيف اجتماعياً مع الظروف القمعية المحيطة بها .

ويتناسب القلق النفسي طرداً مع ازدياد ثقافة المرأة ووعيها بوجودها الذاتي ، وازدياد ادراكها لضرورة مقاومة القوى الاجتماعية التي تحاول تحطيمها .

وتدعو الكاتبة المرأة الذكية والمثقفة إلى مواجهة صريحة مع القوى الاجتماعية المتخلفة، وإلى مجابهة مكشوفة سواء على صعيد الفكر أو الممارسة الحياتية ، انطلاقاً من ثقتها بنفسها ، وبقدراتها الإبداعية ، وتجاربها المتنوعة والمتعددة في نواحي الحياة كافة و « المرأة المثقفة التي تتمتع بصحة نفسية ، هي المرأة المتكاملة البناء في شخصيتها ، ومعنى ذلك أنها المرأة التي استطاعت أن تحطم التقاليد في داخلها وخارجها التي تفرض عليها أن تكذب على نفسها وعلى الآخرين ، واستطاعت بذلك أن تؤسس مستقبلها على أساس متين » .

وتتعرض الكاتبة لمشكلات المرأة العصرية في الزواج والأمومة والبغاء ، وتطرح حلولا لهذه المشكلات استناداً إلى مظاهر اجتماعية عصرية معينة في أنحاء مختلفة من العالم ، وبالتالي تكتسب هذه الحلول أهمية نسبية وتخلق مجالا واسعاً للمناقشة .

ولا تغفل الكاتبة أثر الحب في حياة المرأة ، وإغناء وجودها بالأصالة والحقيقة . هذا الحب الذي يقوم على التكافؤ والتبادل الجسمي والنفسي والعقلي ، بمعزل عن مظاهره التجارية والنفعية .

امرأتان في امرأة :

وتعتبر هذه الرواية تمثيلا فنياً لأهمية الحب الحقيقي في حياة المرأة وبلورة شخصيتها ، وتفجير إمكانياتها الإبداعية ، وتجربة الحب هنا تستوفي الشروط السابقة التي وضحتها الكاتبة في كتابها السابق . . الحب القائم على التبادل التام ، والتكافؤ ، والمعزول أو الذي خلق ونما بمنجاة من الظروف الاجتماعية المتخلفة ورغماً عنها وعن رواسبها المتغلغلةفي مجتمع شرقي .

وتقوم الرواية على المفاضلة بين ما كانت عليه الشخصية المحورية لهذه الرواية « وهي فتاة جامعية في مقتبل العمر ، تكمن في شخصيتها إمكانيات التميز والإبداع » ، وبين الأبعاد الجديدة الفنية التي اكتسبتها هذه الفتاة ، والنضوج النفسي والفكري الذي تفجر في أعماقها وحولها من طاقة إبداعية كامنة وسلبية إلى إنسانة تعي واقعها ، وتناضل متمردة لتغيير هذا الواقع عن طريق الفن والعمل السياسي المنظم . . .

كما تعكس هذه الرواية الآراء المطروحة في الكتاب السابق من خلال عملية رصد اجتماعي لسلبيات العلاقات الإنسانية وتناقضها ، وأثرها على التكوين النفسي والفكري للأنثى الشرقية .

* * *

يصدر حديثا
عن وزارة الثقافة والارشاد القومي
التكامل الفني في
العرض المسرحي
تأليف
الكسي بوبوف
ترجمة
شريف شاكر

مــراجَعات

مشاركة المـرأة العربيـة في الحيـاة العـامـة

ملاحة الخاني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مشاركة المرأة العربية في الحياة العامة في سورية — نبيلة الرزاز — منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٦

انقضى عام المرأة الدولي ، وبين أيدينا كتاب جديد صدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي للاديبة نبيلة الرزاز .

تقول السيدة الرزاز إنها انطلقت لدى وضع كتابها من بعض المنطلقات لحزب البعث العربي الاشتراكي التي اقرها المؤتمرالقومي المنعقد في تشرين الاول ١٩٦٣ :

« إذا كنا نريد فعلا أن نصل إلى تحقيق الاشتراكية فلا بد من تربية المواطنين جميعا إناثا وذكورا تربية اشتراكية علمية تعتقهم من كل الأطر والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتاخرة .

« ولما كانت النساء تشكل نصف سكان القطر تقريبا ، فالقطر لن يحقق تقدمه وتحرره واشتراكيته إن لم تسهم المراة في مجالات العمل فيه ، ولم تنزل الى ساحات النضال ولم تشترك في ممارسة الحقوق الديموقراطية ضمن المنظمات الشعبية ،ولم تتعلم ليكون لها دورها » .

من هذه المنطلقات ومن هذه الخلفية الثقافية السياسيةجاء بحث السيدة الرزاز دقيقا ، دؤوبا ، موضوعيا . تحسست الأحداث حولها . نظرت فرات المرأة التي كانت حبيسة الجدران تنطلق لتحتل مكانها في المجتمع ، لكن هل كانت خطوتها سليمة،

صحيحة ، جريئة ؟ عذا ماسنعرفه من معالجتها للموضوع الصعب الشائك الذي فتشت عنه ، مصادر كثيرة ووثائق قلما وجدت ، واذا ماوقع منها شيء تحت يدها فهو ضنين ، وقد يعود ذلك الى أسباب تاريخية ، اجتماعية ، سياسية ، أخفت المرأة مع الأيام وطمست معالمها ، وجعلتها أسرارا ومعميات ، تعصبا،وتحسبا ،وتخوفا.

من البداية : من هي نبيلة الرزاز ؟

أهي الكاتبة ، أم المربية ، أم المثقفة المناضلة الحزبية ؟ شأنها شان بنات جنسها اللواتي وصلن الى مرحلة الثانوية في أوائل الخمسينات . كانت لها مطامح كبيرة لاسيما بعد الأزمة العصيبة التي مرت بها البلاد حيث برزت ماساة تقسيم فلسطين . وكانت دولة اسرائيل . فالاحساس بالخطر اشتدت وطأته . واندفعت نبيلة الى العمل عن طريق العلم والجامعة فدرست اللغة العربية بكلية الآداب والمعهد العالي لاعداد المعلمين .وبعد سنتين من التخرج قررت دراسة الحقوق أيام حكم الشيشكلي والنضال ضد الدكتاتورية (خشية تسريح مقبل من الوظيفة كما تقول) .

استهوتها الأبحاث الشاقة والصعبة فكتبت أيامها عن سيبويه ، والمعتزلة (وهي من أنصار التفكير العقلي) ثم بحثت في النقد عند ابن رشيق . وقد كان على الطالب الجامعي آنذاك أن يتمتع بدأب النملة ليصل الى الأبحاث في الكتب الصفراء وليستخلص من بين العشرات منها بعض الأسطر .

من المواضيع التي عالجتها مقالات عن البياتي ؟

تقول في ذلك :

أعجبت بالبياتي وبالشعر الحديث نظرا لطريقته الجديدة في التعبير عن موضوعاته الشعرية المرتبطة ارتباطا كليا بالجماهير الكادحة العربية . فقضايا الجماهير قضايا انسانية والمعالجة لم تأخذ الشكل الخطابي ولا صورة من يغوص في ذاته . في « ديوان الموت والحياة » رأيت خطا يربط بين الماضي والحاضر ، وأن الموت قد يكون سبيلا للحياة ، أو الحياة للموت . حبي للأدب القديم جعلني أحب الجديد فاتجهت كذلك الى بدر شاكر السياب . وتابعت ما كان يكتب في مجلة الآداب ومجلة شعر . ان صلتنا بهذا الشعر صلة طبيعية تعود إلى طريقة حياتنا ، ونمط تفكيرنا من هنا كان كتابي عن بدر شاكر السياب الذي هو حاجة تربوية ، وفنية .

انطلاقا من هذا الجو الذي عاشته الكاتبة كتبت كتابها عن « مشاركة المرأة العربية في الحياة العامة بين عامي ١٩٤٥ ـ ١٩٧٤ » وفيه رصد لتطور التعليم عند المرأة حبيسة الجدران والتقاليد ، وضحية التخلف الذي أرسى قواعده الاستعمار في أنحاء البلاد ..

تقول نبيلة :

« إن تخلف المرأة في السابق كان نتيجة طبيعية لتخلف الرجل واستغلاله .. واليوم تحتاج البلدان الاشتراكية الى أيد عاملة

فنية وماهرة وبأعداد كبيرة .. وعلى ذلك فالنمو الكبير في اعداد العاملات في السنوات الاخيرة فيما بين ١٩٧٠ - ١٩٧٤ ظاهرة صحية حسب الاحصائيات الاخيرة . »

وتقول :

« لم تمنع الجدران العالية التي احتجزت المراة خلفها ووقفت ضد تطورها من أن تهب عليها نسمة الحرية إلى الضغط الكبير الذي لاقته البلاد في السنين السوداء منذ أن كان الاتراك يسوقون الشباب العربي الى قتال لاناقة لهم فيه ولاجمل . منذ تلك السنوات القاتمات ، هبت النساء من الم عميق احسسن به وعرفن ان العمل المفيد البناء لايكون الا مع الجماعة فانتظمن في جمعيات ألفنها لغايات قومية ووطنية وثقافية ولبث الوعي لدى الاناث .

فمنذ عام ١٩١٥ - ١٩٦٧ تدرجت المراة في تطورها نحو الافضل أي من بداية تاسيس جمعية « يقظة الفتاة العربية » التي قصرت نشاطها على تعليم الفتيات الفقيرات -(لكن الغاية الحقيقية كانت ايقاظ الوعي القومي العربي لدى الاناث) . حتى تاسيس «الاتحاد العام النسائي » في ٢٦/٨/ ١٩٦٧ ، كانت هناك جمعيات كثيرة ساهمت بنشر الوعي .

١٩١٦ افتتحت دار للصناعة ضمت ١٨٠٠ عاملة - ١٩٣٠ تاسست « جمعية النجمة الحمراء » ... ومن ثم توالت الجمعيات : ١٩٢٢ - « جمعية نقطة الحليب لرعاية الطفولة » - ١٩٢٧ « جمعية يقظة المراة الشامية » الت كانت غايتها تشجيع اليد العاملة النسائية في الريف - ١٩٣٦ « جمعية دوحة الادب » - ١٩٤٥ « اتحاد الجمعيات النسائية » وعمل على الاسهام بالكفاح الشعبي . وخلال وبعد الاستقلال برزت جمعيات منها :

الندوة الثقافية .. والحنان ، وجمعية الاسعاف العام النسائي ١٩٤٥ والميسرة الخيرية ، ١٩٥٢ ارشاد الفتاة ، حتى تجاوز مجموع الجمعيات عام ١٩٦٥ .٥ جمعية توزعت حسب نشاطاتها الادبية والثقافية . وكثيرا ماجمعت بين الثقافة والتعليم . فالندوة الثقافية النسائية كانت ذات أهداف اجتماعية ثقافية فنية . ورابطة النساء السوريات لحماية الامومة والطفولة : ترى أن هذه الحماية لاتكون الا بالاهتمام بكل القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الوطن ونشر الوعي السياسي والثقافي بين النساء وتعليمهن بعض المهن المناسبة .

لم يقتصر نشاط الجمعية النسائية على القطر بل تعداه ، فتوحدت الجهود والآمال وأسهمت المراة في المؤتمرات النسائية العربية والعالمية .

ويمكن القول بأن الجمعيات النسائية بالرغم من ضآلة الامكانات التي توافرت لها استطاعت أن تحقق خدمات هامة للمراة.

من الموضوعات التي عالجها الكتاب :

المرأة والنضال ضد الاستعمار :

وقفت المرأة مع كل الواقفين في وجه الاستعمار الفرنسي لصده منذ أن وضع قدمه على الأرض السورية في الساحل والداخل . وتوالت بطولات النساء في الثورات ضد الفرنسيين في الشمال والجنوب وفي دمشق وغوطتها حيث لعبت دورها الكبير . فتحت إزارها ، وحملت الرسائل ، واخفت السلاح ، ونقلت المؤن الى الثوار ، برزت في كل ميدان جريئة غير هيابة وسقطت في المعارك .

الفنون :

لم تكن الحياة الاجتماعية في سورية بتقاليدها وعاداتها القديمة تسمح للمرأة بان تمتهن العزف ولم تبدأ به الا بعد انشاء المعهد الموسيقي عقب اعلان الوحدة بين مصر وسورية في دمشق وحلب ، وفي مجال الرسم لم يكن هناك الا القليلات اللواتي مارسن الرسم ولكن اليوم بعد احداث كلية الفنون كفرع من الجامعة السورية تشجعت الكثيرات ممن يتمتعن بموهبة الرسم أو النحت أو الحفر وبدأن بممارسة هواياتهن ومتابعة دراسة الفنون التشكيلية ، بل وغيرها من فنون التمثيل ، حتى الاخراج .

وفي مجال الادب كانت الرائدات عنيدات جريئات قويات لايتراجعن ولايوهنهن كلل أو قسوة وجبروت . فالكاتبة ماري عجمي التي اصدرت مجلة العروس (١٩١٠) اضطرت الى ايقاف صدورها في مطلع الحرب العالمية الاولى ، ولكن توقف المجلة لم يفت في عضد الكاتبة بل اخذت توزع احاديثها ومقالاتها وتزور السجون . كانت ماري عجمي اديبة وشاعرة وكاتبة مقالات وصحفية مناضلة محبة للوطن .

اما عن المرأة الاديبة ابان الاستقلال فقد ذكرت فيمن ذكرت : السيدة وداد سكاكيني باسلوبها الانشائي العالي والافكار العميقة والتصور الدقيق . وفي اواخر الاربعينات . ظهر اسم السيدة الفة الادلبي التي قال « محمود تيمور » عن احدى مجموعاتها القصصية : « خير مافي هذه المجموعة انها من طراز خاص وشخصية مستقلة شرقية الجو » وفي الخمسينات ظهرت سلمى الحفار (١٩٥٠) التي قدمت كتب : يوميات حالة ، زوايا ، حرمان . اما في الستينات فقد ظهرت في الصحف اقلام نسائية جديدة فيها مداد جديد ومحاولات جريئة منهن :

ملاحة الخاني الدهني التي عنيت بتصوير صمود المرأة ووقفاتها البطولية الى جانب الرجل يوم سجن لدعوته التقدمية وايمانه بالاشتراكية .

غادة السمان التي عالجت فترة حرجة مر بها جيل كامل من نساء هذا البلد كله شوق الى الحرية وتمرد ، وتحد عنيف وارهاق وتعب وشقاء مع فرحة الانتصار وبهجة الحرية . كان أدبها جريئا صادقا صريحا فطرحت البراقع وخلعت القفاز .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتدفق الانتاج الادبي ، فصدرت للسيدة قمر كيلاني « أيام مغربية » و « يامال الشام » لسهام ترجمان ومجموعة قصصية للدكتورة انعام مسالمة ثم مجموعة من نوع جديد حول أدب الاطفال لدلال حاتم وليلى صايا . وكانت هناك الشاعرات المجيدات النابضات بشعرهن الدافىء الهادىء العميق ، كالدكتورة طلعة الرفاعي وعزيزة هارون ، وهيام نويلاتي وغيرهن .

الموضوعات التي شغلت المراة في أدبها:

١ ـ حياة الاسرة الشرقية وطريقة التعامل بين الزوجين أو الابوين والابناء ونظرة المجتمع الى البنت .

٢ ـ التقاليد والعادات التي أعاقت تطور المراة لزمن طويل .

٣ ـ المراة في نضالها التحرري من اجل الوطن .

٤ ـ مواجهة المراة حين نزلت الى ميدان العمل لتحديات العصر والبيئة وتمردها على التقاليد .

هكذا انتقل أدب المراة عن دائرة المراة الضيقة الى دائرة الوطن الاوسع .

ان ما خلصت اليه الكاتبة من بحثها الذي دعته باخلاص (وهو ليس بجديد لكنه يظل ضروريا ضرورة ملحة) . هو :

أن قضايا المراة غير معالجة العلاج الكافي، وليست لدينا صورة واضحة عن مشاكلها والدرجة التي وصلت اليها في مجال التقدم، المستوى الذي تطمح اليه ، فنحن علينا الا ننخدع بالنظرة الاولى التي نلقيها على المظهر العام حيث نرى الاعداد الكبيرة من المتعلمات والعاملات ، اذ أن الاحصاءات تعطينا الصورة الاصح وتكشف مدى الضعف في هذه النسبة .

الاسلوب الذي اعتمدته ميال الى العلمية فمن الاسطر الاولى حتى الاخيرة تواجهنا الكاتبة بصدق الموضوعية ، دون تحيز أو محاباة أو تهاون لا مع نفسها كباحثة ولا مع واقع بنات جنسها . تسير الفكرة عندها هادئة منسوبة الى النفس بثقة وخلفية علمية مدعمة بالارقام والاحصاء .

فالعلم كما تقول هو الغاية، وهو الوسيلة لتحرير المراة من كل انواع الاستغلال .

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقالات في الشعر الجاهلي

محمود موعد

صدر عن وزارة الثقافة في مطلع هذا العام كتاب (مقالات في الشعر الجاهلي) للناقد الفلسطيني يوسف اليوسف .

ونتساءل بادىء ذي بدء : ما دلالة عودة الناقد ، وهو المهتم اساساً بالادب الحديث الى ذلك الموروث المعمن في القدم ؟ .

يبدو لنا أن حافزه على ذلك هو ايمان بأن الأمم ينبغي لها في الأزمات ان تلتف حول تراثها ، الذي يجسد شخصيتها التاريخية واستمراريتها القومية .

وهاهي ذي امتنا العربية اليوم تمر بأخطر تحد حضاري يمتحن اصالتها وقدرتها على المقاومة والبقاء . وفي مثل هذه الحال لابد من تثبيت الاصول وترسيخها من جهة ، ومن جهة فهم الانسان العربي في سبيل اعادة صياغته من جهة ثانية ، ولا يمكن أن يتأتى لنا فهم هذا الانسان الا من خلال دراسة روحه وفكره وهما يتطوران في التاريخ ، والا من خلال دراسة مبدعاته وآثاره التي خلقها ، فوريثها الحاضر عن الماضي الذي مايزال يقيم فينا .

ولا تعدو الدراسات ، التي تناولت النصوص التراثية كونها توثيقاً واستعراضاً غير معمق تمس التراث مسا خفيفاً أو خارجيا من دون أن تتمكن من الغوص في مطاويه ، في الوقت الذي تتيح لنا فيه الدراسات الاجتماعية والنفسية والفلسفية والفنية واللغوية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحديثة فرصة الاحاطة الشمولية بالموضوعات الادبية .

ويغدو من واجب الناقد الادبي المعاصر ازاء هذا القصور النقدي ان يحاول التعمق في التراث ابتداء من الشعر الجاهلي ومرورا بالعصور الادبية كلها عارضاً اياه على محك المعاصرة . وهنا . . نلاحظ أن تحليل يوسف اليوسف لمعلقة امرىء القيس مثلا ، يحاول اظهار هذه القصيدة العظيمة وكأنها رفض للخطر الاجتماعي ، ومجابهة للقيم القامعة ، وان هذا الرفض جزء اساسي وأصيل من محتوى الروح العربية . ويظهر امرؤ القيس وطرفة والصعاليك من حيث هم المؤسسون الاوائل للمعارضة الاجتماعية في ثقافتنا العربية . وبذلك يظهرون وكأنهم معاصرون لنا . وعلة هذا أنهم يحاولون التعبير عما هو جوهري وثابت في النفس البشرية في ارتطامها بهذا الحلم بكل مافيه من ابعاد ، وان اختلفت وسائل التعبير ، بسبب من اختلاف الظروف والقيم والمعايير .

وتتأكد قيمة كل دراسة نقدية بالمنهج الذي تنهجه . ويحاول يوسف اليوسف ان يرسخ في النقد الادبي المعاصر ما يدعوه بالمنهج المتكامل الذي يمكن تعريفه بأنه اخضاع المبدع الفني لجملة المحتوى الفكري للناقد . وهذا يعني سبر كافة مضامين وثروات العمل الفني وبذلك يسير بالمنهج المتكامل شوطاً الى الامام في النقد العربي ، مضيفاً إلى ماسبقه رواد هذا المنهج اليه (١) . ان الاقتصار على المنهج الاجتماعي يعرض الناقد الى العجز عن الغوص وسبر كامل مطاويه لان هذا المنهج يأخذ بالحسبان ان المبدع الفني هو من نتاج مجتمع بلغ مرحلة ما من مراحل التطور ، مما ينسيه ان المبدع الفني هو من نتاج نفس ، لها معضلاتها الخاصة بها دون سواها من الناس . ومن هنا لابد من تكامل الاجتماعي بالنفساني . وبما أن حكم القيمة هو في جوهره نظرة الى المستوى الفني المبدع ، فقد كان من الضرورة أن يمتزج النقد الفني بالمنهجين السابقين . ومما هو من صلب تراثنا النقدي القديم نوع من النقد يسمى اليوم بالتحليل اللغوي ، مثله خير تمثيل اكبر اساتذة الفهم اللغوي للنصوص الادبية واعني به عبد القاهر الجرجاني . ومن المتعذر أن يقوم نقد متكامل بغير تحليل لغة النص الادبي ، والابداع الادبي كما نعلم لايكون الا من خلال اللغة الادبية الراقية .

وينبغي أن يزاوج هذا التحليل بين القضية الفنية والقضية النفسية للاديب . وهناك مسائل نقدية يمكن ادخالها الى النقد منها مثلا النقد الانتربولوجي الذي يفسر المبدع الفني من حيث هو تعبير عن مضامين اللاشعور الاجتماعي أي عن منظومة الصور

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المتواجدة في اعماق كافة ابناء المجتمع الواحد نتيجة لظروف بيئية واجتماعية واحدة . هذه الصور تبسط نفسها عبر المبدع الفني بسطاً عفوياً ولاشعورياً وفقاً المصطلح النفساني .

وخير مكان يتجلى فيه السبر الانتربولوجي للصور العامة واللاشعورية هو المقال الذي يحمل عنوان « اللحظة الطللية في القصيدة الجاهلية » وهو أهم مقالات الكتاب . وقد بين هذا البحث ان استهلال القصيدة بلوحة طللية ليس من قبيل الصدفة . وانما هو ظاهرة شمولية تقبل الترجمة والتفسير والحقيقة أن الشاعر لايتغزل فحسب وانما هو ينوح على قحط الطبيعة تماما كما لو كان (عشتار) التي تنوح على موت تموز (جفاف التربة) وكذلك هو يندب الحضارة التي لاتستطيع أبداً أن تترسخ في ظل هذا الظرف من القحط والجفاف ففي بعض الطلليات ولاسيما طلليات النابغة نحس ان مايعرض له الشاعر هو الانهدام الحضاري اللاحق بالعمران وكذلك بؤس التربة الذي يحرم الانسان من الاستيطان والتحضر ويفرض عليه تشرداً بدوياً غير مستقر . وفي بعضها الاخر وبخاصة طلليات زهير نحس أن مايعرض له الشاعر هو الافتقار للماء الذي ينظر اليه من حيث هو أس الحضارة . ان في اعماق شعر زهير كله تكمن الصورة اللاشعورية للماء ، بوصفه مطلباً حيوياً وحضارياً معا . وكذلك حال كل من معلقتي لبيد وعبيد بن الابرص ففي معظم شعر لبيد الذي يعرض للعلاقتين اتان وذكرها ، يقوم هذان الحيوانان برحلة لاتنتهي الا عند بلوغ الماء والكلأ . ان رحلة هذين الحيوانين هي الرحلة البدوية التي تتبع الينابيع والمراعي ، أو هي صورة لاواعية عن تلك الرحلة وعن مطلبها الاساسي .

وفي معلقة عبيد تتكرر كلمة (ماء) ثلاث مرات أما كلمة « جدب » ومشتقاتها فخمس واما الكلمات الدالة على انهدام الحضارة فكثيرة هي الأخرى ، واكثر منها مايتعلق بالماء من اسماء كالوادي والخرير والجدول والانسكاب والانسراب . . . . . الخ . و ليس هذا كله من قبيل الصدفة . أنها صورة البيئة ، وصورة افتقارها الى مقومات الحياة. وهذه الصورة تنبت عبر القصائد الجاهلية تلقائياً أو عفوياً .وليس لهذه الصورة وجود ثقيل في الشعر الحضري الاموي منه والعباسي نظرا لا ن المدن التي اخذ الشعر يتمركز فيها لاتعاني من ازمة الماء والانهدام الحضاري . وفي قسم ثالث من هذه المطالع الطللية نجد الشاعر تسيطر عليه فكرة الاحتجاج ضد القمع الجنسي . وخير من يمثل هذا الجانب امرؤ القيس وطرفة . وهكذا نرى أن هذا المنهج قد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حقق الكثير . ولعل اهم منجزاته يمكن تلخيصها في النقاط التالية : —

١ — الاحاطة شبه الشمولية بالنص بحيث تستقطر منه كل مايمكن ان يدوه من مضامين . .

٢ — تظهر القصيدة الجاهلية نتيجة لسبر كامل المعنى — وهي ما تبدو بسيطة لدى النظر اليها من السطح تظهر على أنها أعمق مما اعتدنا أن نتصور .

٣ — تغدو الصورة الفنية أكثر جالا والقاً ، بسبب من تبيان العلاقة بين الروح وبين شرطها الخارجي فلم يعد ممكنا النظر الى الشعر الجاهلي كما لو كان رماداً ساكناً لاننا نكتشف فيه العنصر الكلي ، الذي يوحد الانسان في كل زمان ومكان .اننا لانملك اليوم شاعراً يحتج على الشعر الجنسي مثلما احتج امرؤ القيس (دارة جلجل مثلا) على الرغم من أن عصرنا الراهن هو عصر التحرر الكلي بعامة . وبذا يبدو الشعر الجاهلي اليوم جديداً .أنه جديد بمحتواه على الاقل .

اما مالم يحققه هذا المنهج وذلك بسبب من كونه مايزال في المهد منتظراً من يطوورونه ويخصبونه من النقاد ، فهو اكتشاف التعميات الفلسفية المتعلقة بالروح الجاهلية واقتناص هذه التعميات في نصوص الشعر الجاهلي نفسه . ان المنهج الفلسفي في النقد الادبي وهو منهج يسود في فرنسا الان ، بقي خفيف الحضور في منهج هذا الناقد .

وتحاول لغة هذا الكتاب ان ترسخ مصطلحات نقدية مسحوبة من الفلسفة وعلم النفس الا أنها تخلو من اشتقاقات غريبة في بعض الاحيان عن اللغة العربية . ومن جهة أخرى نرى أن الناقد يؤثر تعابير والفاظاً كان من الافضل لو أنه استبدل بها عبارات والفاظاً أكثر التصاقاً باللغة واسهل وقعاً على الاذن العربية .

وتبدو بعض المصطلحات في منهج الناقد ، غريبة على الثقافة العربية وهجينة على الشعر الجاهلي .

وكذلك نرى أن بعض التفسير اتتلوى عنق النص ، أحياناً ، وتفسره على أن يقول ماليس فيه ، وتعطي بعض الاحكام عن شخصيات الشعراء مالا يليق بها .

ويبدو الناقد مطمئناً الى نتائج مدرسة التحليل النفسي ويتعامل معها باعتبارها قوانين ثابتة ، مع أن علم النفس مايزال يطمح حتى الان ليصنف في زمرة العلوم من جهة ، كما أن كثيراً من نتائج مدرسة التحليل النفسي قد تبين خطؤها .

وكان أولى بالمؤلف أن يقوم بتنسيق المقالات وترتيبها لتكون مقالات في كتاب متكامل وليست متفرقة في المجلات .

ويبقى في الكتاب جوانب وتفصيلات لم نتعرض لها ونرجو ذلك في مناسبة أخرى وكان حسبنا هنا أن نشير الى أهمية هذا الكتاب وقدرته على اثارة الحوار .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عنصرية
دولة إسرائيل

الياس زحلاوي

قلما يرتفع صوت في الغرب ، يتهم اسرائيل بالعنصرية .

اما ان يكون صاحب الصوت يهودياً واسرائيلياً ، ويتخذ من باريس منبراً له ، فتلك هي المفاجأة .

صاحب الصوت : الدكتور أسرائيل شاهاك ، مدرس الكيمياء العضوية ، حالياً ، في الجامعة العبرية بالقدس .

وله في فرصوفيا ، ببولونيا ، عام ١٩٣٣ . فخبر ، وهو بعد في السادسة ، الحكم النازي . وقدر له ان يقضي عامين كاملين (١٩٤٣ - ١٩٤٥) ، في معسكر الاعتقال في « بركن بلسن » ، ويخرج منه حيا .

قدم فلسطين عام ١٩٤٥ . فشهد نشوء الدولة الصهيونية . ودان بايديولوجيتها لسنوات طويلة . الا ان عدوان حزيران عام ١٩٦٧ ، فتح عينيه ، فانقلب على الصهيونية . وبدأ نضاله منذ عام ١٩٦٨ ، ضد كافة مظاهر الظلم والعنصرية ، عبر لجنة الدفاع عن حقوق الانسان والمواطن . التي كانت انشئت عام ١٩٣٥ . وانتخب رئيساً لها في عام ١٩٧٠ ، ومازال يشغل هذا المنصب الى اليوم .

اسرائيل شاهاك ، اسم لم يكن ليسمع به ، خارج الدولة الصهيونية ، إلا القلة القليلة . حتى ظهر كتابه في باريس في أيلول عام ١٩٧٥ . واذا به صوت مدو ينطلق من داخل اسرائيل ، يدينها

ويدعو العالم لادانتها . وهو يحمل عنوان « عنصرية دولة أسرائيل » ، وقد نشر ضمن المجموعة المسماة « حقائق » .

مما لاشك فيه أن ماجاء فيه من حقائق، يبرر ما كتب بالحرف الكبير على غلافه الاخير :

« مؤلف هذا الكتاب مهدد بالموت ، من قبل الفاشيين الاسرائيليين . فهو يفضح التعذيب وتدمير القرى والتميز العنصري والاستيلاء على الاراضي العربية ، والاحتلال الوحشي والقمع . اجل هذا كله يحدث في اسرائيل . وان تصديق هذه الامور يحتم قراءة هذا الكتاب الرهيب ، الذي يكشف للمرة الأولى النقاب عن وجه اسرائيل الخفي » .

وجه خفي . . نقشت عليه التواريخ والاسماء والارقام باحرف من دم .

وقد جاء هذا العمل حصيلة سنوات طويلة من تقصي الحقائق ، وتتبع الاحداث بصبر ودقة . وممارسة الاحتجاج كتابة وتظاهرات عبر الشوارع ، او مراجعات لدى السلطات المختصة ، وسط ضغوط أنصبت عليه من كل جانب ، وتهديدات بالقتل ، واتهامات بالجنون ، ومطالبات بابعاده عن عمله ، بل عن « بلده » .

لذا جاء الكتاب « وثيقة » ليس الا . وثيقة ذات اربعة اقسام ، تناول القسم الاول منها كيان الدولة الصهيونية ، من جميع جوانبها ، في اسسها الايديولوجية، وفي ممارستها التطبيقية . فينطلق من تعريف « الدولة اليهودية » ويأتي الى كشف الحقيقة عما يسمى بالحقوق المدنية التي « تمنحها » جميع مواطنيها ، يتوقف اخيراً عند مفهوم « الشريعة الموسوية » ، التي يحاول الكيان الصهيوني أن يقنع يهوده ويهود العالم بالاخذ بها .

هذا القسم من الكتاب يضج بالارقام والوقائع والاحكام ، ويخلص الى نقاط أساسية نرى أن نوجزها بما يلي :

١ – اسرائيل دولة يهودية وحسب . ليس كل مقيم فيها مواطناً اسرائيلياً . وهي في الحقيقة « تضع اليهود وحدهم في مرتبة البشر ، وغير اليهود في مرتبة الحيوانات ، حيوانات مفيدة أحياناً ، وأحياناً ضارة ، بل خطيرة » (الصفحة٥٨)

٢ – الحقوق المدنية فيها كلمة تخفي ازدواجة رهيبة في تطبيق قوانين عنصرية ، تجعل من اليهود وحدهم اصحاب الحقوق ، وتخضع غير اليهود اي العرب لنظام ظالم ، ان صح التعبير ، يستند الى القوانين الاستثنائية التي سنها الانتداب البريطاني عام ١٩٤٥ . (الصفحة ٨٦ – ٨٩) .

٣ – الاسس الايديولوجية والقانونية

ARCHIVE http://Archivebeta.sakhrit.com

التي تقوم عليها دولة اسرائيل تضعها حتماً في خط نازية يهودية لاتقل وحشية عن النازية الهتلرية . (الصفحات ٨ ، ٢٤ ، ٨٨) .

٤ – التهويد – تهويد الارض والبشر – شرط أساسي لتلك الايديولوجيا ونتيجة محتومة لها . ويعني ذلك ، أولا على صعيد الارض ، التضييق على الناس وتهجيرهم ، ومصادرة ممتلكاتهم واراضيهم ، باسم الامن القومي والمصلحة العليا والتدابير العسكرية . ويعني ثانيا ، على صعيد البشر ، الضغط على غير اليهوديات المتزوجات بيهود لكي يعتنقن الدين اليهودي ، ويعني الضغط على من ليسوا بيهود من جهة الام لكي يعتنقوه أيضاً ، والا حرموا من الزواج في اسرائيل ، وتدرج اسماؤهم في سجل خاص ، يضم مابين العشرة آلاف الى العشرين الف اسم . (الصفحات ٦٩ الى ٩١) .

٥ – رفع دولة اسرائيل الى مكانة صنم جديد ، تقدم له فرائض العبادة ، ويخول اليهود ، كشعب مختار ، جميع الحقوق على جميع البهود في جميع أنحاء العالم ، وعلى الشعب العربي ، في فلسطين ، امر يصل الى حدود الكفر بالله ، ويملي عملياً اخلاقية مزدوجة ، تعرف كيف تستنكر مجازر التشيلي مثلا ، وتصمت كلية ازاء المجازر التي ينظمها وابين « الاشتراكي » ، ان لم تبررها (٨ ، ٩٣) .

٦ – تغني الدولة الصهيونية بالسلام ابتزاز وكذب . فهي بحاجة الى عطف كبير والى مال كثير . وكلاهما مرتبط بوضع يهدد اسرائيل « بالدمار » . فهي بالتالي تسعى الى الحرب . ومن هنا كان تدفق الاموال المذهل عليها تحت ستار الديون . واذا بهذه « الديون » ترتفع مابين عام ١٩٦٨ وعام ١٩٧٢ ، من (١٠١٢٧) مليارات ليرة اسرائيلية ، الى (٣١٦٦١) مليار . (الصفحات ٩٤ – ٩٥) .

٧ – هذا التدفق من الأموال من خارج إسرائيل ينطوي على مخاطر جسيمة ، اذ أنه يفسد كلا من المعطي والمتلقي . فالمتلقي ، وهو دولة إسرائيل ، تتمتع بسلطان على مواطنيها ، تجعل من المحال « القيام بأي محاولة ديمقراطية لتغيير الحكم فيها » (٩٥) . واما المعطي ، أي اليهود المنتشرون في العالم ، فانهم ينسلخون بذلك عن مجتمعاتهم المختلفة ، فيؤججون نار اللاسامية في الوقت الذي يتواطأون فيه مع الدولة الصهيونية على ارتكاب المظالم بحق شعب باسره حرم ويحرم من العيش فوق ارضه وارض اجداده . (٩٤ – ٩٦)

٨ – مقاومة هذه اليهودية الجديدة واجب على كل يهودي وكل انسان ينشد الحق للجميع بالعيش الهانيء الكريم فوق أرضه . وهذا يعني العمل على تدمير

الصور الايجابية التي روجتها الصهيونية عن نفسها ، من ريادة مزعومة للصحراء ، إلى الادعاء بانشاء مجتمع اشتراكي متساو في مايسمى بالكيبوتزات ، لان ذلك كله ينطوي في اساسه على شرط طرد شعب من ارضه (٨ ، ٥٢ ، ٧١ ...)

٩ – مالم تستأصل تلك الصنمية ، فان مصير النازية اليهودية ليس بأفضل من مصير النازية الهتلرية (٥١ ، ٧٢ ، ٩٦)

تلك النقاط الرئيسية يعمل الكاتب في القسم الثاني من « وثيقته » ، على توضيحها وتعريتها ، من خلال ممارسات الدولة الصهيونية .

يحتل هذا القسم الجزء الأكبر من الكتاب . فافردت فيه فصول خاصة لكل من : القمع ، والسجون ، والاحتلال ، وتدمير القرى ، وادارة الأراضي المحتلة ، والأضطهاد والتمييز العنصري . ويتحدث الفصلان الأخيران عن ظاهرتين هزتا اركان الكيان الصهيوني : أولاهما هي شبكة التجسس العربية اليهودية المشتركة التي اكتشفت عام ١٩٧٢ ، وثانيتهما هي نشوء حركة اليسار اليهودي الجديد (سياح)عام ١٩٧٢ ايضاً، التي كانت أول حركة جماعية تقف في وجه مصادرة الأراضي العربية ، مما اضطر الحكم آنذاك لتليين موقفه والتراجع – ولو مؤقتاً – عن قراراته .

هذا القسم من الكتاب يكشف باسلوب علمي صرف عن مختلف مظاهر النازية اليهودية . وهو سجل لاسماء وتواريخ لا تدحض ولا ترحم ، تبرز ، في ماتبرز ، حقيقة النضال الذي خاضه الدكتور شاهاك طيلة سنوات ، تمرس فيها بمواجهة السلطات الصهيونية ، حتى اصبح مرجعاً يلجأ اليه حتى البدو المقيمون في شمال شرقي سيناء ، يوم قرر الاسرائيليون طردهم من أرضهم في منطقة رفح (ايار ١٩٧٥) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتجدر الاشارة إلى أن نفوذه وتصميمه استطاعا في نتيجة الأمر ان يتيحا له الانتقال في اساليب نضاله ، فلم يعد يكتفي بمنشورات محدودة العدد ، توزع في الطرقات أو في الجامعات ، بل اقتحم بعض الصحف الاسرائيلية ، وتسنى له بذلك ان يبسط ابعاد نضاله امام الرأي العام العالمي ، حتى جاء يوم دعي فيه للادلاء بشهادته أمام الكونغرس الاميركي ، بموجب دعوة رسمية ، في ٤ نيسان ١٩٧٤ ، حول وضع الشعب العربي في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ . وقد خص القسم الرابع والاخير من كتابه ، بهذه الشهادة . وهي لا تعدو

كونها ملخصاً صارماً لكل ما جاء في كتابه عما يعود إلى تسميته بالنازية .

اما القسم الثالث ، فيأتي نتيجة حتمية لموقفه المبدئي الاساسي ، فيكشف فيه حقائق ثلاث تتناول طبيعة الكيان الصهيوني ، وجذور النفسية الصهيونية ، على صعيد التربية والمصلحة القومية .

يؤكد شاهاك أن طبيعة الكيان الصهيوني عدوانية توسعية ، افرغت اليهودي من كل ماهو اخلاقي ومن كل ماهو ديني صرف ، وشحنته بغطرسة لا حد لها ، تستبيح كل انسان وكل قيمة وكل شيء . فبات الاسرائيلي فيه يريد التوسع ويتحدث عنه ، ويمارسه في الأراضي المحتلة ، متفقاً مئات الملايين في احداث مستعمرات عسكرية ، ويدعو علناً إلى إحتلال الاردن ولبنان وسورية والعراق والكويت ، بحيث انه يبقى في حالة حرب دائمة ، تتيح الفرصة أمام اليهود في اسرائيل وخارجها لاذكاء الشعور القومي فيهم (الصفحة ٢١ – ٢٣٣ و ٩٦) .

اما النفسية الصهيونية فتضرب جذورها في أعماق تربية عنصرية خطيرة ، تقوم على المبدأ الأساسي القائل « بتفوق الشعب اليهودي » (٢٣٧) وتستمد اصولها من الكتاب المقدس ، وتستند اخلاقيتها إلى شرعية كل مايخدم مصلحة « الشعب المختار » ، حتى لو كان « ابادة شعب بكامله » كما فعل الاجداد قديماً بالكنعانيين (الصفحات ٢٣٦ – ٢٤١ وخصوصاً ٢٤١) .

ههنا يكمن ، في نظر شاهاك ، الخطر الأكبر الذي يتربص بالكيان الصهيوني وبالشعب اليهودي باسره . فقد قام على العنف ، وهو ما يزال يمارس العنف ويرفع الآخذين به من صهاينة إلى مرتبة أبطال قوميين يقدمون للأجيال الإسرائيلية كمثل أعلى يجب التمثل بهم . (٢٦٤ – ٢٦٦) ويقابل ذلك رفض للعنف العربي ، لا سيما الفلسطيني ، الذي جاء نتيجة للعنف الصهيوني ليس إلا . صحيح أن شاهاك يندد بالعنف أنى كان مصدره ، ولكنه لا ينفك يذكر بأن العنف العربي قام ليرد العنف الصهيوني ، وبأنه لن يتوقف طالما أن اسرائيل ماضية في عنفها وتوسعها وإرهابها كدولة ، وطالما أن شعوباً عربية بكاملها مهددة في تقدمها بل وجودها (٢٢٥) ، ولاسيما طالما أن الشعب الفلسطيني لم يخرج من المحنة التي زجه بها الصهاينة ، ولم يعترف له بحقوقه المشروعة في الأرض في الأرض والعودة وتقرير المصير (٢٥١).

وتأتي الخاتمة لتؤكد بأسطر وجيزة ظاهرة كثيراً ما أشار إليها ، وأنذر

باستفحالها ، منذ السطور الأولى : تلك هي ظاهرة تحول اليهود ، داخل اسرائيل وخارجها ، إلى مجتمع نازي ، يسير بمنطق ذاتي محتوم ، إلى الكارثة . يقول (٢٦٧ – ٢٦٨) :

« لست أخشى من إقامة مقارنة بين أوضاع إسرائيل ، وتلك التي سادت ألمانيا في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين . ولست أخشى من القول بأن اليهود الإسرائيليين – ومعهم معظم اليهود في العالم – قد دخلوا حالياً طور النازية . فان شعباً يعتبر رجلا من أمثال « مائير هارزيون» –وهو إرهابي صهيوني كبير ذكره « موشه شاريت » في مذكراته – بطلا قومياً ، ان شعباً كهذا ، هل يليق به تسمية غير هذه ؟ وهل يسعنا أن نطلق غير هذه التسمية على قوم يعلن بطلهم القومي عن اغتباطه بذبح اليهود وتمتيع ناظريه بمرأى دمائهم تجري ؟ أليس النازي « هورست فيزل » هو الذي تحدث عن اللذة التي كانت تستبد به لمرأى الدماء تتفجر تحت سكينه ؟.. وأنا لا أشير فقط إلى النازيين الحقيقيين الموجودين في صفوفنا – وهم كثرة – ، بل أشير إلى الذين لا يستنكرون النازية اليهودية ، طالما أنها ، في رأيهم ، تخدم مصلحة اليهود وما أفعله الآن ، إنما هو القيام بعمل ما قبل أن يفوت الوقت » .

قد يجيز لنا اكتشاف مثل هذا الكتاب ، وفي مثل هذا الوقت ، أن نهمس في آذان المسؤولين العرب أن يعملوا على شراء ما أمكن من نسخه ، وأن يجددوا طبعته الفرنسية ، بل أن يعملوا على ترجمتها إلى لغات أخرى ، وأن يعمدوا إلى إهدائه المثقفين والمسؤولين في العالم ، ولا سيما أولئك الذين ينوحون ويولولون، في أوربا والقارة الأميركية ، على مصير شعب ، كانوا هم جلاديه عبر التاريخ ، وقذفوا به فوق ظهورنا وأرضنا ، جلاداً يريحهم من عقدة ذنبهم ، ويهدد وجودنا برمته .

وما ضرنا ، بعد ذلك ، أن كان شاهاك ما يزال يؤمن بدولته ؟...

أما القارىء العربي ، فقد لا يكون بحاجة إلى من يكشف له في كتاب ، ما يعيشه منذ سنوات قتلا وسلباً وتشريداً وتهديداً .

إلا أن الاطلاع على بعض ما جاء فيه لا يخلو من الفائدة ، ليذكرنا ألله ، بأن الحقيقة في طريقها إلى النور ، ومن قلب الظلمة والظلم .

لذا رأينا أن نورد الترجمة الكاملة للفقرة الأولى من الفصل الثاني (٥٥ – ٦٨) التي يعرف فيها الكاتب « دولته اليهودية » :

اسرائيل اليوم .

إن معظم ما يكتب عن إسرائيل وأهم ما يقال بصددها ، خارج حدودها ، يشكو من نقص أساسي ، فكله يجهل أن إسرائيل ليست – لا من حيث المبدأ ولا من حيث الواقع – دولة إسرائيلية ، ولا دولة للإسرائيليين . بل هي دولة يهودية .

ماذا يعني هذا عملياً ؟...

لنبدأ بالإحصائيات الرسمية : إن دولة إسرائيل تنشر كل عام « دليل إسرائيل الإحصائي » . ويكاد يكون من المستحيل العثور في الدليل كله ، على إحصائيات تتعلق بالإسرائيليين . فليس ثمة إلا إحصائيات تتعلق باليهود وبغير اليهود . من ذلك مثلا ، أنه لا يوجد في إسرائيل إحصائيات حول نسبة وفيات الأشخاص ، بل هناك فقط إحصائيات حول وفيات « اليهود » و « غير اليهود » وعندما تجري إسرائيل مثلا تحقيقاً رسمياً بشأن وفيات الأطفال داخل حدودها ، فإنها لا تجري التحقيق حول وفيات الأطفال الإسرائيليين ، إذ أنه ليس في إسرائيل رسمياً وجود لأي طفل « إسرائيلي » ، فهناك رضع يهود ، ورضع غير يهود . إلا أنه لا يتم جمعهم أبداً إحصائياً . وإذا حدث ذلك في بعض الحالات ، فلا يدرجون تحت تسمية « إسرائيليين » بل تحت تسمية « المجموع » ، وكأني بالجمع يتناول أنواعاً مختلفة .

في إسرائيل لا وجود لإسرائيليين ، بل الحيوانات والنباتات نفسها تقسم بين يهودية وغير يهودية . فإن دولة إسرائيل تحصي وتصنف رسمياً الأبقار والخراف ، والبندورة أو القمح ، على أنها « يهودية » أو غير « يهودية » . وان التعريف الأقرب إلى الواقع لدولة إسرائيل ، بوصفها دولة يهودية ، يبدو وكأنه يضعنا بأزاء دولة لا تحصى فيها البندورة على أنها يهودية أو غير يهودية وحسب ، بل تعتبر غايتها القصوى في تسهيل مثل هذا التصنيف الذي يبدأ بالبشر وينتهي بالبندورة ، بصورة مطلقة ونهائية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلا أن الإحصائيات تعكس وجهاً من وجوه الواقع . فما هو الواقع الذي تعبر عنه هذه الإحصائيات ، في ما يتعلق بهذه الفئة المحددة بوضعها « غير يهودية » داخل الدولة اليهودية ؟.. ما الذي تشعر به ؟.. مم تعاني ؟.. ما مصيرها ؟..

بادىء ذي بدء وكما هي حال كل أقلية مضطهدة ، أين يؤذن لغير اليهود بالعيش داخل الدولة اليهودية . . الجواب عن هذا السؤال هو أنهم بكل بساطة وصراحة لا يتمتعون بحق العيش في معظم الأماكن . فإن الدولة تملك القسم الأكبر من الأراضي ، وقد أخضعتها لأنظمة تحظر على غير اليهودي

أن يعيش فيها . فهي حظرت عليه أن يبني فيها بيتاً ، وحظرت عليه أن يستأجر مسكناً ، وحظرت عليه أن يمارس فيها عملا . باختصار حظرت عليه أن يعيش فيها . ان فظاعة هذا الأمر تكمن في أن معظم الأراضي التي تخضع لمثل هذه القوانين العنصرية تعود ملكيتها لهؤلاء الفلسطينيين أنفسهم الذين يعرفون رسمياً في إسرائيل بأنهم غير يهود، وقد انتزعت منهم . فهم بذلك يحرمون حتى بوصفهم مواطنين في « الدولة اليهودية » من حق التمتع بأراض « دولتهم » . ففي إسرائيل مثلا مدن بكاملها — كالكرمل والناصرة العليا (١) ، وهاتزور وآراد وميتبة رامون وغيرها يحظر القانون بصورة قاطعة على غير اليهود السكن فيها . وحيثما تكون معظم الأراضي ملكية خاصة ، كما هي الحال في القدس وتل أبيب وحيفا ، فإن « الدولة اليهودية » تصنع ما تستطيع اليه سبيلا ، وتشيد أحياء متميزة ، لا يجيز القانون لغير اليهود الإقامة فيها .

إن أبرز مثال على ذلك هو مدينة القدس « الموحدة » . فإن العديد من الأراضي قد صودر منذ « توحيدها » عام ١٩٦٧ ، وهي تكاد تكون بمجملها ملكاً لفلسطينيين . وقد بنت عليها الدولة أحياء جديدة و « مجمعات سكنية ضخمة » . هل هذه الأحياء مخصصة لسكن كائنات بشرية . . . هل هي مقتصرة على سكان القدس « الموحدة » . . . كلا . بل هي مخصصة بصورة رسمية وقانونية لليهود ، ولليهود دون سواهم . فإنه يجوز لأحد سكان القدس ولأحد المواطنين الإسرائيليين إن كانوا غير يهود ، أن يكون عضواً في الكنيست وضابطاً في الشرطة أو جندياً ، ولكنه يستحيل عليه أن يقيم في حي رامة اشكول (٢) .

على النقيض من ذلك ، فإن القانون يجيز لمواطن فرنسي قادم من باريس إلى القدس ، بعد أن يقدم الدليل على أن أمه يهودية ، أو جدته ، أو أم جدته أو جدة جدته ، أو بعد أن يعلن اعتناقه اليهودية بحضور حاخام رسمي ، ليس فقط أن يقيم في حي رامة أشكول ، بل أن يحصل على قرض كبير ، وعلى إعفاء من الرسوم الجمركية وضريبة الدخل طيلة سنوات ، وأن يحصل على مساعدات مادية أخرى، يبلغ مجموعها ثروة هائلة . من البديهي أن ذلك يتم تحت سمع وبصر « غير اليهود » . العائشين هناك ، كمواطنين في الدولة اليهودية « الديمقراطية » . وبوسعنا أن نقدم مثل هذه الأمثلة على مختلف نواحي الحياة في إسرائيل ، في هذه الحياة التي نستطيع أن نلخصها بمبدأ بسيط هو التالي : في الدولة اليهودية ، اليهود وحدهم يعتبرون كائنات بشرية ،

بينما يوضع غير اليهود بمرتبة الحيوانات .

من يعتقد بأنه لا يجوز التصرف بقسوة حيال الحيوانات وغير اليهود ، فيما غيرهم يرى أن الأمر لا يستحق الاكتراث . إلا أن أي إنسان يؤمن بمبدأ الدولة اليهودية يوافق أيضاً على أن غير اليهودي في الدولة اليهودية ليس بإنسان (أي أنه ليس « غاية في ذاته » بحسب تعريف كانت) ، وإنما هو مجرد وظيفة من وظائف المصلحة اليهودية .

لذا نجد في اسرائيل لغة عبرية ذات مفاهيم مزدوجة ، منها ما ينطبق على اليهود ، ومنها ما ينطبق على غير اليهود ، ومن هذه المفاهيم ما يصعب ترجمته في اللغات الأخرى فاليهود وحدهم ، مثلاً « يستقرون » — الكلمة العبرية لها دلالات إيجابية . من ذلك أن حكومة الدولة اليهودية بررت أن « تهود » الجليل — أي أن تصادر ، بشكل أو بآخر ، أراض يملكها غير اليهود ، لكي تبرز على نحو أوضح الطابع اليهودي للمنطقة . والأرض في إسرائيل لا تعتبر « قومية » إذا كانت إسرائيلية ، بل إذا كانت « يهودية » . فإن الأراضي التي يملكها غير اليهود تعتبر أراض لم يتحقق « خلاصها » بعد . وأن هذا « الخلاص » يتم بنقلها إلى أيد يهودية .

على هذا الصعيد ، تجدر الملاحظة بأنه ليس ثمة فارق بين اليمين واليسار ، أو بالأحرى بين اليمين و« اليسار » الصهيوني . فاليسار الصهيوني أيد دوماً جميع المبادىء العنصرية التي ذكرناها . وأن جميع « الاشتراكيين » الصهاينة ينادون بالنظرية القائلة بأن الأرض يتم « خلاصها » عندما تنتقل ملكيتها من أيد غير يهودية إلى يد يهودية .

أما إذا انتقلت ملكية هذه الأرض إلى رأسمالي يهودي أو عامل يهودي ، فأمر لا يقدم ولا يؤخر في عملية « الخلاص » . وكذلك ليس بذي بال أن يتم « خلاص » الأرض من يد غير يهودية وتنقل إلى يد يهودية .

من الضروري أن نتذكر أن هذه العملية من حيث المبدأ لا تتوقف عند أي حد . وفي هذا المعنى ، فإن النظرية الصهيونية — وهي نظرية الدولة اليهودية — تختلف سلباً عما أنزل بسكان اميركا الحمر ، أو بما أنزل بزنوج افريقيا الجنوبية . ففي الولايات المتحدة وافريقيا الجنوبية ، أقيمت مجمعات خاصة بالسكان الأصليين . أما النظرية الصهيونية ، فهي لا تكتفي باعلان قصدها بصراحة ، بل تبذل كل ما بوسعها ، لكي تستولي على كل شيء ، وتغتصب آخر شبر من الأرض يملكه غير اليهود . فحتى هذه الساعة ، يجوب عملاء الحكومة الإسرائيلية ومبعوثو المنظمة الصهيونية

القرى الفلسطينية في إسرائيل ، بما فيها القرى التي صودرت معظم الأراضي فيها لصالح الاستيطان(« الاستقرار ») اليهودي ، ويمارسون شتّى أنواع الضغط — بالتعاون طبعاً مع البوليس السري وجميع أجهزة السلطة — على الفلاحين ، لكي يحصلوا على الأرض أو يستبدلوها أو يشتروها . وبكلمة واحدة ، لكي « يخلصوا » الأراضي التي يمتلكها غير اليهود . وحتّى هذه الساعة يلقن الأطفال في دور الحضانة والمدارس أن الأراضي تنتظر « خلاصها » . أما إن تم « خلاص » هذه الأراضي من أيدي « اسرائيليين » (أي مواطنين في دولة إسرائيل) فهذا لا يبدل شيئاً في الأمر . بل هو يبرهن مرة أخرى على أنه ليس ثمة « اسرائيليون » في اسرائيل .

ان هذا الوضع ، الذي يمثل اكتمال التطلعات الحقيقية المشتركة لمجمل الحركة الصهيونية منذ ظهورها ، وقد عرفه بوضوح ما بعده وضوح الأستاذ بنزيون دينور ، وقد شغل منصب أول وزير للتربية في دولة إسرائيل ، وهو مؤرخ ومثقف ، وصديق لدافيد بن غوريون — في المقدمة التي خص فيها كتاب « تاريخ الهاغانة » (٣) ، الذي نشرته « المكتبة الصهيونية » التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية ولجيش الدفاع الإسرائيلي (٤) (منشورات « معارخوت » سنة ١٩٥٤) . فهو يقول ان الهاغانة نشأت لأنه ليس بالأمر الكافي أن تكون الصناعة المحلية كلها ولا الصناعة برمّتها ، أو أقله معظمها ، في أيدي اليهود « بل يتوجب على اليهود أن يجيدوا صناعة السلاح ، لكي يعلنوا على الملأ أنهم أسياد وطنهم القديم » . فنحن في الوقت الحاضر نتحدث عن الاستيطان ، وعنه فقط ذلك هو هدفنا على المدى القريب ، ولا نتحدث إلا عنه . ولكنه من الواضح أن انكلترا للانكليز ، ومصر للمصريين ، واليهودية لليهود . وليس ثمة من مكان في بلدنا إلا لليهود . سوف نقول للعرب : « تنحوا » . فإن لم يوافقوا أو قاوموا ، فستنحيهم بالقوة . سنضربهم ، سنركلهم على أردافهم ، ونرغمهم على الرحيل » إلا أن هذا الأستاذ المثقف يضيف أنه لا بد أحياناً من اللجوء إلى الصمت وإخفاء الأهداف الأخيرة « فالقلب لا يتعرى أمام الفم » بل ينصهر مع أهدافه بكل اندفاعه وقوته (ص ٥ — ٦) .

تجدر الملاحظة بأن هذه التصريحات (وبوسعنا أن نورد العديد من أمثالها) تنشر رسمياً في إسرائيل دون أن تثير أي نقاش ، لا في داخل الجهاز الحاكم ، ولا في صفوف الصهاينة في الخارج . وفي حقيقة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأمر ، فإن مثل هذه التأكيدات ومثلها الإحصائيات الرسمية المنشورة في إسرائيل ، تبدو طبيعية جداً في نظر هؤلاء الناس . فليس ثمة من نقاش إلا حول معرفة الضرر الذي قد يلحقه نشرها بما يسمى بالمصلحة اليهودية ، أي بإثارة العقبات في وجه المظالم الحالة بغير اليهود . وفي هذه الحالة يتم اللجوء فوراً إلى عبارات « الديمقراطية » و « الإسرائيليين » و « المواطنين » ، وإنما فقط بقصد الاستهلاك الخارجي . وأما داخل إسرائيل ، فإن التصريحات التي أوردت تدرس في المعاهد التربوية والعسكرية دون أن تثير أي جدل . وانه ليبدو طبيعياً في الدولة اليهودية أن يكون هدف الدولة أن تقول للعرب : (تنحوا) . وعلى أي حال ، فهل « خلاص » الأرض إلا هذا الأمر بالذات ؟.. وانه ليبدو أيضاً طبيعياً ، « طالما أن العرب لا يريدون أن يتنحوا » ، أن يؤخذ بالعصا ويضربوا حيث يتوجب ضربهم . (هل من تصرف غير هذا حيال كلب أو حمار عنيد ؟ .. وهل يعتبر العرب حيوانات في الدولة اليهودية ؟) والأسئلة الوحيدة المطروحة هي : متى يجب استعمال العصا ؟.. كم من العصي يمكن شراؤها أو تلقيها ؟.. ثم ألا يخشى أن تكسر العصا أو أن ينهض الكلب ؟.. أعرف تماماً أن هذه المعلومات من شأنها أن تبدو غريبة وشبه مستحيلة للقارىء الفرنسي عام ١٩٧٥ .

سأقول بهذا الصدد شيئين أولا أن هذه الأمور كانت تبدو لي ، للفترة مضت ، طبيعية تماماً . فقد كنت صهيونياً آنذاك ، أعتقد بما يعتقد به الأستاذ دينور . وعندما قرأت هذه الأسطر لأول مرة ، بعيد نشرها ، بدت لي ليس فقط طبيعية وصحيحة ، بل أيضاً بديهية ومنطقية . ثانياً ، يتحتم على القارىء الفرنسي كي يدرك مفهوم الدولة اليهودية وحقيقتها ، أن ينسى لحظة فرانسا ما بعد ١٧٨٩ ، أن ينسى « الحرية والمساواة والأخوة » وأن ينسى مفاهيم « المواطن » و « المواطنة » ، ويعود بالفكر إلى الحكم الذي سبق الثورة ، ولا سيما إلى وضع أولئك الذين لم يكونوا ليدينوا بالكثلكة آنذاك . يومها لم يكن ليسمح ليهودي بسكنى باريس (باستثناء اليهود الحائزين على « امتياز الملك ») ولكن ما ان كان يقصد كاهناً كاثوليكياً ويعلن عن إيمانه بيسوع المسيح ، وبطبيعته المزدوجة الإلهية والإنسانية ، وبكل المبادىء والعقائد الكاثوليكية ، حتى يؤذن له ، بهذا الشرط فقط ، بالإقامة فيها . وبالطريقة نفسها ، ان قصد اليوم كاثوليكي فرنسي أحد الحاخامين ، وأنكر أمامه إيمانه بيسوع المسيح وبمبادىء المعتقد الكاثوليكي ، وأبدى استعداده للإيمان بكل ما يأمره الحاخام بالإيمان به ، عندها ، لحظته ، وبهذا الشرط فقط ، يحصل قانوناً على السكنى في حي رامة اشكول أو الناصرة العليا .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن تطلع دولة إسرائيل الرسمي الى تحقيق « خلاص » جميع الأراضي ، شبيه بتطلع الحكم الفرنسي القديم إلى تبني جميع الفرنسيين المعتقد الكاثوليكي . وقد ثار بعض التساؤلات هنا وهناك ، حول الفرصة المتاحة أو الوسائل . أكان يجب إلغاء مرسوم « نانت » (ه) أو تحديد تفسيره ؟.. هل بوسع السياسة الخارجية أن تؤثر بصورة دائمة أو مؤقتة على الوضع الداخلي ؟.. هل ينبغي اللجوء إلى طريقة الرشوة ، أم ترى القسوة أكثر نجاعة ؟. ولكن ما كان الجدل ليثار — أقله لدى الكاثوليك — حول المبدأ القائل بأنه يتوجب على الفرنسيين أن يكونوا كلهم كاثوليك . ولقد تحالف اليسوعيون والقائلون بالجانسنية ضد البرتستانت . وكذلك فإن الصهاينة « الاشتراكيين » والبورجوازيين يتفقون اتفاقاً مطلقاً بشأن « خلاص » الأراضي .

ان هذا التشابه يفسر أيضاً ما تبذله « الدولة اليهودية » من مجهود لهداية غير اليهود إلى المعتقد اليهودي . وهي تبذل في هذا المنحى جهوداً لا تضاهيها إلا جهود لويس الرابع عشر في حمل البروتستانت على اعتناق الكثلكة . فالأسباب متشابهة ، وكذلك الخوف الهستري من اعتناق اليهود ديانة أخرى . فإن الضغوط التي تمارس في إسرائيل — بدءاً بدور الحضانة والمدرسين ومروراً بالمخاتير ومدراء المدارس وكل الوجوه البارزة ، وانتهاء بضباط الجيش — ضد غير اليهود (ولا سيما المسيحيين) بقصد حملهم على اعتناق اليهودية ، تذكر بفرنسا القرن السابع عشر ، وإلى حد ما بالمانيا لأربعين سنة خلت . وان المسيحيين أنفسهم في حالة بالغة الصعوبة ، لأنهم غير مطهرين ، ويسهل بالتالي اكتشافهم . وفي اللحظة التي يتم فيها اكتشاف هذا الأمر ، يأخذ الجمهور — من أطفال أو جنود — بالصراخ : غريب (أي غير يهودي) ، تماماً كما كان جمهور آخر يصرخ : « يهودي » ، دون أن يكتفي بالصراخ ... أما موقف السلطات فلا يكاد يتغير : فهي ليس فقط لا تربي الجمهور ، بل تستغل هيجانه لتقنع العائلة باعتناق اليهودية « من أجل مصلحتها ومصلحة الأطفال . . ففي دولة يهودية ، يجب أن يكون الإنسان يهودياً » .. في إسرائيل يحدث هذا الضغط في العديد من الحالات ، كما حدث في فرنسا ، بعد إلغاء مرسوم « نانت » . وفي كلا الطرفين يكفي التقيد بالشكل والطقس . أما الإيمان والقناعة ، فليسا ضروريين ، لا هنا ولا هناك وفي كلا الظرفين ، كما هي الحال في الأنظمة الدكتاتورية ، المهم هو كبت الحرية الفكرية ، وإرغام الإنسان على ممارسة الكذب علناً ، وعلى القول بمعتقدات لا يؤمن بها ، لا لشيء إلا لأن

ARCHIVE

الدولة تأمره بذلك . وأما الضحية الطائعة ، فهي تحصل ، لقاء تنازلها عن حريتها الفكرية ، على أموال ، أحياناً طائلة ، من السلطات القائمة .

وان هذا الأمر ليفسر الأهمية العظمى التي تتسم بها في إسرائيل مشكلة تحديد « هوية اليهودي » . ليست المشكلة مشكلة لاهوتية وحسب . فهي تطرح قضية الحقوق – سواء منها الحقوق المادية الأولية ، كحق الحصول على قرض ، أو مسكن بسعر محدود ، أو السكن في هذا المكان أو ذاك ، أو الحق الأساسي في ان يكون الإنسان إنساناً بكل ما في الكلمة من معنى ، ليس فقط في حياته ، بل بعد مماته أيضاً . ففي الدولة اليهودية ، ليس إلا للمقابر اليهودية من الحرمة ما يحول دون تدميرها . أما المقابر الأخرى ، فليس ما يحول دون تخريبها . فإن فندق الهلتون مثلا في تل أبيب قد شيد في موقع المقبرة القديمة ، وكانت آية فنية . وحديقة الاستقلال في القدس تحتل في قسمها الأكبر موقع المقبرة الإسلامية القديمة ، التي يعود عهدها إلى القرن الثالث عشر . كما أن مدينة « يميت » الجديدة ، في شمال سيناء ، قد شيد معظمها على أرض مقبرة البدو الذين أجلوا عنها . وأن غالبية القرى الفلسطينية التي دمرت سنة ١٩٤٨ ، قد أزيلت مقابرها بالكلية .

لهذه الأسباب عينها ، أمر لويس الرابع عشر بتدمير مقبرة بورروپال . وللأسباب عينها فرض لويس الخامس عشر على المحتضرين أن يعترفوا بصحة المرسوم البابوي « أونيجينيتوس » (٧) ، وعلى وجه التحديد بحضور كاهن ، وإلا حرموا من مراسيم الدفن ، في حين أنه لم يكن يحق القيام بمراسيم الدفن إلا للكهنة الذين اعترفوا بها .

أن الظواهر المتشابهة تحدث نتائج متشابهة . وان الدولة اليهودية تتساوى في طبيعتها مع ملكية ملوك فرنسا المسيحيين جداً . أما النتائج التاريخية لمثل هذه الأحوال فإنها واضحة وهي واقعة حتماً ، إن عاجلا أو آجلا . فسجن الباستيل محكوم عليه بالسقوط ، ذلك بأن نظاماً يقوم على مثل تلك الأسس ، يتوجب عليه أن يزداد تشنجاً وأن يضيق قبضته ، في الوقت الذي يفجر فيه في غباء متفاقم . وتبقى قضية معرفة عدد السجناء الموجودين في الباستيل في فترة ما ، خالية من أي أهمية . فالمهم هو أنه بوسع السلطة أن تزج فيه من تشاء ومتى تشاء . والنظام القديم لا يمكنه أن يتخلى تلقائياً عن الباستيل : وبالطريقة نفسها لم تتخل الدولة اليهودية ، ولن تتخلى عن « القوانين الاستثنائية » الصادرة عام ١٩٤٥ ، التي تجيز مثلها مثل رسائل الملوك سابقاً ، إرسال أي إنسان إلى السجن دونما سبب ودونما حدود

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(علماً بأن هذه القوانين لاتطبق الا على غير اليهود) .

ان القضية بالنسبة الي مزدوجة :فهي اولا تفسر الوضع القائم . ان التفسير والجدل يساهمان في وضع حد للنظام السابق وفي ارساء نظام جديد سوف يكون ، على سيئاته الممكنة ، خيراً منه سيعترف على الأقل بأن البشر هم بشر ، وبأن الحرية حق من حقوق ، لا الكاثوليكي او اليهودي فحسب ، بل الانسان .

وقد يسألنا الفرنسيون الان :« ماذا تريد منا ؟ . . . فالامر اولا وأخيراً يتعلق بكم ، وليس بنا. فالباستيل ، في نهاية الامر باستيلكم ، وليست باستيلنا . . . ويتوجب عليكم انتم ان تدمروها . . . لماذا اذن تتوجه بالكتابة الى الفرنسيين ؟ .. ذلك بأن القضية ليست قضيتنا وحسب . فهي أيضاً ، لانظرياً ، بل بصورة عملية جداً – قضيتكم ايضاً وقضية العالم بأسره. وكما أن سقوط باستيلكم كان انتصارا للحرية في العالم كله ، كذلك فان سقوط باستيلنا وانشاء نظام يصبو على الاقل الى « الحرية والمساواة والاخوة » ، سيشكل بالنسبة اليكم ايضاً انتصارا للحرية . فالحرية كالعنصرية، معدية . ولقد كان ابراهام لنكولن على حق حتى عندما قال عام ١٨٦٠ ان الامة الاميركية لايمكنها ان تبقى طويلا نصفها من الاحرار ونصفها من الرقيق ، وانه لايسعها الا أن تصبح بالكلية حرة أو تتحول بالكلية الى مجتمع رقيق ،وماكان يصح قوله عام ١٨٦٠ عن الولايات المتحدة يصح أيضاً قوله اليوم عن العالم كله .

فان كان لايجوز اليوم ، في القدس ، للناس المؤمنين ولغير المؤمنين ، ان يسكنوا حيث يشاؤون ، فسيأتي يوم يلغى فيه هذا الحق في باريس بالذات . ويسأل الانسان في باريس عن معتقداته ، قبل ان يؤذن له بالسكن في مكان ما . ومن يدرينا ، فقد يرتد هذا التمييز مرة أخرى على اليهود أنفسهم ، وبعنف مابعده عنف . . فهل تكون « الدولة اليهودية » تمهيداً لعودة اليهود الى ماخضعوا له من تمييز في العهود السابقة ؟ وهل سينزل بهم في المستقبل في أوروبا مايُنزلونه هم بالفلسطينيين في اسرائيل والاراضي المحتلة ؟ وفي هذه الحالة أيضاً ، يبقى صحيحاً المثل القديم القائل بأنه «يستحيل على شعب يظلم غيره ، ان يكون شعبا حراً». وان كنتم ترغبون في الحفاظ طويلا على قسط من الليبرالية والحرية ، والاحتفاظ بتراث ثورة ١٧٨٩ ، يتوجب عليكم أن تساندوا نضالي ونضال رفاقي هنا من أجل المبادىء نفسها .

ثم انكم ، من ناحية ثانية ، تساهمون، بوصفكم مواطنين فرنسيين ، في الابقاء على نظام الظلم الذي تمارسه الدولة اليهودية، فان الاموال التي تستعمل في « خلاص »

الاراضي ، يأتي قسم منها من بلادكم ، حيث تعتبر هذه المساهمات « اعمالاخيرية » ، وهي ، تبعاً لذلك لاتخضع لضريبة الدخل . أنا ليبرالي ، واذن انادي بحق كل فرد في استخدام ماله بالطريقة التي يشاؤها . وانا يهودي ، وقد قاسيت في عهد هتلر ، واني لادافع عن حق اي انسان في اي مكان، في دعم الحركة النازية بالمال ، ولكنّي ارفض أن تكون الدولة التي يعيش فيها هي التي تساعده على القيام بذلك . فان كان فيفرنسا قوم يريدون ان يسخوا بأموالهم من أجل الابقاء هنا على الظلم والتمييز والعنصرية ، ومن أجل دعم الدولة اليهودية وهي تأمر العرب أن « تنحوا من هنا » فهذا فياعتقادي من حقهم . أما ان اقرت الدولة الفرنسية لهذه المساهمات بصفة الاعمال الخيرية ، واعفتها من ضريبة الدخل ، وورطت بذلك جميع المواطنين الفرنسيين في الظلم والتمييز السائدين هنا ، عندها يصبح الامر لايطاق . وعندها يعود لي ملء الحق في مطالبة المواطنين الفرنسيين ودولتهم بالكف عن المساعدة في بناء أو تدعيم اسوار باستيلنا .

اخيراً ، اختم بما قد يكون اهم من ذلك : ان عرفتم الحقائق ، وان خرجتم من سجن الافكار المسبقة والاكاذيب التي يبدو لي أن معظمكم مايزال يأخذ بها ، تسدون لأنفسكم خدمة جلىبوصفكم كائنات بشرية . فان حياة تخلو من النقد ، ويستسلم فيها الانسان للافكار السائدة دون أن يضعها على المحك ، ليست جديرة بكرامة الانسان ، وان الوضع الذي يستبد بغالبية الجمهور الاوروبي ذلك الوضع الذي يخشى فيه ان يطرح الاسئلة ، ويوضح المشكلات وينقد كل مايتعلق بالدولة اليهودية ، هو وضع يلحق الضرر بهذا الجمهور نفسه . واما ان خضتم غمار نقاش حر وعقلي وتصديتم بالسؤال للقضايا الاساسية ، واقمتم مقارنات بين الاوضاع ، وفكرتم بطريقة مستقلة ومنطقية ، واشرتم علينا وعلى العالم كله بالاستمرار في الدرب الذي فتحتموه عام ١٧٨٩ ، درب الحرية ، عندها تكونون قد ساعدتم انفسكم،وساعدتمونا وساعدتم أيضاً البشرية بأسرها على التقدم خطوة الى الامام .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ملاحظات الهامش :

(١) الناصرة العليا ، مدينة بكاملها يهودية قامت بجوار الناصرة العربية . (الكاتب)

(٢) رامة اشكول ، مجمع جديد من « المجمعات الكبيرة » التي بنيت على الاراضي العربية التي صودرت في الجانب الشرقي من القدس العربية . (الكاتب)

(٣) الهاغانا ، تعني الدفاع ، وهي المنظمة الارهابية التي كانت نواة الجيش الاسرائيلي. (المترجم)

(٤) جيش الدفاع الاسرائيلي ، تسمية تغطي بها دولة العدوان وجودها العدواني ، لتظهر بمظهر المدافع عن حق ما . (المترجم)

(٥) مرسوم نانت ، مرسوم ملكي أصدره ملك فرنسا هنري الرابع عام ١٥٩٨ ، يحدد فيه شروط وجود البروتستانت في فرنسا . (المترجم)

(٦) الجانسينية مذهب لاهوتي في الكثلكة شديد التزمت ، ظهر في القرن السابع عشر في فرنسا ، نسبة الى الاسقف جانسينيوس الذي توفي سنة ١٦٤٠ . (المترجم)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٧) مرسوم بابوي صدر عام ١٧١٣ ، استصدره لويس الرابع عشر من بابا روما ضد مذهب الجانسينية ، وقد حاول فرضه على الكنيسة الفرنسية برمتها . (المترجم)

* * *

صدر حديثاً
عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

التضخم العالمي
والشركات المتعددة الجنسيات

مراجعة	ترجمة	تاليف
سهيل شباط	سهام الشريف	شارلس

رسالة باريس

الأبجدية الموسيقية الشرقية

حوار مع ضياء السكري

فايز مقدسي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ضياء سكري هو المؤلف الموسيقي السوري المعروف . أتم دراسته الموسيقية في المعهد الوطني العالي للموسيقى في باريس ، وتخرج حاملا عدة شهادات عام ١٩٦٧ بدرجة مؤلف وقائد أوركسترا (مايسترو) .

عزفت ألحانه في أنحاء معددة من أوروبا والولايات المتحدة والبلاد العربية ، ونال عدة جوائز عالمية . صدرت له أسطوانة في باريس منذ فترة من الزمن تحت عنوان — يقظة — . أجريت معه هذا الحوار في باريس ، لمجلة المعرفة :

س : ما الموسيقى ؟

أجاب : لا نستطيع أن نقول موسيقى بشكل عام . لأن أنواع الموسيقى تتعدد بالنسبة إلي كما تختلف درجاتها . هناك مثلا الموسيقى الخفيفة ، أي موسيقى الأغاني والموسيقا الراقصة وهي موسيقا سهلة ويحبها الجميع . وثمة موسيقى أخرى ، من جانب آخر ، هي الموسيقى الجادة ، وهي ما أسميه : موسيقى البحث . وهي تختلف عما سواها في الرؤيا الموسيقية وفي النوعية وفي التقنية وفي الهدف .

س : هل ثمة معنى في الموسيقى أم هي مجرد حس جمالي ؟

قال : هناك كل شيء في الموسيقى لأن المعنى والجمال يتداخلان في علاقة معقدة . إننا نستطيع مثلا التحدث عن صفة عنيفة من البحث الصوفي ميزت أعمال موسيقي من طراز (فرانز ليست) مما يفرض المعنى والمغزى على الموسيقى . غير أني أعتقد من جانب آخر أن ثمة علاقة خاصة تميز الموسيقى وتربطها بعلم الجمال ربطاً وثيقاً . لأن الموسيقى لا تستخدم اللغة . إنها تعبر عن مشاعر أو تبين انفعالات دون أن تتورط فتقول معنى محدداً بذاته . ومهما تكن طبيعة التأليف الموسيقي فإنه يظل جمالياً في الدرجة الأولى . ومع ذلك فالموسيقى تؤثر في الإنسان ولعلها توقظ فيه حسه الجمالي وهذا ضرب من المعنى .

س : أما للكلمة من دور في الموسيقى حين نأتي على تلحين نص ما ؟

أجاب : الكلمة بالنسبة إلي طاقة صوتية مشحونة بصدمة نغمية . وبالطبع فإن الكلمة تقود إلى جملة موسيقية تختلف من كلمة إلى أخرى ، أو من نص إلى آخر . أنا لا أريد أن أحدد موسيقيّ بكلام أو بمعنى محدد سلفاً . والكلمة تزعجني لأنها تعطيني آنفاً صورتها الموسيقية المشحونة بالأدب . لذلك أرغب أن أتجاوز حضورها الأدبي إلى حضورها النغمي . والكلمة حين تتموسق تصبح شيئاً آخر هو الجمال . أما المعنى فإنه يأتي فيما بعد ويتولد عن علاقة الكلمة باللحن . لأن هدف الموسيقى هو تحرير النص من الأدب وإحالته إلى شبه إيحاء منغم إذا جاز التعبير .

س : هل هناك تأثير موسيقي شرقي في الموسيقى الغربية المعاصرة ؟

قال : ثمة لغة موسيقية لكل عصر موسيقى « الفلامنكو » تأثرت كثيراً بالموسيقى العربية . لكننا نلاحظ في مطلع القرن العشرين نوعاً من الحضور الموسيقي الشرقي في المؤلفات الغربية . هناك مثلا تأثر بالشرق وموسيقاه في أعمال موسيقيين كبار ومجددين مثل (رافايل) و (ديبوسي) وغيرهما . إننا نحس بصدى شرقي في أعمالهم . إن كل محاولة لتحرير الصوت يمكن رد أصولها إلينا .

س : وأنت كموسيقي شرقي عربي ، ما مدى علاقتك الداخلية بتراثنا الموسيقي الشرقي ؟

قال : لا نستطيع أبداً أن نتجاوز الجغرافيا أو التاريخ . فهما يلعبان دورهما السحري في تأليفي . أنا درست الموسيقى الشرقية أيضاً . (الأذان) الذي طالما سمعته في سوريا لا يزال مقيماً فيّ ، أو انني معبأ به .

ARCHIVE
Archivebeta.Sakhrit.com

ذلك التمازج الصوتي (الأذان) يشكل بالنسبة إلي نبع الأصوات الموسيقية . فهل بامكاني التحرر منه ؟ على الإطلاق كلا . إني أستلهمه دائماً كما أستلهم كافة التراث . صحيح اني أنطلق من علم موسيقي غربي ، ولكني أظل شرقياً في أصولي . أنا أوظف التقنية المتقدمة في مجال علم الأصوات في خدمة موسيقى خاصة بي أطمع من خلالها إلى تطوير موسيقانا من خلال تفاعلها معها . ولقد أعدت على سبيل المثال توزيع الكثير من النغمات الشعبية السورية الشائعة بشكل جديد . ومؤلفاتي عموماً ليست غربية — إلا للوهلة الأولى — على الأذن العربية .

س : هل هناك فرق شاسع بين الموسيقى الشرقية والغربية ؟

أجاب : في النوعية نعم . أما في العمق فما من اختلاف . كل ما في الأمر أن الأسس التقنية ليست متشابهة ولكل موسيقى أبجديتها . لذلك ففي العمق ما من اختلاف . في مؤلفي السيمفوني (مقط الزند) (١) الذي كان أول أعمالي بعد تخرجي ، يوجد الكثير من النقاط الشرقية سواء في الاوزان أو في الإيقاعية أو في الأنغام . والكثير من النوتات كانت شرقية .

س : وفي اسطوانتك الاخيرة (يقظة)؟

قـال : في (يقظة) أردت أن أظهر للعيان الإمكانية السحرية للآلات الشرقية . الموسيقيون الذين ساهموا في هذا العمل كانوا سوريين ، وتم تسجيله بسهولة . ومن خلاله اكتشفت الطاقات الجديدة للآلات الشرقية .

س : ما الذي يمنحه (يقظة) كعمل في مجال التقنية والعلم الموسيقي عندنا ؟

قـال : إنه يمنح حرية استنباط ما يمكن نعته بـ « الأصوات الجديدة » التي تساهم في توسيع حجم الآلة الموسيقية وتمهد لعلم موسيقى شرقي متطور .

لقد استخدمت العود والناي والقانون والآلات الإيقاعية الشعبية . العود مثلا استخدمته بطريقة بسيطة أنقذته ، في رأيي ، من الابتذال السوقي . إننا عندما نغير الخط الميلودي نكون قد غيرنا أسلوب العزف . وضعت للآلات التقليدية لغة موسيقية غير معهودة أخرجتها من جمودها . و (يقظة) كان أكثر أعمالي الشرقية تأثراً بالشرق وإبرازاً له كما هو في أصالته ، لا كما يزيفونه في موسيقى (الكباريه) .

س : ما هي آخر اعمالك الموسيقية ؟

أجاب : انتهيت من تلحين (١٢ نصاً صوفياً عربياً) واعتبر هذا العمل أهم عمالي استغرق مني ثلاث سنوات . وفيه أستخدم

(١) قدم هذا العمل لاول مرة في باريس عام ١٩٦٨ وعزفته اوركسترا الاذاعة الفرنسية ORTF بقيادة المدربه جيرار .

اللغة وخصوصاً اللغة العربية للمرة الأولى . النصوص ساهمت في إبراز طرق تأليف جديدة . وفيه جوانب عديدة من التطور الموسيقي على المستوى التقني والصوفي .

س : كيف ترى مستقبل الموسيقى الشرقية عموما ؟

أجاب : المهم هو أن نجد ما يلائمنا . أي أن نجد علماً ذا أصول شرقية . لا يجب أن نتلبس الغرب . مع أنه يجب التفاعل تقنياً مع المعطيات الغربية في المجال الموسيقي .

على المؤلفين الموسيقيين متابعة البحث الموسيقي وراء الصوت والنغمة حتّى نصل إلى شيء ما . ويجب القيام بتجارب لتطور موسيقانا . الكثير من أصولنا الموسيقية مجهول ويجب الكشف عنه . ما نفعله الآن هو فن تجريبي . لكن من يدري فلعل فيه تكمن موسيقى المستقبل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يصدر حديثاً

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

الملهاة السوداء

تطور المأساة الملهاوية الحديثة

تاليف
ج.ل. ستيان

ترجمة
منير صلاحي الاصبحي

رسالة يوغسلافيا

في الذكرى المئوية للتسيير الذاتي
١٨٧٦ - ١٩٧٦

ماركوفيتش

من «مبادئ الاقتصاد الشعبي» إلى «صربيا في الشرق»

محمد موفاكو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قبل مئة عام، في ١٥ شباط ١٨٧٦، عبرت شوارع كراغويفس Kragujevc قافلة من المتظاهرين، رافعين أمامهم العلم الأحمر للمرة الأولى في تاريخ صربيا، وعلى أحد أطراف العلم كتب جملة صغيرة من كلمتين: التسيير الذاتي. تلك هي مسيرة العلم الأحمر التي يحتفل بها العالم التقدمي في كل مكان، بعد أن أصبح التسيير الذاتي مسألة لا يقبل النقاش فيها.

ولا بد أن نعود إلى الوراء قليلا لنتعرف على الظروف التي أحاطت ودفعت بعلم التسيير الذاتي إلى أن يرتفع.

١

مع ١٤٥٩ سقط الكيان الصربي وخسر الصربيون دولتهم أمام تقدم السيل العثماني في البلقان، وكان على الصربيين، الذين بقوا في موطنهم، أن يتحولوا إلى مواطنين من الدرجة الثانية في ظل السلطة الجديدة التي امتدت إلى قرون. وخلال هذه الفترة عانى

الصربيون الأمرين من وطأة السلطة المركزية ، إضافة إلى شراسة الإقطاعيين المحليين وشراسة زعماء الانكشاريين الذين تحولوا ، في غياب سلطة السلطان ، إلى سلاطين أباحوا لأنفسهم كل شيء .

ومع اقتراب القرن ١٩ شهدت الأوضاع تحولا مع صعود سليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧) ، الذي سعى إلى إصلاح الجيش لينهي بذلك تسلط الانكشاريين وقد بدأ في تطبيق مشروعه الإصلاحي أولا في باشوية بلغراد ٩٣ – ١٧٩٤ . في ظل هذا التحول كسب الصربيون حرية التنقل وممارسة عقائدهم بحرية وفي أن يجمعوا بأنفسهم الضرائب ، وكما كسب الصربيون حق الحكم الذاتي الذي شمل إبعاد الانكشاريين عن باشوية بلغراد إلى غير رجعة وفوق هذا وذاك ، منح الصربيون ولأول مرة حق التسلح لحماية مناطقهم من نهب الانكشاريين .

في سقوط هذا الانتعاش بدأت أخيراً البرجوازية الصربية تبرز رأسها لتسجل ولادتها . حتى هذا الحين ، كان الصربيون يعيشون في تجمعات عشائرية ، صغيرة أو كبيرة ، وسط بحر الاقتصاد الطبيعي وعلاقاته. إلا أنه مع هذا الانتعاش وبداية ازدهار التجارة ، بدأت القرية تنتعش لتأخذ دوراً نامياً في التبادل والتجارة . وبهذا بدأ الفرز الاجتماعي لتتميز في القرية فئة من السكان ، أخذت تعمل في التجارة ومن ثم تمكنت من أن تمد صلاتها إلى الخارج .

إلا أن هذا الازدهار قطع بشكل مفاجيء، حين تراجع السلطان سليم الثالث عن إصلاحاته تحت ضغط المراكز الانكشارية ، التي حدد الاصلاح امتيازاتها المادية والمعنوية. ومع تراجع السلطان أعاد الانكشاريون « فتح » باشوية بلغراد بعنف لم يسبق له مثيل حيث أعادوا معهم العلاقات والامتيازات السابقة التي عاشوها . ومن الطبيعي أن تؤدي هذه العودة إلى وقف ما قد بدأ من تطور ، ذلك الذي أصاب البرجوازية الوليدة بضربة قاضية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أمام هذا لم يكن أمام البرجوازية إلا أن تثور وتثوّر ما حولها ، لتسترجع ظروف حريتها ونشاطها . وعلى هذا جاءت الانتفاضة الوطنية الأولى ١٨٠٤ في سبيل الحكم الذاتي، حيث اعترف الأتراك أخيراً في معاهدة بوخارست ١٨١٢ وبشكل مبدأي بالحكم الذاتي للصربيين . إلا أن هذا الاعتراف جاء غامضاً ، وبالتالي كان على الصربيين أن يتابعوا كفاحهم لانتزاع اعتراف أوضح من استنبول . ولم يتم هذا الا في ١٨٢٩ ، حين أصدر السلطان خطاً شريفاً اعترف فيه بالحكم الذاتي لصربيا ، وقرأ هذا الخط الشريف رسمياً في بلغراد عام ١٨٣٠ .

وفي ذات العام اعترف السلطان بأمير صربيا ميلوش Milosh وبحقه في توريث أولاده .

٢

في الفترة السابقة لم تكن صربيا أكثر من بلد زراعي غارق في تخلفه . أما الآن فقد أدى تحرر الفلاحين واكتساب حق المواطنية إلى نهوض كبير في القوى المنتجة ، تبدى في انسياح الفلاحين نحو الأراضي الجديدة ، وفي ازدهار التجارة ونمو الحرف وبالتالي في نمو المدن . إلا أنه في هذه الفترة أيضاً برز الفرز الاجتماعي إلى السطح . مع حل المسألة الزراعية استولى ميلوش وبطانته على أفضل وأوسع الأراضي . كذلك فقد استغل ميلوش وبطانته سلطتهم ونفوذهم في إجبار الفلاحين على أعمال السخرة لحسابهم الخاص . وقد أدى هذا إلى إثراء سريع لهذه الفئة الصاعدة ، إضافة إلى منبع آخر وهو الربا الذي استغل به الفلاحون دون رحمة .

كما أن نمو التجارة بدوره أدى إلى تسريع هذا الفرز الاجتماعي . فقد حاول الوجهاء باستغلال نفوذهم أن يحتكروا التجارة الداخلية ، ليثروا بدورهم بأسرع وقت ؛ إلا أن هؤلاء كانوا يضطرون إلى التنازل أمام الأمير ميلوش ، الذي ساعده منصبه وسلطته على خلق احتكار لنفسه . في هذه الفترة كانت الكلمة للرأسمال التجاري والربوي في تسريع التمايز الاجتماعي على صعيد القرية بالذات ، حيث أدى إفقار الفلاحين أيضاً إلى ظهور فئة الملاكين الأغنياء (الكولاك) .

هذه التحولات نقلت حركة الصراع لتتوجه الآن ضد العدو الداخلي ، حيث أدى جشع الأمير ميلوش واستبداديته إلى إثارة السخط عليه من اليمين واليسار .

برز السخط أولا في أوساط الفلاحين الذين حطمت حياتهم أعمال السخرة والقروض واستغلال الكولاك لهم ، حيث أنهم بهذا لم يجدوا مبرراً لنضالهم السابق للتحرر من العدو الخارجي . ومن ناحية ثانية ، أدى جشع الأمير ميلوش إلى ازدياد السخط في أوساط البرجوازية الليبرالية ، النشطة والطموحة ، التي حد من حرية نشاطها منافسة الأمير ميلوش وأطماعه للسيطرة على كل نشاط . تحت هذا الضغط اضطر الأمير ميلوش إلى التنازل بإصداره لأول دستور في تاريخ صربيا ، دستور ١٨٣٥ الذي استلهم دستور البرجوازية الأوربية . إلا أن الدستور لم يطبق ، وأعقب هذا معارضة استنبول له واستبداله بدستور آخر في عام ١٨٣٨ ، ذلك الذي عرف بـ « الدستور التركي » . ومع هذا الدستور ازداد السخط اندفاعاً في الأوساط الشعبية والبرجوازية الليبرالية لينتهي بانتفاضة ١٨٤٢ ، تلك التي حملت إلى العرش الأمير الكسندر .

جاء حماة الدستور إلى السلطة الآن وسط حماسة وتفاؤل من كل الأطراف . في البدء الأمر اتخذ رجال السلطة الجديدة عدة اجراءات لتوطيد اقتصاد البلد المتأ كل ، ومن هذه الإجراءات خلق ظروف لتبادل حر يمكن كل الأطراف أن تشترك به . إلا أن هذا لم يكن إلا إنقاذاً للفئات التي جاءت السلطة الجديدة لتعبر عن مصالحها ، إذ أنه لم يساهم إلا في ازدياد الداخلين إلى نادي التجارة والإثراء . ولا شك أن هذا التحول قد أدى إلى إعدام الاقتصاد الطبيعي في القرية واحلال الاقتصاد النقدي محله ؛ ولكن هذا سهل أكثر فأكثر نشاط المرابين ، الذي سقط ضحيته الفلاحون في الدرجة الأولى وإلى حد ما الحرفيون .

وعلى هذا بدا واضحاً أن حماة الدستور رجال السلطة الجديدة ، لم يقوموا إلا بوراثة استبدادية الأمير ميلوش ولكن بعد تقاسمها وتوزيعها فيما بينهم . وكان من الطبيعي لذلك أن يؤدي خراب الفلاحين الصغار الحرفيين والتجار الصغار إلى إثارة موجة جديدة من السخط على السلطة .

هذه الموجة الجديدة برزت بشكل واضح في أوساط الانتلجنسيا الصربية الصاعدة ، التي حملت ثقافتها من ألمانيا وفرنسا ، حيث كانت قد لفحت هناك بموجة ١٨٤٨ الثورية التي غطت أوربا . ومع أن طوفان ١٨٤٨ الثوري لم يدك أسوار صربيا ، إلا أن روح هذه الموجة طفت في داخل صربيا ، وخاصة في أوساط الشباب ، وتبدت في تمركز معارضة لانتزاع مزيد من الحريات السياسية . وقد نشطت هذه المعارضة في إطار المسألة الوطنية والاجتماعية ، وتمكنت في النهاية مع ازدياد التململ الشعبي من قلب هادىء لسلطة الأمير الكساندر في ١٨٥٨ .

٣

وفي فترة الستينات وبداية السبعينات شهدت صربيا موجة نهوض شاملة في تطورها الاقتصادي ، فقد أصبح التركيب الاقتصادي أكثر تنوعاً على حين أن العلاقات النقدية غطت كل شيء بما في ذلك القرية . وقد أدى هذا بطبيعة الحال الى تطور مكشوف وواسع لأشكال الانتاج الرأسمالية ، إلا أنه أدى من ناحية أخرى الى تراكم التناقضات الاجتماعية فالتوتر الذي أخذ يتحول إلى صراع . ومع هذا كان الاقتصاد مازال يوحي بطابعة الزراعي الغالب ، على الرغم من نمو التجارة المطرد وبداية بروز الفروع الصناعية .

في القرية أخذت تنتشر الدكاكين ، التي بدأت تقلب بدورها العلاقات السائدة في القرية ، حيث أخذت تربط القرية بالسوق وبحركته ، مما يشير إلى أن العلاقات النقدية قد نفذت الى عمق القرية .

ولم يكتف ملاك الدكاكين في « تعويق » الفلاحين على الانتاج الحرفي والصناعي ، بل أخذوا كذلك في توريط الفلاحين بالقروض الصغيرة التي تتضخم في ذاتها . لقد أدى بعد الفلاح عن المدينة ، أو لانقطاعه عن سوقها وعالمها بسبب رداءة الطرق ، إلى أن يتوجه الى مالك الدكان ، الذي تحول الى وسيط بل وإلى مصرفي أيضاً يتعاطى كل شيء لخدمة الفلاح ، وبالاحرى نهبه دون رحمة . ومع عجز الفلاح عن دفع فوائد الدين كان ينتهي مصير املاكه الى المصادرة وبيعها بالمزاد العلني لصالح المصرفي والمرابي . وقد دفع هذا الوضع أحد نواب المعارضة الى أن يصرح « من العبث أن نتكلم عن طرد السباحيين (١) لأن هؤلاء سيستمرون في البقاء » .

ومع أن التجارة كانت المتنفس الوحيد لصربيا في اتجاه الخارج ، إلا أن حركة هذه التجارة كانت في وضع سيء للغاية . لقد أدى انعزال صربيا عن البحر إلى أن ترتمي في أحضان النمسا لتسهل لها دخول وخروج البضائع . وفي هذه الفترة ومابعدها بقليل نجد أن ٤/٥ التصدير و ٩/١٠ الاستيراد دائماً يتم خلال النمسا ولصالحها بالدرجة الاولى . وفي ازاء هذا جرت في الداخل عملية تنشيط شبكة المواصلات ، التي أدت بدورها إلى انتعاش التبادل ، ومن ثم تبدى هذا في تشكيل المؤسسات المصرفية المختلفة .

ففي خلال هذه الفترة تم تشكيل أول بنك صربي في ١٨٦٩ وبذلك سيبدأ تعزيز الرأسمال المصرفي ، حيث أن الرقم سيرتفع خلال عقدين الى ٨١ مؤسسة مصرفية .

كذلك بدأ في الفترة هذه التركيب الاقتصادي يكتمل بدخول الصناعة التدريجي كعنصر مكمل له . ومع أن الحاجة كانت في صربيا لتقدم صناعي أسرع ، تتخلص به صربيا من تعسف النمسا وسيطرتها ، إلا أن سير الصناعة مع ذلك كان يتعثر بعقبات عديدة كغياب القاعدة العمالية والخبرة ورداءة الاتصال مع منابع المواد الأولية ، وفوق هذا إعاقة النمسا من الخارج ، تلك التي كانت تحول اهتمام الرأسمال عن المغامرة في هذا القطاع . ومع هذا وذاك شهدت نهاية هذه الفترة لحظة انتقالية ، جرى فيها اقامة العديد من المعامل في أنحاء مختلفة ، إلا أن التمركز بقي في مدينتين فقط : بلغراد وكراغويفس

هذه هي بعض الظروف التي سبقت مسيرة علم التسيير الذاتي في شوارع مدينة كراغويفس .

(١) ــ السباحي « رمز التعسف » هو صاحب الاقطاعية في النظام المصرفي .

٤

يكاد يبدو من الضروري ، قبل أن نتابع الحديث عن مسيرة التسيير الذاتي ، أن نتوقف قليلا عند انتشار الافكار الاشتراكية ، وهذا لن يتاح لنا مالم نتوقف عند أبي الاشتراكية س . ماركوفيتش Markovic (١٨٤٦ — ١٧٨٥) ذلك الذي جاء حمل راية التسيير الذاتي انتصاراً لتأثير كتاباته بالدرجة الأولى .

ومع أن ج . جويفتش Djejovic قد سبق ماركوفيتش بالحديث والدعوة إلى الاشتراكية ، إلا أن ماركوفيتش يبقى له الدور الحاسم في تطور الفكر الاشتراكي في صربيا وحتى في محيطها البلقاني .

ماركوفيتش أنهى الدراسة كغيره في بلغراد ، وسنحت له فيما بعد فرصة لمواصلة الدراسة في روسيا القيصرية . وهناك في بتروغراد تعرف أولا على حلقات الديمقراطيين الثوريين ، وبعدها بدأ في الاقتراب أكثر فأكثر من حلقات الاشتراكيين حيث انتهى إلى أن يكون اشتراكياً في في مقال شهير له ، ذلك الذي سبب عودته الى صربيا . وقد سعى ماركوفيتش من حينها الى تشكيل فرع صربي في الأممية الأولى في إطار الفرع الروسي . وبعد عودته انغمس في نشاط هائل يفوق طاقته إلى أن اختطفه الموت في ١٨٧٥ قبل أن يرى ارتفاع راية التسيير الذاتي في مسيرة ١٥ شباط ، إلا أن أنصاره رأوه حياً في ذلك النهار .

لقد ظهر ماركوفيتش في لحظة موضوعية ، في لحظة خراب الفلاحين الصغار وانحدار وضع الحرفيين وتهالك البرجوازية الصغيرة بشكل عام . كما أن ماركوفيتش ، من ناحية أخرى ، عايش لحظة جموح البرجوازية الحاكمة نحو الشوفينية ، التي استلمها كسيف على رقاب الأمم والأقليات القومية في المحيط البلقاني . وإزاء هذا سيطغى على كتابات ماركوفيتش تناول مسألتي ذلك العصر : المسألة الاجتماعية والمسألة القومية . وربما لم يشمن بعد في المجال النظري والتاريخي ماقدمه ماركوفيتش في إطار حل المسألتين .

في كتابه « مبادىء الاقتصاد الشعبي » يخص ماركوفيتش بيروقراطية النظام باهتمام خاص ، حيث يدعو الى إبدالها بإرادة شعبية ، تلك التي تتخذ شكل التسيير الذاتي انطلاقاً من الكومونة فالأطراف فالمناطق إلى المركز الأخير . ويرى ماركوفيتش أن هذا النظام ، نظام الادارة الشعبية (التسيير الشعبي أو الذاتي بلغة اليوم) ذلك الذي يحل محل أجهزة الدولة ، انما هو القادر على الغاء تجاوزات ومساوىء السلطة السائدة . كذلك يؤكد ماركوفيتش على أن التمايز الاجتماعي ، الذي جلبه تطور الرأسمالية يمكن نفيه عن طريق تأسيس تعاونيات ،

كأحد أشكال التعاون الاشتراكي التي يمكن أن تنقذ صربيا من الخراب ، ولاشك أن ماركوفيتش اعتمد في تقريره هذه الأطروحة على واقع صربيا آنذاك ، كبلد زراعي متخلف لم تنهض فيه بعد الصناعة والبروليتاريا ومن هذا أكد ماركوفيتش على أن إقامة نظام التسيير الشعبي ، مع تحول الأرض إلى ملكية عامة على أساس التعاونية يضمن الانتقال الى الاشتراكية دون المرور بالرأسمالية (١) .

ولاشك أن آراء ماركوفيتش حـول المسألة القومية ، التي حملها كتابه «صربيا في الشرق» ، مازالت تستحق المراجعة إلى الآن لاسهام ماركوفيتش المبكر في الحديث عن ارتباط المسألة الاجتماعية بالمسألة القومية، وعن انفتاح التحرر القومي على التحرر الاجتماعي . وقد انطلق ماركوفيتش مـن التاريخ الصربي ليرى في انتفاضة ١٨٠٤ التحررية « ثورة اجتماعية عميقة » ،حيث يتحول هذا النوع من الكفاح ضدالاضطهاد الأجنبي إلى كفاح ضد الاضطهاد الداخلي . كذلك فقد انطلق ماركوفيتش من موضوعة ماركس « الشعب الذي يقهر غيره لايمكن أن يكون حراً » لصياغة قاعدة للتعامل والتعاون بين مختلف القوميات في الإطار الصربي وحتى البلقاني ، بحيث تتناقض على طول الخط تسعيرات البرجوازية المحيطية للاحاسيس القومية كطبة لتحقيق مآربها الخاصة « ليس للشعب الصربي من مخرج سوى الثورة في البلقان ، الثورة التي تطيح بكافة الدول التي تعيق هؤلاء الشعوب عن الاتحاد كأناس أحرار وعمال متساوين، كتحالف للكومونات ، للأقاليم ، للدول يكون أكثر تناسباً لهم » (٢) .

في أواخر ١٨٧٥ سيطر تحالف الانتلجنسيا الثورية والعمال على الإدارة الكومونيـة في كراغويفس ، إلا أن البرجوازية سرعان ماأستنفرت لاسترجاع السلطة من«الاشتراكيين وللاحتجاج على هذا الاعتداء تجمعت قوافل من المتظاهرين لتنطلق في مسيرة عبر شوارع المدينة في صباح ١٥ شباط ١٨٧٦ ،وقد تقدم المسيرة راية حمراء كتب عليهاماقامت البرجوازية بإعدامه : التسيير الذاتي . وبهذا كان المشاركون في المسيرة يحتجون

(١) ـ هذه الموضوعة توحي بتأثر ماركوفيتش بحمّى « الارتل » الذي ساد الحديث عنه خلال اقامة ماركوفيتش في روسيا القيصرية .

(٢) ـ كتب ماركوفيتش هذا في وقت كان فيه التسعير الشوفيني يأكل البلقان ، في الوقت الذي بدأت تبرز فيه حمى تشكيل صربيا كبرى وبلغاريا كبرى وألبانيا كبرى ويونان كبرى حيث كل واحدة تنفي الثانية على الخارطة ، على حين ان ماركوفيتش نجده يدعو بحرارة الى تشكيل رابطة للدول البلقانية ، رابطة تاخذ شكل اتحاد « بين الدول الحرة والمتساوية تأخذ على عاتقها مناهضة الاضطهاد القومي .. » .

على موقف السلطة من اغتصاب كسبهم الانتخابي ، ومن انكار قانونية سلطتهم الجديدة .

لقد أدى رفع راية التسيير الذاتي إلى إحداث صدى واسع في أرجاء صربيا . ففي بلغراد هبطت من أغنياء وتجار كراغويفس رسالة « شديدة اللهجة الى الحكومة ، حيث تطالبها باتخاذ اجراءات صارمة لتحطيم ذلك الوهم الداعي إلى « تحول عمال المصانع الى سلطة ، وفي أن يحدد هؤلاء الضرائب وفي أن يعطوا الأوامر ، » . وكما ألمح الى وزير الداخلية آنذاك فإن كومونة العمال تهديد للعرش ذاته . وبدت خشية الأوساط الحاكمة من موقف الأمير ميلان ، الذي أمر الجيش مباشرة بالنزول إلى شوارع كراغويفس وفعلا بقي الجيش أياماً عديدة يرابط في كراغويفس ، يجري بطشاً واعتقالا في صفوف وأنصار الراية الحمراء ، ومردفاً ذلك بتقديمهم الى المحاكمة . إلا أن المحاكمات كانت فرصة أخرى للتشهير بالسلطة ، ومن ذلك عبارة المناضل تودوروفيتش Todorovic في قاعة المحكمة : « لم أقم لأدافع . . بل قمت لأتهم » .

ومن ناحية أخرى ، تحولت المحاكمة إلى مناسبة لاستعراض الحركة ذاتها . « في سبيل مبادئنا يكافح كل من يحمل شعوراً وتفكيراً نبيلين . ليسوا هم وحدهم اولئك الناس المتعلمين الذين يحملون شعلة الحقيقة في خضم الظلام لإجلائه . لا . . انظروا إلى هؤلاء العمال البسطاء الذين يقفون معنا في نفس الخندق . هؤلاء دليل وضمانة في أن مبادئنا لا يمكن أن يطاح بها . . ويا ترى هل يمكن أن تطمحوا بأحكامكم نحـــو الإطاحة بالحركة ، التي يقف وراءها آلاف العمال ، آلاف المخلوقات المنسية ، المستغلون والمطوبون على أمرهم ، الذين ينظرون إلى الحركة كإنقاذ لهم ، كبعث لقيمهم الانسانية » (١) .

ومع أن مسيرة ١٥ شباط حملت بعداً متواضعاً ، إذ أنها حدثت في مدينة صغيرة وسط مملكة متخلفة من البلقان ، إلا أنها بقيت حية في الأذهان يتسع تأثيرها من جيل إلى جيل ، لقد انتقلت الراية من باريس ١٨٧١ إلى كراغويفس ١٨٧٦ لتبشر بقدوم عصر جديد : عصر التسيير الذاتي الذي بدأت رايته تخفق ..

(١) Rilindja 14. II. 1976.

آفـــاق

نحن والعـالم اليـوم

د. حسام الخطيب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ترى أين نحن من العالم وأين العالم منا ؟ كيف يفهمنا العالم وبأية صيغة ؟ وهل هناك أصلاً موقف عالمي موحد منا ؟ وهل هناك بالمقابل موقف عربي موحد من العالم .

هذه الأسئلة وأسئلة أخرى كثيرة من صنفها تدور في أذهان العرب المعاصرين ، يومياً وباستمرار ، ابتداء من حلقات المثقفين في المنتديات والمقاهي والجامعات ، وانتهاء بالحديث العابر الذي يتداوله ركاب السيارات الصغيرة بين مدينتين متباعدتي المسافة مثل حلب ودمشق .

وفي أغلب الحالات تثار هذه الأسئلة ومثيلاتها اعتباطاً وعرضاً ، ولكنها في بعض حالات تثار عن قصد ووعي وبروح من التشوف والتطلع .

ومهما يكن من أمر المقاصد والمناسبات وسوية الحوار فإن الاستمرار

في طرح هذه الأسئلة يبدو ضرورياً والإجابة عليها — كائنة ما كانت — كفيلة بأن تثبت أقدامنا في العالم المعاصر وأن تدلنا من أين نبدأ وكيف نتصرف وكيف نتحرك عالمياً ، بل كيف نخطط حتى لأهدافنا الحضارية. ذلك أنه ، إذا كانت هناك حقيقة واحدة يمكن أن تميز العالم المعاصر عن العالم القديم وأن تسوغ لنا الحديث عن عالمنا هذا بصيغ ونسب مختلفة عن السابق فإنها لايمكن أن تكون سوى التأكيد على أن العالم المعاصر عا لم واحد مشترك،ثقافته مشتركة وفكره متفاعل وحضارته واحدة ولا سيما في قاعدتها المادية والعلمية . في الماضي كانت هناك الصين وكانت هناك الهند وفارس واليونان ومصر والعرب وفينيقيا والصليبيون والتتار إلخ . .

ولم تكن هناك أميركا (ربما لحسن الحظ) وكانت هناك قوانين خاصة تحكم كل عالم ، وكان كل عالم من العوالم القديمة يتبادل الصداقة والعداء حسب الظروف مع العوالم الأخرى ، ولكنه كان يجهل الكثير عنها وكان يستطيع ضمن حدود أن يعيش منقطعاً عنها أو واهي الصلة أو معتدلها .

أما اليوم فالأمر يختلف . ههنا أقطار وقارات وكتل تتعادى أشدّ العداء وتتنافس كل التنافس ويكيد بعضها لبعض في السر والعلن ، كما في العالم القديم ، ولكنها — مع ذلك — تتبادل المصالح والمنافع وتقوي سبل التجارة وتتشارك في المشروعات العلمية والإنتاجية ، ناهيك عن التبادل الثقافي والفني الذي لم يعد في وسع أمة من الأمم أو كتلة من الكتل أن تعيش بدونه . إن العالم المعاصر هو عالم واحد تقلصت فيه المسافات المكانية والفكرية والنفسية إلى حدود كانت تشكل عند القدامى مادة الخيال . والكونكورد ، حين تقطع المسافة في ثلاث ساعات ونيّف بين

باريس ونيويورك ، تنقل معها جرائد الصباح وطرز التفكير وتطورات الأزياء الخارجية والأجواء النفسية وآخر المبتكرات العامية والصناعية . إنه عالم واحد له نبض وتنفّس وقلب واحد أو — على وجه الدقة — مجموعة قلبية واحدة . هذه المجموعة القلبية هي هيئة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية المتفرعة عنها أو الشبيهة بها . فاليونسكو تشكل القلب الثقافي للعالم ، ومنظمة العمل الدولية تشكل قلباً آخر ومنظمة الصحة العالمية كذلك والاتحاد البرلماني الدولي كذلك والاتحاد الدولي لنقابات العمال كذلك . وإنها لقائمة طويلة تدل على أن كل مستوى من مستويات حياتنا المعاصرة ينتظمه قلب دولي أو عالمي موحد .

أين موقعنا في هذه القلوب وأين موقعها منا ؟

قبل عشر سنوات فقط كانت المحافل الدولية تجهلنا أو تتجاهلنا . كنا نصرخ على منابرها ولا سامع ولا مجيب ، كأنما نصرخ في واد . كان العدو يكيل لنا الضربات ويخرق كل قانون إنساني وكانت هذه المحافل تشير إلينا بأصابع الاتهام وتأبى إلا أن تقلب منظارها لترى الضحية مكان المفترس والمعتدي مكان المعتدى عليه .

ولقد ترك هذا الموقف في نفوسنا جرحاً عميقاً ولكنه لم يُعَقِّدْنا تجاه العالم كما عقّد عدوّنا . ولقد تألمنا كثيراً ولكننا لم نسمح لصدورنا أنا تؤوي المفهومات الشوفينية والانغلاقية ولا سيما مفهوم (الغوييم) .

واليوم تغيّرتْ الصورة ، وأصبح موقعنا من المحافل الدولية في في الصدر . أصبحت وجهة نظرنا مفهومة وأصبح في يدنا ، بالتعاون مع أصدقائنا ، أن نفوز بقرارات تؤيد حقنا وتدين باطل عدونا وتدعو

إلى انصافنا . وخلال الأعوام العشرة الماضية استطعنا أن ندحر عدونا في جميع المحافل الدولية . ولم يكن ذلك صدىً لتصاعد أهميتنا في العالم فحسب ، ولم يكن ذلك ترجمة حرفية لتعدد أصواتنا العربية في المنتديات العالمية فحسب ، ولكنه كان إلى جانب كل ذلك تعبيراً عن تنامي انتمائنا إلى العالم المعاصر واحساسنا بأهمية الحوار معه واحساسه كذلك بأهمية وجودنا العالمي .

قرارت عديدة أخذناها في هيئة الأمم المتحدة ، وفي منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (يونسكو) وفي منظمة الصحة العالمية وفي منظمة العمل الدولية وفي الاتحاد البرلماني الدولي وغيرها ، وغيرها . وفي هذه القرارات طولب العدو بالانسحاب من الأراضي العربية المحتلة ، وبافساح المجال أمام الشعب العربي الفلسطيني ليأخذ حقوقه الثابتة أو الوطنية أو القومية أو الطبيعية على اختلاف المصطلحات التي تؤدي إلى غاية واحدة وهي عودة الشخصية الفلسطينية السياسية إلى مسرح الحياة الدولية . ولقد أدين عدونا كذلك بالعدوان والاغتصاب وانتهاك حرمة المقدسات وخرق الاتفاقات الدولية الثقافية والسياسية والتربوية . وفي بضع السنوات الأخيرة شهدنا (تبادل مواقع) بيننا وبين العدو . لقد أصبح يقف من المنابر الدولية تماماً حيث كنا نقف ، وبدا وحيداً مدحوراً وعيّاً ومتشنجاً . بل لقد وقف عدونا وقفة المنبوذ أمام هذه المنابر . ان قرار هيئة الأمم المتحدة باعتبار الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية والتمييز العنصري انما هو تتويج لحملة القرارات والمواقف التي تدمغ عدونا وتنبذه . وهناك مواقف كثيرة فعلية وجد ممثل الصهيونية نفسه منبوذاً فيها .أمس فقط وقف

مندوب العدو الصهيوني في اللجنة البرلمانية لمجلس الاتحاد البرلماني الدولي في المكسيك وقدم اقتراحاً بأن يعمل البرلمانيون ٣٦٤ يوماً في السنة حتى يستطيعوا أن يؤدوا واجبهم تجاه شعوبهم . وعرف كل الحاضرين أن هذا الاقتراح لم يكن سوى وسيلة لإثبات الوجود وأن آخر من يحق له الحديث عن الديمقراطية والشعب هو ممثل الصهيونية . ولقد وقف المندوب الصهيوني وحيداً ، لم يثن على اقتراحه أحد ؛ وعند التصويت سقط الاقتراح بالاجماع . وانه لنوع من (عمى البصيرة) يدل على أن عدونا يمثل الآن النشاز والشاذ . قبل سنتين كذلك في المؤتمر الحادي والستين للاتحاد البرلماني الدولي (طوكيو ، أيلول ١٩٧٤) وقف المندوب الاسرائيلي وحده في قاعة تضم ٩١٢ برلمانياً من مختلف أنحاء العالم ، وقدم اقتراحاً من تلك الاقتراحات التي تنبثق من (عمى القلب) والعجز عن التفاعل مع نبض العالم حتى المندوبون الأميركيون لم يقفوا إلى جانبه وأظنهم تشاغلوا بالكلام فيما بينهم خوفاً من إحراج التورط فيما تورط فيه من تقصير عن شأو المنطق العالمي . لم يؤيده أحد ولم يثنّ على كلامه أحد وكذلك لم يعترض على كلامه أحد ، فقد بدا أشد تهافتاً من أن يُردّ عليه . وكانت صرخة في واد ؛ حتى الصدى لم يكن هناك .

وهناك عشرات الأمثلة من المؤتمرات الدولية يمكن أن تشير إلى تهافت منطق عدونا وإلى تعاظم التعاطف معنا أو التقدير لسلامة موقفنا . ولقد فعل تصاعد النضال العربي (حرب تشرين،الثورة الفلسطينية ، استقلال عدد من الدول العربية) فعله في رد الاعتبار لنا ، كما فعل تعاظم القوة الاقتصادية العربية (البترول) فعله في لفت النظر إلى أهمية موقعنا من العالم المعاصر .

ولكنْ آن الأوان لأن نسأل : إلى متى ؟ إلامَ نهدف من وراء التأييد الدولي ؟ المعادلة واضحة هنا :

— معظم الدول التي يمكن أن تؤيدنا أعلنت تأييدها لنا ، بحيث لا يصدر اليوم بيان سياسي أو حتى غير سياسي عن أية دول غير استعمارية إلا ويرد فيه صريحاً تأييد مطالبنا وحقنا وموقفنا .

— معظم الصيغ التي نصبو إليها تحققت ، وليس أدلّ على ذلك من إقدام الولايات المتحدة الأميركية على استخدام النقض (فيتو) أكثر من مرة ضد مشروعات القرارات المؤيدة للعرب .

— جميع المنظمات والمؤسسات غير الدولية وغير المرتبطة مباشرة بالاستعمار تؤيدنا وتقف إلى جانبنا .

— الرأي العام الإعلامي — حتى في معقل الدول الاستعمارية — يعترف ببطولة شعبنا المناضل ضد الاحتلال الصهيوني وبتصميمه على التحرر ، بل بمقدرته على خلق الكيان الوطني السياسي الخاص به .

ماذا نريد أكثر من ذلك ؟

في العالم اليوم شعور بأننا نطلب منه مالا يطلب .

لم يحدث في تاريخ العالم الحديث أو القديم أن حقق الرأي العام لشعب أو لجهة المطلب الذي تريد .

إن الرأي العام العالمي يعطي المناخ المواتي ؛ يعطي الغطاء الشرعي ، يعطي التأييد المعنوي ولكنه لا ينصّب الملوك على العروش ولا يحرر الأراضي ولا يركز الشعوب فوق أوطانها .

إن الشعوب هي التي تعمل وتبادر وتناضل وتضحي ، ولا ينقصنا العمل ولا المبادرة ولا النضال ولا التضحية ، ولكن ينقصنا العمل المشترك والمبادرة المشتركة والنضال المشترك والتضحية المشتركة .

إن العالم يبدو اليوم أقل حماسة لموقفنا لأنه يعطينا الفرص ونحن نتلكأ . وإنه ليعرف مدى قوتنا وطاقتنا ومقدرتنا . وإنه ليعرف أنه لا يؤيد مسكيناً مغلوباً على أمره ، ولكن عزيز قوم ضرب على نفسه الذلة لأنه تهاون في أمر نفسه ولم يُعد للأمور عدتها .

يكاد أصدقاؤنا أن يقولوا : أقدموا أنتم ونحن نتبعكم ، ولا يمكن أن نقدم نحن قبلكم .

يهمّ أصدقاؤنا في العالم أن يقولوا لنا : حلوا مشكلتكم مع الغاصب حتى نفرغ لمشكلات العالم الأخرى ، إذ ليس من الطبيعي أن يكون البند الأول في كل محفل دولي : مشكلة الشرق الأوسط .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويقول أصدقاؤنا دائماً وبصريح العبارة (لايمكن أن يكون العالم معكم إذا لم تكونوا مع أنفسكم) .

من هنا البدء ، ولنفكر كيف نكون مع أنفسنا ، ولنفكر بشيء سوى هذه (الحيالة) السياسية التي نتعلل بها .

وإلا فما أسرع ما يملُّنا العالم ، إن النعم لا تدوم ، وإن الفرص كذلك لا تدوم ، وإن تأييد الرأي العام العالمي لنا هو قوة دفع كبيرة في أيدينا وما ذاك فقط لأن العالم المعاصر له نبضه الخاص الذي تهتدي به الأمم الذكية وتعرف كيف تستمد منه عند المنعطفات التاريخية ؛ بل

كذلك لأن عدونا بنى أسطورته الكبيرة بتغذية عالمية مصطنعة مازالت شرايين كثيرة منها تمده (بالسيروم) وخلاصة الغذاء.إن الحصار الذي ضربناه حتى الآن على عدونا يعتبر إنجازاً كبيراً ، ولكنه لا يستطيع أن يكون شيئا قائماً بحد ذاته إلا بمقدار ما نوظفه ونستخدمه في سبيل اللحظة الحاسمة ، والشرايين التي مازالت تغذي العدو لا تنقطع إلا بوسائل (فوق عادية) . وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن هذا الحصار له توقيت ، وإذا لم يستخدم في إبانه تدنت قيمته .

ولكن لماذا لا نستخدمه ؟

لأننا لسنا مع أنفسنا .

وإذا لم نكن مع انفسنا ، يصعب أن يكون العالم معنا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

صـدر حديثـا
من وزارة الثقافة والارشاد القومي
افلاطـون
البرمنيدس
حقق النص وقدم له
اوغست دييس
عربه من الاصل اليوناني
الاب : فؤاد جرجي برباره الدمشقي

يصدر قريبا

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

العلم والسياسة

تأليف: جان جاك سلمون

تعريب: هشام دياب

يصدر قريبا

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

الازمة النقدية في الغرب

تأليف: ا. ف. اينكين

ترجمة: غسان رسلان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يصدر قريبا

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

النظام النقدي الدولي

تأليف: جاك ــ بتي ــ روله

ترجمة: مصطفى عدنان السيوطي

المعرفة
مجلة ثقافية شهرية

* المراسلات باسم رئاسة التحرير

جادة الروضة ـ دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

* الاشتراك السنوي :

ـ في الجمهورية العربية السورية : ١٨ ليرة سورية .

ـ خارج الجمهورية العربية السورية : ما يعادل ١٨ ليرة سورية مضافا اليها اجر البريد (العادي او الجوي) حسب رغبة المشترك .

● الاشتراك يرسل حوالة بريدية او شيكا أو يدفع نقـدا الى محاسب مجلة المعرفة ـ جادة الروضة ـ دمشق .

● يتلقى المشترك كل سنة كتابا هدية من منشورات وزارة الثقافـة والارشاد القومي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تنويـــه

● ترتيب مواد العدد يخضع لاعتبارات فنية ، ولا علاقة له بقيمة المادة أو الكاتب .

● المواد التي تصل الى المجلة لا تعاد الى أصحابها سـواء نشرت أم لم تنشر .